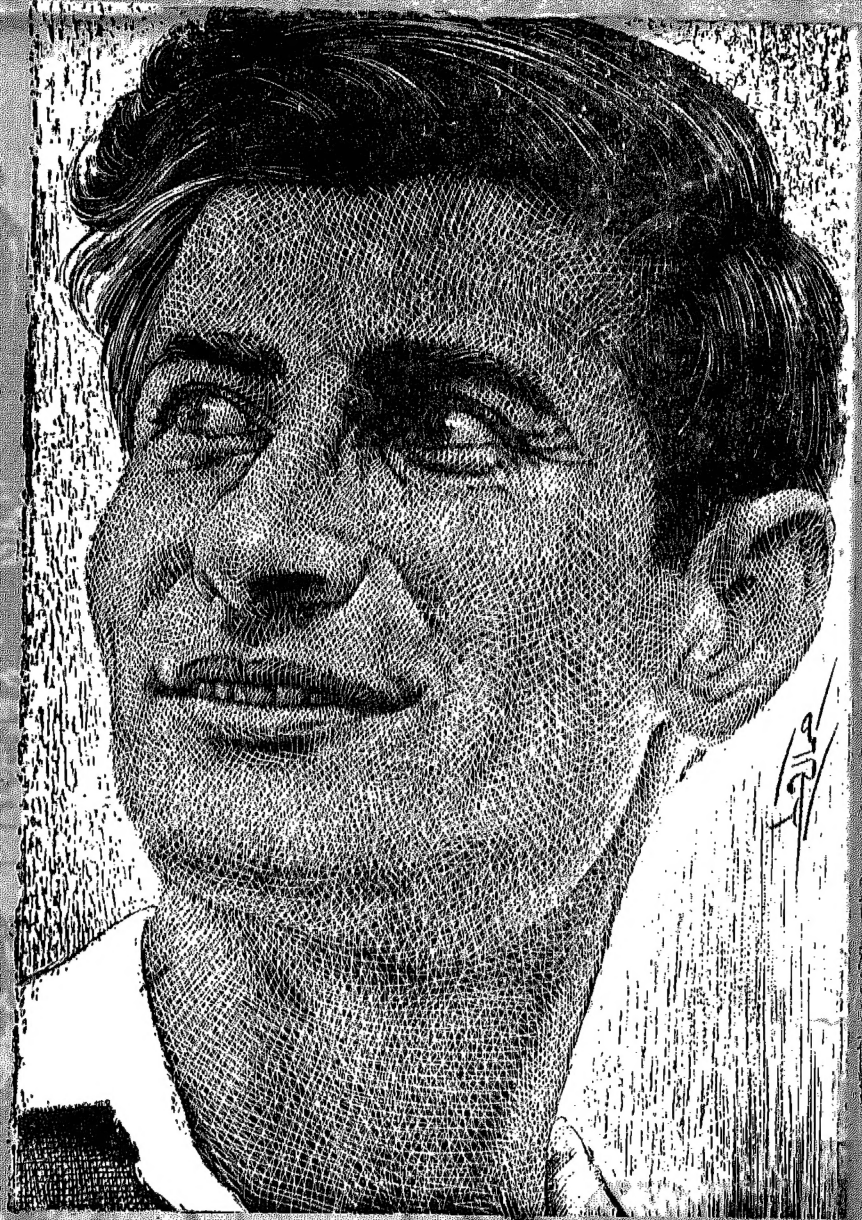


رجاء النقاش



ود درویش

والأرض المحتلة



دار الهلال

الطبعة الثانية

رجاء النقاش

محمود درويش
شاعر الأرض المحتلة

الطبعة الثانية
دار الهلال

مقدمة الطبعة الأولى

كان لقائي الأول مع أدب المقاومة في أرض فلسطين المحتلة في أواخر سنة ١٩٦٦ ، وأذكر اننى في ذلك الحين كنت في زيارة للجزائر مع وفد صحفى من الجمهورية العربية المتحدة ، وكان ضمن برنامج هذه الرحلة أن نزور المنطقة البترولية في صحراء الجزائر ، وكان من الضروري أن نركب طائرة تحملنا من العاصمة الى قلب الصحراء ، وذلك لبعد المسافة ، حيث تستغرق المواصلات العادية وقتا طويلا لا تحتمله أيام زيارتنا المحدودة . وفي الطائرة وقعت يدي على جريدة جزائرية وأخذت أتصفح الجريدة التماسا لقضاء الوقت حتى نصل الى منطقة البترول ، وفي ركن من أركان الجريدة وقعت عيني على قصيدة قصيرة بتوقيع « محمود درويش » ، وقد قدمتها الجريدة على أنها قصيدة لشاعر من أرض فلسطين المحتلة . وقرأت القصيدة فهزنى ما فيها من صدق وبساطة وجمال فنى ، وهزنى فوق ذلك كله ما فيها من حرارة ثورية عنيفة . ولست أدرى كيف ثبت فى وجدانى آنذاك أن « محمود درويش » هذا ليس اسما حقيقيا وإنما هو اسم مستعار لمناضل عربى ثورى يعيش متخفيا فى الأرض المحتلة ، كما أن القصيدة نفسها بدت لى نوعا من المنشور الثورى الذى كتبه ذلك المناضل السرى ليرفع الروح المعنوية للعرب المقيمين فى فلسطين المحتلة . ولم أكن أتصور أن بين عرب الأرض المحتلة حركة أدبية ثورية لها قيمتها وخطورتها ، ولعل ذلك يعود الى قلة المعلومات عن عرب الأرض المحتلة وندرتها ، ثم صعوبة الوصول الى مصادر دقيقة تصور أحوالهم وواقعهم وطريقة تفكيرهم واحساسهم وتعبيرهم عن أنفسهم ، فحتى ذلك الحين — عام ١٩٦٦ — كان عرب الأرض المحتلة يعيشون فى ظل ستار خديدي

عنيف لا يستطيع أحد أن يعرف ماذا يدور وراءه من أحداث ، ولم يكن هذا الستار الحديدي من صنع إسرائيل وحدها ، بل كان من صنع العرب أيضا ، فالعقلية العربية في ذلك الوقت ، بل وبعد ذلك أيضا ، كانت ما تزال خاضعة لمنطق غريب هو تجاهل ما يدور في الأرض المحتلة سواء بالنسبة لليهود أو بالنسبة للأقلية العربية هناك . ولعل ذلك كان يرجع الى الاستهانة بالعدو الاسرائيلي ، والنفور الشديد منه ، وعدم تقدير قوته الحقيقية . . لقد كان هناك وهم كبير يعيش في الوجدان العربي هو أن إسرائيل عدو سهل يمكن هزيمته بنفخة هواء أو بلمسة اصبع أو بركلة قدم ، ومثل هذا العدو لا يستحق منا فهما أو دراسة أو بحثا في أصوله وجذوره .

وعندما وقعت هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، اهتز الضمير العربي كله ، وبدأت الأقلام الجادة المخلصة تفتش عن أسباب المأساة ، وكان على رأس أسبابها الواضحة أن العرب يعرفون القليل عن إسرائيل وما يجري فيها ، وأن الاسرائيليين على العكس يعرفون كل شيء عن العرب . ولقد كان على العرب أن يعرفوا عدوهم بدقة حتى يتمكنوا من مواجهته . وكان هذا الأمر بديهية من البديهيات . ومع ذلك فقد غابت هذه البديهية عن النضال العربي وقتا طويلا ، وبصورة مثيرة للدهشة بل ومثيرة للفرع . ولم يبدأ العرب في التعرف على حقيقة عدوهم الاسرائيلي بصورة سليمة الا بعد أن ظهر مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية والذي يرأسه الدكتور أنيس صايغ . ومع ذلك ورغم المجهود الضخم الدقيق الأمين الذي يبذله مركز الأبحاث الفلسطينية ، فإن دراسات هذا المركز لم تحظ باهتمام كاف الا بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . فقد أحدثت الهزيمة أثرها العنيف ، وأصبح المثقفون متلهفين على فهم هذا العدو المجهول فهما كاملا . ومن خلال موجة اكتشاف العدو ومحاولة فهمه احتلت الأقلية العربية داخل إسرائيل ، بظروفها ومشاكلها ونشاطها الفكري والعملی ، مكانا بارزا

في الدراسات التي ظهرت قبيل عدوان ٥ يونيو وبعده * وهنا بدأنا نعرف بعض التفاصيل عن شعراء المقاومة داخل الأرض المحتلة وعلى رأسهم : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وراشد حسين وسالم جبران وغيرهم ، وبدأت الصورة تتضح أمامنا بشيء من النضج والاكتمال ..

وقد ساعد على ذلك احتلال إسرائيل للضفة الغربية من الأردن ، حيث أصبح العرب داخل الأرض المحتلة بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ نسبة عالية تقرب من المليون مواطن أو تزيد * واتصل أهل الضفة الغربية بالعرب المقيمين داخل أسوار إسرائيل وعرفوا الكثير عنهم وعن ظروفهم السياسية والفكرية والاقتصادية * واستطاع أهل الضفة الغربية بوسائل متعددة أن ينقلوا الى العرب في كل مكان كثيرا من المعلومات والحقائق عن أبناء الأرض المحتلة الأصليين * ومن بين ما تسلل من الأرض المحتلة في تلك الفترة بعض دواوين شعراء المقاومة الذين يعيشون داخل أسوار إسرائيل .

ولقد كان اتساع حركة الفدائيين وزيادة نشاطهم داخل الأرض المحتلة وسيلة أخرى من وسائل تسرب المعلومات عن عرب الأرض المحتلة * وبهذه الوسائل كلها وبغيرها ، بدأت تتوفر أمامنا صورة تقريبية لأدب المقاومة في فلسطين المحتلة . وبدأت تظهر أمامنا صورة لم تكن متوقعة هي أن هناك حركة شعرية ناضجة ورائعة في داخل الأرض المحتلة ، وأن الحكم بنضجها وروعها من الناحية الفنية والفكرية ليس راجعا الى تعاطفنا السياسي أو النضالي مع هذه الحركة ، بسبب ما يعانيه أصحابها من الشعراء الشباب في ظروف حياتهم الصعبة داخل أسوار إسرائيل .. ان هذا التعاطف حقيقة لا شك فيها ، ولكن الحركة الشعرية الجديدة داخل الأرض المحتلة تتمتع بقيمة فنية وفكرية على أكبر درجة من النضج والاصالة بصرف النظر عن جميع الاعتبارات السياسية والعاطفية الأخرى * ان الشعراء انشبان البارزين في الأرض المحتلة هم شعراء موهوبون ، ولو ظهوروا في

ظروف أخرى وأرض أخرى لكان لهم أيضا قيمتهم كفنانين بارزين • ان هؤلاء الشعراء انما يرتفعون الى مستوى كبير لا عن طريق القضية التي يعبرون عنها فقط وانما عن طريق مواهبهم الشعرية الواضحة في نفس الوقت • فنحن لا نجالملهم من أجل قضيتهم وانما هم في الواقع أصحاب قضية كبيرة وأصحاب مواهب كبيرة في نفس الوقت بحيث نستطيع أن نقول : انهم من ألمع الشعراء العرب الذين ظهوروا في المرحلة الراهنة من تاريخنا الأدبي • وعلى رأس هؤلاء الشبان يقف محمود درويش ، وهو أول اسم عربي تسلل بشعره الى خارج الأسوار الاسرائيلية ، وهو بالنسبة لي أول وجه حبيب التقيت به في بحثي عن حركة الشعر في الأرض المحتلة ، وقد هزنى هذا الوجه بفنه ونضاله معا ، ومن خلال الحقائق التي تجمعت لدي عن حياة هذا الشاعر وفنه أقدم هذه الدراسة التي أرجو أن تساهم في لقاء بعض الضوء على هذه الحركة الأصيلية من حركات الشعر العربي المعاصر ، وهي حركة شعر المقاومة في الأرض المحتلة ، كما أرجو أيضا أن أقدم بعد هذه الدراسة دراسات أخرى عن سميح القاسم وغيره من شعراء الأرض المحتلة .

ولقد كان من الطبيعي أن تمتد أي دراسة لمحمود درويش الى دراسة القضية التي يعبر عنها ويستمد منها تجاربه الانسانية ... هذه التجارب التي يعتمد عليها في قصائده المختلفة ، ولذلك فقد عنيت في هذه الدراسة بقضية العرب في اسرائيل وظروفهم المادية والنفسية ، كما حاولت أيضا أن ألقى بعض الضوء على التراث الشعري في فلسطين منذ سنة ١٩٣٦ حتى ظهور محمود درويش ورفاقه ، وذلك لأن هذه المدرسة الشعرية الجديدة لم تنشأ في فراغ ، وانما اتصلت بشكل أو بآخر بالحركات الشعرية السابقة التي ظهرت في المراحل المختلفة للنضال العربي الفلسطيني •

كما حرصت دائما على أن أشير الى زملاء محمود درويش وأبناء جيله من الشعراء البارزين في هذه الحركة الشعرية الجديدة ، ذلك لأن محمود

درويش ليس مجرد عبقرية فنية فردية وليس نموذجا نضاليا شاذا ، بل هو
 فنان مرتبط بحركة شعرية واسعة ، وتجربة نضالية عريضة ، وهو يتأثر
 برفاقه ويؤثر فيهم ، لأنه مرتبط بهم ارتباطا واضحا لا شك فيه .
 ولعل خير ما أختتم به هذه المقدمة هو تلك الأبيات التي تفيض بالثورة
 والتفاؤل والحرارة والرفض الكامل لليأس ، والتي كانت أول ما قرأت
 من شعر المقاومة في الأرض المحتلة ، وأول ما قرأت من شعر محمود
 درويش ، وكان ذلك في طائرة جزائرية ذات يوم من أيام عام ١٩٦٦ ، وفي
 إحدى الصحف التي تصدر في ذلك البلد المناضل الذي عرف أحزانا
 وجراحا شبيهة بالأحزان والجراح التي تنزف من قلب فلسطين *
 أما هذه القصيدة فقد نشرها محمود درويش في ديوانه « أوراق
 الزيتون » بعنوان « عن الأمنيات » :

لا تقل لى :

ليتنى بائع خبز في الجزائر

لأغنى مع ثأري

لا تقل لى :

ليتنى راعي مواش في اليمن

لأغنى لاتفاضات الزمن

لا تقل لى :

ليتنى عامل مقهى في هافانا

لأغنى لاتنصارات الحزاني

لا تقل لى :

ليتنى أعمل في أسوان حمالا صغيرا

لأغنى للصخور

ياصديقي

لن يصب النيل في القولجا

ولا الكونغو ، ولا الأردن ، في نهر الفرات
 كل نهر ، وله نبع *** ومجرى *** وحياة
 يا صديقي
 أرضنا ليست بعاقرة
 كل أرض ولها ميلادها
 كل فجر وله موعد ثائر !
 .. ذلك هو الشاعر الثائر النبل الذي تدور حوله هذه الدراسة ،
 وتلك هي لغة فنه ولغة قلبه ولغة تفاؤله الثورى العظيم ..
 رجاء النقاش

مقدمة الطبعة الثانية

فى يوليو سنة ١٩٦٩ صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ونفدت خلال شهور قليلة ، وكان تجاوب القراء مع هذا الكتاب تعبيراً عن رغبة حارة لدى المواطنين العرب فى التعرف على كل ما يتصل بالأرض المحتلة ومشاكلها المتعددة وعلى كل ما يدور فى النفس العربية من مشاعر وانفعالات فى تلك الأرض العزيرة ، ولقد كانت لهفة المواطنين العرب على هذا كله موقفاً له ما يبرره ، فمنذ سنة ١٩٤٨ الى اليوم لم نكن نعرف شيئاً له قيمة عن العرب فى الأرض المحتلة ، حيث كان هؤلاء العرب يعيشون فى ظل سور حديدى رهيب من أسوار الاضطهاد الاسرائيلى ، وعندما بدأت المعلومات تتسرب يوماً بعد يوم عن هؤلاء العرب كان من الطبيعى جداً أن يتلقفها المواطنون خارج الأرض المحتلة بلهفة وحرارة ، وعندما تحولت قضية الأرض المحتلة الى قضية شعب يقاوم بالرصاص لا قضية لاجئين ومشردين ، وتحولت فى نفس الوقت الى أغان وأناشيد وقصائد رائعة على يد محمود درويش ورفاقه من شعراء المقاومة .. عندما تحولت القضية الى فن جميل نبيل اهتز وجدان الناس جميعاً فى أرضنا العربية ، ذلك لأن الفن دليل على النبض الانسانى ، وقضية بلا فن هى ولا شك قضية قائمة معتمدة ، ولقد ظلت قضية العرب فى الأرض المحتلة حوالى عشرين عاماً تشكو من هذا القحط الوجدانى والجذب العاطفى حتى ظهر المنشدون والمغنون من أبناء هذه الأرض المظلومة الجريحة .

وهذه الطبعة الثانية من كتاب « محمود درويش شاعر الأرض المحتلة » تصدر بعد سنتين من الطبعة الأولى وفيها تعديلات واضافات كانت كلها ضرورية ، ففي السنتين الماضيتين حدثت عدة ظروف أدبية وواقعية هامة

لم تكن موجودة من قبل ، فقد أصدر محمود درويش إنتاجا شعريا جديدا متنوعا بل لقد كان العايمان الماضيان من أخصب فترات حياته الفنية وإنتاجه الشعري ، ومن ناحية أخرى فإن المعلومات الخاصة بحياة محمود درويش قد ازدادت وضوحا من خلال أحاديث الشاعر التي أدلى بها في مناسبات متعددة ووصلت الى الصحف العربية المختلفة ، وهناك بعد ذلك كله تلك المفاجأة الكبيرة التي وقعت في حياتنا الأدبية في أوائل شهر فبراير ١٩٧١ ، فقد وصل محمود درويش الى القاهرة للإقامة بها تحت تأثير الارهاب الاسرائيلي العنيف ، ورغبة منه في أن يعلن للعالم كل ما يعرفه عن آلام العرب في الأرض المحتلة وهو ما لم يكن ميسورا في ظل إقامته بالأرض المحتلة ، وقد صاحب خروج محمود درويش من اسرائيل مناقشات صاخبة حول هذا الموقف فكان هناك ترحيب من البعض واعتراض حاد وعنيف من البعض الآخر .

كل هذه العوامل كان من الضروري أن تغير بعض ملامح الصورة التي قدمتها الطبعة الأولى من هذا الكتاب وكان لا بد أن يضاف الى هذه الصورة ملامح جديدة بل وملامح أساسية . وهذا هو ما حاولته في هذه الطبعة الجديدة .

العرب في إسرائيل

على أثر اعلان قيام اسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ بقي عدد من العرب داخل حدود الدولة الجديدة ، بعد أن هاجر بقية المواطنين العرب أو طردوا بقوة السلاح الاسرائيلي من أرضهم ، وكان عدد الذين واصلوا الحياة داخل أسوار اسرائيل سنة ١٩٤٨ يبلغ ١٥٦ ألفا من المواطنين العرب ، ولكن هذا العدد وصل اليوم الى مايزيد على ثلاثمائة ألف مواطن .

وقد تعرض هؤلاء العرب لألوان عنيفة من الاضطهاد ، كانت كلها تهدف لآبادتهم بطريقة من الطرق ، فاما أن يهاجروا نهائيا من البلاد نتيجة للارهاب الذى يتعرضون له فى كل مجالات الحياة ، واما أن يموتوا فى المذابح المختلفة التى تصطنعها اسرائيل وتلفق لها الأسباب وتقتل فيها عددا كبيرا من المواطنين العرب .

ولعل أكثر ما يمثل شعور الاسرائيليين نحو العرب هو موقف « بن جوريون » الذى يمكن اعتباره « المواطن الاسرائيلي الأول » ، فهو الأب الروحي لاسرائيل ، وهو الأب المادى أيضا ، وقد هاجر الى فلسطين من بولندا سنة ١٩٠٦ فهو بذلك أقدم زعماء اسرائيل الاحياء ، وقد ظل أقواهم نفوذا فى الحياة السياسية الاسرائيلية حتى سنوات قليلة حيث اعتزل العمل السياسى المباشر بسبب شيخوخته .

ان موقف « بن جوريون » هو موقف شديد التعصب ، انه يكره كل شئ يتصل بالعرب ، ويعبر عن كراهيته بشكل عنيف خال حتى من اللياقة السياسية التى يحاول أن يتظاهر بها بعض السياسيين الاسرائيليين الآخرين ، وخاصة أبا ايان ، حيث يردد كثيرا فى تصريحاته : « ان العرب واليهود » هم أبناء عم ، والمفروض من وجهة نظره ألا يختلفوا ... ان

« بن جوريون » لا يتحدث بهذه الروح الديبلوماسية ، ولا يخفى خنجره في حريز ناعم ، انه يكره الشخصية العربية ، واللغة العربية ، والأسماء العربية والأماكن العربية ... ويود لو استطاع أن يمحو كلمة عرب من كل لغات العالم .

وينقل لنا المحامي العربي المقيم في اسرائيل صبرى جريس وذلك في كتابه الهام عن « العرب في اسرائيل » ، ما قالته احدى المجلات الاسرائيلية سنة ١٩٥٨ ، عن « بن جوريون » الذي كان آنذاك رئيسا للوزارة ... لقد قالت هذه المجلة : « ان رئيس حكومة اسرائيل ما زار مدينة أو قرية عربية منذ قيام اسرائيل ، وعندما زار مدينة الناصرة العليا اليهودية ، رفض أن يزور مدينة الناصرة العربية وهي لا تبعد الا بضعة مئات من الامتار عن الناصرة اليهودية + وخلال السنوات العشر الأولى من قيام اسرائيل لم يستقبل « بن جوريون » وفدا واحدا من المواطنين العرب + وتحت ضغط حزبه تكرم باستقبال أعضاء الكنيسة العرب ، وفي هذا الاستقبال وعدمهم وعودا عرقية . وفي ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، التقى بهؤلاء الأعضاء ثانية بمناسبة الانتخابات + و « بن جوريون » الذي تعلم اليونانية ليقرا أفلاطون ، والأسبانية ليقرا سرفانتس ما رأى من واجبه أن يتعلم العربية ليقرا الذخائر العربية المجيدة ، ورغم أنه سلخ ٥٣ سنة من هجرته الى اسرائيل الا انه لا يفقه شيئا من الاذاعة أو الصحافة العربية » .

هذا ما قالته احدى الصحف الاسرائيلية عن « بن جوريون » ، ويجب أن نلاحظ هنا أن اللهجة الطيبة التي تتحدث بها هذه الصحيفة عن العرب والثقافة العربية انما هي وليدة المعارضة السياسية لـ « بن جوريون » ، وهي محاولة لتجريحه سياسيا من خلال موقفه من العرب في اسرائيل ، فحقيقة الموقف الاسرائيلي من العرب لا يختلف بين حزب اسرائيلي وآخر اختلافا جوهريا ، انما هي كلها اختلافات مظهرية شكلية ... فالجميع ضد العرب والجميع يوافقون في اللحظات الحاسمة على الاجراءات التعسفية العنيفة

ضد المواطنين العرب .

واذا حاولنا أن نتابع الاجراءات التى تتخذها السلطات الاسرائيلية ضد هؤلاء المواطنين الذين وقعوا فى مصيدة الدولة الاسرائيلية ، فاننا سنجد أمامنا عددا من الأساليب المحددة التى تحكم تصرفات اسرائيل مع العرب المقيمين بها ..

فالاسرائيليون يعاملون العرب كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة ، والعرب لا يتمتعون بحقوق المواطن العادى ، ويجدون صعوبات لا حد لها فى مواصلة حياتهم اليومية وتحديد مستقبلهم ، واذا أردنا أن نقدم بعض النماذج التى لا تمثل حصرا كاملا لأساليب الضغط والارهاب الاسرائيلى فسوف نجد أمامنا أشياء كثيرة : فالعامل العربى فى اسرائيل لا يتمتع بأى حقوق ، ولا ينتسب الى أى نقابة ، وهو دائما يقوم بالأعمال الشاقة الصعبة ، كالعامل فى المجارى والبناء ، ويتقاضى دائما أجورا أقل مما يتقاضاها العامل الاسرائيلى حتى لو كان يقوم بنفس العمل . وكما يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » : « كان العامل العربى البسيط سنة ١٩٥٢ ، يتلقى مقابل عمل يوم واحد لدى دائرة الأشغال العمومية ، ليرة اسرائيلية واحدة ، فى حين كان العامل اليهودى يأخذ مقابل العمل نفسه وفى الدرجة نفسها ٢٦٣ من الليرات الاسرائيلية لليوم الواحد ، وبينما كان العامل العربى المهنى « كعامل البناء مثلا » يأخذ ٢٥٠ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم ، كان العامل اليهودى يأخذ ٣١٤ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم » .

كل هذا بالإضافة الى امكانية طرد العمال العرب من أعمالهم فى أى وقت دون أية مسئولية قانونية ، أو دون خوف من حساب أو عقاب ، بل ان الجهات الاسرائيلية الرسمية تشجع هذا الأسلوب فى معاملة العمال العرب وتؤكدده باستمرار . ويصل وضع العرب الى حد بعيد من السوء عندما نعرف ان بعض المواطنين يضطرون كثيرا الى تغيير أسمائهم الى

أسماء « عبرية » حتى يستطيعوا مواصلة حياتهم والحصول على خبزهم . فشاب اسمه « محمد » يسمى نفسه اسما يهوديا مثل « دافيد » ، وشاب اسمه « رشيد » يسمى نفسه « اتسحاك » ، كما جاء في بعض المقالات المنشورة في صحف اسرائيل نفسها . وانى أستأذن القارئ في نقل نصين هنا ، ترجمهما عن العبرية الأستاذ « ربحى كمال » في كتابه « العرب في الأرض المحتلة » وهما نصان يكشفان عن نفسية المواطن العربى العادى فى حياته اليومية وما تعانیه هذه النفسية من آلام كثيرة لا تنتهى ، وهى آلام تواجهه فى كل لحظة وفى كل حركة خلال حياته اليومية . وهذان النصان منشوران فى الصحف الاسرائيلية نفسها . وقبل أن نتوقف أمام هذين النصين يجب أن نشير الى أن الصحف الاسرائيلية لا تنشر هذه الحقائق عن العرب من باب الايمان الحقيقى بتعديل هذه الأوضاع ، بل من باب الصراع السياسى فى داخل اسرائيل بين الأحزاب المختلفة ، ومن باب تدعيم المظهر الديمقراطى فى اسرائيل ، وهو مظهر خارجى يخفى فى داخله نظاما عسكريا ارهايبا ليس فيه منفذ للحرية الحقيقية أو الديمقراطية الحقيقية ، ومن ناحية أخرى يقوم نشر هذه الحقائق بنوع من الدعاية الخارجية لاسرائيل ، فكان اسرائيل بمثل هذه المواقف الصحفية تضم جناحا من اليهود يدافع عن حقوق الأقلية العربية ويحميها . وهو مظهر لا يتعدى حدود « الدعاية » الى الدفاع الجدى عن هذه الحقوق . على أننا فى نهاية الأمر قد نجد بين المثقفين الاسرائيليين من يشعر بخطورة المشكلة العربية فى اسرائيل ولكن هؤلاء المثقفين لا يفهمون المسألة فهما جذريا وانما يتصرفون بناء على تصور محدد ، هو أن بالامكان أن يقبل العرب وجود اسرائيل لو أحسنت اسرائيل معاملة العرب فى الداخل . وقد يكون هؤلاء هم خير المثقفين فى اسرائيل ولكنهم فى حقيقتهم لا يختلفون عن غيرهم فى تأييد قيام اسرائيل وبقائها فوق جثة العرب الذين خرجوا من فلسطين وتركوا بلادهم وتحول عدد كبير منهم الى لاجئين مشردين . ولذلك فإن أمثال هذه المواقف بين المثقفين الاسرائيليين لا تغير

صورة اسرائيل الجهورية وهى أنها دولة عنصرية .. ترفع العنصر اليهودى على غيره من العناصر وبخاصة العنصر العربى ، وهى دولة تقوم على أساس اغتصاب حق العرب واضطهادهم ومحاولة ابادتهم . ان الخلافات بين الاسرائيليين هى خلافات فى « الدرجة » وليست خلافات فى « النوع » ونعود الى النصين المنشورين فى الصحف الاسرائيلية والنص الأول هو رسالة فى بريد القراء نشرتها احدى الصحف الاسرائيلية لمواطن عربى اسمه محمود أسامة ويقول هذا المواطن فى رسالته :

« ان لدينا معشر المواطنين العرب المقيمين فى اسرائيل الشئ الكثير من المشاكل المزجة كقيود السير والتنقل ومصادرة الأموال ولكننا لا نبتغى شيئاً سوى السماح لنا بالعيش موفورى الكرامة على الأقل » ويواصل هذا المواطن العربى حديثه فيقول : « وحسبى أن أستشهد بما حدث من حوادث خلال أسبوع واحد فقط للوقوف على كيفية معاملتنا فى اسرائيل ففى خلال هذا الأسبوع وحده حدثت معى الحوادث التالية :

١ - قال لى بائع التذاكر فى « بيت ليد » : اذهب واشتر تذاكر من عند عبد الناصر !

٢ - وفى مقهى عدن أشار الينا بعض الزبائن اليهود وقالوا : عرب ، عرب ، ماذا يفعلون هنا ؟

٣ - وفى مكان عملى شتمنى العمال اليهود ثم سبوا دين النبى محمد .

٤ - وفى حيفا حدثت مشادة بيننا وبين بعض المواطنين اليهود لاهاتهم ايانا ، ولما ذهبنا لتقديم شكوى الى مركز البوليس قيل لنا : لم هذا الازعاج ولاداعى لتقديم شكوى ... »

ولعل مضمون هذه الرسالة هو مايعبر عنه أحد شعراء الأرض المحتلة من رفاق محمود درويش وهو سسيح القاسم فى احدى قصائده ، وفى هذه القصيدة وعنوانها « اخوة » يرد سميح على هؤلاء الذين يفتعلون الحديث عن « الاخوة الاسرائيلية العربية » من بين أبناء اسرائيل ، ثم

يمارسون في واقع حياتهم أسلوبا من أقسى أساليب التفرقة ضد المواطنين العرب .. ويقدم سميح القاسم قصيدته بقوله : « الى الذين يعرفون الاخوة من جلدنا .. ويتركونها مرتجفة في صقيع الزيف ! » ثم يقول في القصيدة نفسها :

أخوك أنا ؟ من ترى ذادني عن البيت والكرم عنوة
تحملي من صنوف العذاب بما لا أطيع وتغشاك زهوه
وتشتمني .. وتعلم طفلك ، شتم نبى .. بأرض النبوه
تشك بدمعى اذا ما بكيت وتسرف في الظن ان سرت خطوة
وتحصي التفاتاتي المتعبات .. فيوما أشار ويوما تفوه
وان قام ، من بين أهلك واع يبرئني .. تزدرية بقسوه
وتزجره شاجبا « طيشه » وتلعن أنى توجهت لغوه
واما شكوت .. فمنك اليك .. لتحكم كيف اشتت فيك شهوه
فكيف أغنى قصائد حب وسلم .. وللكره والحرب سطوه
وأشد أشعار حرية .. لقضبان سجنى الكبير المشوه ؟

ففى كلمات الشاعر سميح القاسم ما يكاد يكون تصويرا مباشرا لواقع العرب داخل اسرائيل ، وللظروف النفسية والمادية القاسية التى يعيشون فيها هناك ، واذا كانت أبيات سميح القاسم تصور هذا الواقع تصويرا فنيا فان رسالة المواطن العربى السابقة الى الصحيفة الاسرائيلية تصور نفس الواقع تصويرا حيا مباشرا من خلال الأحداث اليومية ..

وهناك نص آخر يكشف عن تلك اللعنة اليومية التى تطارد العربى فى اسرائيل حتى فى حياته العادية البسيطة ، وهذا النص الثانى نشرته احدى الصحف الاسرائيلية أيضا وذلك فى تحقيق بعنوان « الأقلية العربية فى تل أبيب » وقد جاء فى هذا التحقيق :

« أما الأماكن التى يسكنها العرب فهى فى غاية الحقارة والقذارة فى « أوسخ » أحياء تل أبيب + اليك مثلا هذا الشاب رشيد شريف ، فى

الحادية والعشرين من العمر ، يعمل كسفرجى فى أحد مطاعم تل أبيب ، ومن الصعب أن تفرق بينه وبين شخص آخر يهودى من حيث لباسه وسلوكه ومنظره . قال الشاب : ليس من السهل العيش كما نعيش نحن .. اننا ندعى بأسماء عبرية .. فأنا مثلا أدعى « اسحاق » لأن الزبائن لا يستلطفون أسماءنا العربية .. وجميع الشبان العرب الذين يعملون فى المطاعم يسمون بالأسماء التى يعينها لهم صاحب المطعم . انه شعور بالحقارة لكن ماذا يمكن أن نعمل ؟ يجب أن نبدل أسماءنا لنعيش وحينما أمشى فى الشارع ، وأنا أحمل ترانزستور أفتحه على محطة عبرية حتى لا يحسبني الناس عربيا .. وذات مرة صادق رفيقى « محمد » فتاة يهودية ، وكان يذهب ويجيء معها ثلاثة شهور ، ويأخذها الى السينما والى شاطئ البحر ويعاملها معاملة حسنة . وذات يوم قالت انها تريد أن ترى بطاقة الشخصية ولكنه لم يطلعها عليها . ثم حدثتها انا عن العرب وقلت لها :

— هل تحسبين أن هناك فرقا بين العرب واليهود ؟

قالت : لقد علمونا فى المدرسة ان العرب أشرار ... يأكلون الناس ، وما الى ذلك !!

ولم أستطع أن أسكت ، فقلت لها :

— أنا عربى ودافيد أيضا عربى . لقد عاشرت دافيد فكيف وجدته ؟ هل قبلك يوما بالقوة ؟ هل تأخر يوما عن دعوتك ؟ ألم يعاملك دائما بالاحترام ؟ فما الفرق اذن ؟ فراحت تبكى وقالت :

— صحيح ، صحيح ، لقد كان على مايرام .

ثم ان دافيد قال لها : اذا شئت رؤيتى فاخبرينى والا فلا .

فقلت : أنا أريد أن أراك ..

ولكنها لم تعد للاجتماع به ، لأن أهلها منعوها من ذلك ... »

هذه هى الصورة الانسانية البسيطة القاسية داخل اسرائيل ، والتى يرسمها مواطنان عاديان من العرب لا يتعرضان فيها للمشكلة السياسية:

تعرضا مباشرا ، ومثل هذه الصور رغم بساطتها ، بل وسذاجتها أحيانا تكشف لنا عن ذلك الواقع الأليم الذى يعانى به العرب فى اسرائيل .. بما فى هذا الواقع من صعوبات ومشاكل وآلام يومية عنيفة ..

واذا كانت شخصية « بن جوريون » تقدم صورة اسرائيلية نموذجية للشعور بالكراهية نحو العرب والعمل على القضاء عليهم نهائيا بحيث لا يبقى لهم أثر فى أرض فلسطين ، فان هناك تصريحاً أدلى به أحد كبار الموظفين الاسرائيليين يزيد الأمر وضوحا ويلقى كثيرا من الضوء على حقيقة موقف اسرائيل من العرب ، وقد أدلى الموظف الكبير بهذا التصريح فى ابريل عام ١٩٦٧ ، وفى هذا التصريح يقول الموظف الاسرائيلى :

« أعتقد أن الكيان القومى هو فوق كل اعتبار ، ان وجود أقلية عربية فى اسرائيل يعرض للخطر مستقبل الدولة اليهودية ان آجلا أو عاجلا ، وللحيلولة دون هذا الخطر فان كل شئ جائز شريطة ألا يحدث استنكارا أو احتجاجا فى العالم ، ويجب البحث عن طريقة مناسبة للتغطية واتقاء الألفاظ والمصطلحات وقد تدعو الضرورة الى تجاهل رأى العام العالمى »

ثم يقول هذا الموظف عن العرب :

« يجب تضيق خطواتهم ، وأخذ الأراضى منهم .. واذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعة فلا يجوز اعطاؤه عملا ، يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس سنوات ، وأن يقع فريسة اليأس ويدرك ألا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر »

وتكاد هذه الكلمات أن تكون تعبيراً نظرياً دقيقاً عن السياسة الاسرائيلية العملية التى تنتهجها الدولة الاسرائيلية فى معاملة العرب . انهم ينزعون الأراضى من العرب بحجج واهية . ويستولون على ثرواتهم باستمرار . ويصل بهم الأمر أحيانا الى قتل الأغنام التى يملكها العرب بسموم يرشونها على الأعشاب والمراعى ، كما يقومون بهدم البيوت العربية ، ويعملون بكل الوسائل على تجريد العربى من أى حق له أو قوة يعتمد عليها فى حياته .

بل وتعتمد الأجهزة الاسرائيلية المختلفة الى محاربة العرب حتى في ميادين « الرياضة » حيث تحدث اعتداءات متكررة وقاسية على أعضاء الفرق الرياضية العربية وعلى الجماهير العربية التي تحاول أن تشاهد المباريات المختلفة . وكل ذلك يهدف الى شىء واحد هو منع أى تجمع عربى فى أى ميدان من الميادين ، فالتجمع قد يؤدى الى تقوية المواطنين العرب حتى لو كانوا ضعفاء كأفراد ، بعد أن تم حرمانهم من جميع الفرص الطبيعية التي كان من الممكن أن تمنحهم قوة جماعية وقدرة على الدفاع عن حقوقهم ..

وبالنسبة للتعليم تضع اسرائيل قيودا عنيفة ضد تعليم العرب . فمباني المدارس رديئة غير صحية وغير نظيفة ، والمدرسون العرب غير مؤهلين للقيام بدورهم التربوى ، ولاتاح لهم أية فرصة لتأهيل انفسهم ، والكتب المدرسية شبه معدومة ، والقيود مفروضة على تعليم اللغة العربية ، بينما تفرض الدولة على العرب أن يتعلموا اللغة العبرية . ويكفى لكى ندرك مايعانيه العرب من ضعف فى مستوى التعليم أن نعرف أن الراسبين فى الشهادة الثانوية من الطلاب العرب يبلغون ٩٠٪ من هؤلاء الطلاب كل عام على التقريب ، يزيدون أحيانا عن هذه النسبة قليلا ، أو يقلون عنها قليلا ، ولكن النسبة العامة للراسبين تدور عادة حول هذا الرقم المخيف . وحسبنا أن نقرأ رقما آخر هو رقم حاملى الشهادة الثانوية ، حيث نجد أنه فى عام ١٩٦٢ ، كان الذين حصلوا على هذه الشهادة من العرب حوالى ٧٦ طالبا ، بينما حصل عليها من الاسرائيليين ٧٥٠٢ من الطلاب . واذا علمنا أن نسبة العرب فى اسرائيل تبلغ حوالى ١١٪ من مجموع السكان فلقد كان من الضرورى أن يكون عدد الحاصلين على الشهادة الثانوية من العرب أكثر من خمسمائة ولكنهم لم يزيدوا عن ٧٦ ، وذلك طبعا بسبب الحصار الثقافى العنيف المفروض على العرب : طلابهم ومدراسهم وكتبهم وأساتذتهم .

ومن الكتب المقررة على الطلاب العرب : التوراة ، وعلى الطالب العربى

أن يدرس التوراة لا أن يقرأها مجرد قراءة ، وفي نفس الوقت يحذف الاسرائيليون من القرآن بعض الآيات حذفاً نهائياً ، ويحرمون دراستها أو قراءتها أو مناقشتها بأي شكل من الأشكال ومن هذه الآيات القرآنية المحظورة على العرب داخل اسرائيل قول القرآن الكريم في سورة الممتحنة :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ..

تلك هي الآية الكريمة التي حذفها الاسرائيليون من القرآن ، ومن الواضح أن حذف هذه الآية انما يقصد الى تجنب ما فيها من دعوة صريحة للجهاد المقدس ضد الذين يعتدون على المسلمين باخراجهم من ديارهم وابعادهم عن أماكنهم المقدسة ومحاولة تشويه الدين الاسلامي ومطالبة أهله ، فالآية الكريمة تدعو الى الثورة ضد الاسرائيليين ومن هنا فقد حذفوها من القرآن .

ويكشف شاعرنا محمود درويش في حديث أدبي نشرته له مجلة « الطريق » اللبنانية عن أساليب القهر الثقافي التي تفرضها اسرائيل على العرب فيقول : « في المدرسة يعلموننا عن تيودور هرتزل أكثر مما تتعلمه عن محمد ، والنماذج التي ندرسها من شعر حايم نحمان بيباليك أكبر بكثير من نماذج شعر المتنبي ، ودراسة التوراة اجبارية أما القرآن فلا وجود له ، لذلك أحسبنا أن غزوا ثقافيا لنشر العبرية يزحف إلينا ناعما كالأفعى » .

والاسرائيليون لا يمارسون أساليبهم في الاضطهاد ضد المسلمين فقط ، بل ويمارسون نفس الأساليب ضد المسيحيين أيضا . ولعل مايقوله شكرى الحازن ، وهو عربى مسيحي يعيش في حيفا ، وذلك في شكوى قدمها الى إحدى السفارات الغربية ضد اسرائيل بسبب المعاملة السيئة التي يلقاها المسيحيون هناك .. لعل مايقوله هذا المسيحي العربى في شكواه أن

يكشف لنا مزيدا من الحقائق عن موقف اسرائيل من العرب داخل الأرض المحتلة ..

يقول شكرى الخازن فى شكواه :

« ان السياسة التى يتبعها الاسرائيليون نحو الذين يسمونهم كفارا « جوييم » هى القضاء علينا عاجلا أو آجلا ، كما دلت على ذلك تجاربنا خلال الأعوام الثمانية عشرة الماضية ، ونحن كمسيحيين لاينبغى لنا أن نتنظر من حكام اسرائيل سوى الأعمال المؤلمة ، واذا عدنا الى الوراء رأينا سيدنا يسوع قد صلب على أيدي بنى اسرائيل . هذه حقيقة قائمة ، ويجب ألا نستهن بها بالرغم من مرور الأيام والأعوام .. اننى أعيش فى هذه البلاد وكلى اقتناع بأنه قد يأتى يوم يذبحوننا فيه ولذلك فقد أرسلت نصف أفراد عائلتى الى الخارج ، لانقاذهم من الموت . وأما النصف الآخر فقد بقى معى ليرى وينتظر مصيرنا ، وليكونوا معى ضحايا وقرابين » .

وليس اضطهاد الاسرائيليين للعرب . مسلمين ومسيحيين قاصرا على محاربتهم فى أرزاقهم وثقافتهم وتعليمهم وعقائدهم الدينية ، بل ويحاولون الاسرائيليون أن يخلقوا نوعا من التمزق الطائفى بين العرب ، ويحاولون على وجه الخصوص أن يخلقوا فجوة بين الدروز الذين يبلغون حوالى ثلاثين ألفا وبين غيرهم من السكان العرب ، والاسرائيليون يحاولون باستمرار أن يغذوا فى الدروز فكرة معينة ، هى أنهم يمثلون قومية خاصة مستقلة لا علاقة لها بالعرب ولا بالمسلمين ، ويصدر الاسرائيليون كتباً خاصة بالدروز ويملأونها بالأفكار التى تدعو الى انفصال الدروز عن العرب انفصالا كاملا ، كما قررت السلطات الاسرائيلية اقامة محاكم خاصة للدروز والسماح باعتبار « القومية الدرزية » قومية مستقلة ، وكتابتها فى البطاقات الشخصية للأفراد . كما أن الاسرائيليين يقبلون الشبان الدروز فى الجيش الاسرائيلى ، وهو الأمر الممنوع تماما بالنسبة للعرب ، والواقع أن الاسرائيليين يحاولون تزوير التاريخ بهذه الطريقة ، فالدروز

في حقيقة أمرهم ، وكما يقول المحامى صبرى جريس في كتابه عن عرب اسرائيل : « هم طائفة دينية عربية تأسست في نهاية القرن العاشر الميلادى وطقوسها الدينية مشابهة في أكثر تفاصيلها للديانة الاسلامية ، وهذه الطائفة تشكل من وجهة قومية ، جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية وتاريخها الحافل بالحرب ضد الاستعمار الفرنسى في سورية في العشرينات من هذا انقرن ليس الا قسما من التاريخ العربى ، والجدير بالذكر أن القسم الأعظم من المثقفين والشباب الدروز يستنكرون « خلق » هذه القومية الجديدة ويفخرون بانتسابهم الى الأمة العربية » .

هذا مايقوله صبرى جريس ، الكاتب والمواطن العربى الذى يقيم داخل اسرائيل^(١)، حيث يكشف عن هدف اسرائيل في خلق تمزق طائفى تريد أن تفرضه على العرب في الأرض المحتلة ، ويمكننا أن نضيف الى ما يقوله « صبرى جريس » : ان الطائفة الدرزية داخل اسرائيل قد أنجبت شاعرا من أبرز شعراء المقاومة الشبان ومن رفاق محمود درويش هو سميح القاسم ، وهو شاعر شاب موهوب ، يفيض شعره بالغضب الثورى وتظهر دواوينه الشعرية وبها كثير من الصفحات البيضاء حيث تحذف الرقابة في اسرائيل هذه القصائد وتعرض عليها ، والمشاعر التى يعبر عنها سميح القاسم ، هى مشاعر مواطن عربى حر غاضب مؤمن بقوميته العربية .. يدعو اليها بحرارة وايمان . وعندما ظهر ديوانه « أغاني الدروب » كتبت احدى الصحف الاسرائيلية عن هذا الديوان تقول :

« ظهر في الناصرة كتاب حافل بالأشعار الوطنية بعد أن توقف صدور مثل هذه الكتب سنين عديدة .. وهو بعنوان « أغاني الدروب » من تأليف الشاعر سميح القاسم من قرية الرامة ، قضاء عكا . وهذا الشاعر هو الشاب العربى الاسرائيلى الذى خدم في الجيش الاسرائيلى خدمة الزامية ، باعتباره درزيا ، ومع ذلك فقد نظم شعره بروح هى أعنف ماظهر

(١) خرج صبرى جريس من الارض المحتلة سنة ١٩٧٠ وهو يقيم الآن في بيروت حيث يعمل في مركز الابحاث الفلسطينية

في اسرائيل منذ قيام الدولة ، بل انها روح ثورية لم تر المطبعة الاسرائيلية مثيلا لها من قبل . وفي احدى قصائد هذا الديوان يهزأ الشاعر ممن يدعون للسلام ويتنصل منهم . وفي قصيدة أخرى يعبر عن سخطه على الذين يدعون الى التحاب والتعايش بين العرب واليهود ، وفي قصيدة ثالثة يرثى الشاعر لحال اللاجئين ويدعو الى الثورة لاعادة الابتسامة الى شفاه الصغار ، ويعلن في احدى قصائده استعدادده لتحمل مسئولية دعوته .

هذا الشاعر الدرزي الشاب سميج القاسم ، حاولوا أن يجعلوا منه عدوا للعرب والعروبة ، وحاولوا أن يجعلوا منه انسانا متعاوناً مع الاسرائيليين مهادناً لهم ، حاولوا أن يقنعوه بأنه درزي وليس عربياً ، وان الحلاف كبير بين الاثنين فلم يقنع بشيء من ذلك ، بل كانت أصالته كعربي وصاحب قضية ، أقوى من كل محاولات التزييف فوقف في وجه هذه المحاولات وانتصر عليها تماماً .

ولنقف لحظة مع نماذج من شعر هذا الشاب الموهوب وهي نماذج ترد بقوة على المحاولات الاسرائيلية لخلق انقسام طائفي بين العرب داخل اسرائيل سواء كان هؤلاء العرب مسلمين أو مسيحيين أو من بين الدروز!.. فسميج القاسم الدرزي يهاجم الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين هجوماً عنيفاً يؤكد أن الشبان الدروز لم يستجيبوا للمحاولات الاسرائيلية في ابعادهم عن الشعور بعروبته وبأنهم ينتمون الى الأمة العربية انتماء كاملاً .

يقول سميج القاسم في قصيدة له بعنوان « القصيدة الناقصة » يصور فيها كيف اعتدى الاسرائيليون على العرب وسلبوا منهم أرضهم : فلسطين ويؤكد الشاعر أن القصة لم تنته وأن لها بقية سوف تحمل العدل يوماً الى المظلومين... يقول الشاعر في هذه القصيدة :

وكان ذات يوم

أشأم مايمكن أن يكون ذات يوم

شرذمة من الصلال

تسربت تحت خباء الليل
الى عشاش .. دوحها فى ملتقى الدروب
أبوابها مشرعة

لكل طارق غريب

وسورها أزاهر وظل
وفى جنان طالما مر بها اله
تفجرت على السلام زوبعة
هدت عشاش سربنا الوديع

وهشمت حديقة .. ماجددت « سدوم »
ولا أعادت عار « روما » الأسود القديم
ولم تدنس روعة الحياة

وسربنا الوديع
ويلاه .. ان أحرفى تتركنى

ويلاه .. ان قدرتى تخوننى
وفكرتى من رعبها تضيع
وينتهى هنا ...

أمر ماسمعت من أشعار
قصيدة صاحبها مات ولم تتم
لكننى أسمع فى قرارة الحروف
بقية النغم
أسمع يا أحبتى .. بقية النغم

والذى يعنيه سميح القاسم بالجنة التى دخلتها الصلال « الثعابين
والأفاعى » هو تقديم صورة رمزية واضحة لفلسطين التى دخلها
الاسرائيليون بسمومهم وقسوتهم ونزعتهم التدميرية . والذى يعنيه سميح
القاسم فى قوله : « لكننى أسمع فى قرارة الحروف ... بقية النغم » هو

أن القصة المحزنة لم تنته ، فسوف ينال المظلومون يوما كل حقوقهم
وسوف يستعيدون ما سلبته الثعابين والأفاعي منهم ، والقصيدة عنوانها
« القصيدة الناقصة » لأن الأمور لا يمكن أن تنتهي عند هذه الحدود
التي أخذ فيها اليهود أرض فلسطين . والشاعر يصف هذه القصيدة
بقوله :

أمر ما سمعت من أشعار
قصيدة ... صاحبها مجهول

وصاحب هذه القصيدة ليس مجهولا لأنه لا قيمة له ، بل لأنه هو
كل عربي مسته يد الظلم ، وأسأت هذه اليد الى وطنه وأهله اساءة أليمة
دائمة .

أما قصيدة سميح القاسم التي يرفض فيها « السلام » والتي أشارت
اليها الصحيفة الاسرائيلية فهي قصيدة بعنوان « ... للسلام » وفي هذه
القصيدة يرى الشاعر أنه لا معنى للحديث عن السلام بعد هذا الظلم الفادح
الذي حل بالعرب .

ويقول الشاعر في فن جميل وغضب ثورى أصيل :

ليغن غيرى للسلام
والعين ماعادت تبل صدى شجيرات العنب
وفروع زيتوننا ... صارت حطب
لمواقد اللاهين .. ياويلي حطب
وسياجنا المهدود أوحشه سهيل الخيل في الطفل المهيب
والجرن يشكو الهجر .. والابريق يحلم بالضيوف
بال « ياهلا » ... عند الغروب
ورؤى البراوين المغبرة الخطيمة
تبكى على أطرافها تنف من الصور القديمة
وحقائب الأطفال .. أشلاء يتيمة

لبثت لدى أنقاض مدرسة مهتمة حزينة
مازال في أحنائها .. مازال يهزأ بالسكينة
رجع من الدرس الأخير ..
عن المحبة والسلام
ليغن غيرى للسلام
وعلى ربي وطني
وفي وديانه
قتل السلام !

ان سميح القاسم يمثل الضمير الدرزي داخل أسوار اسرائيل خير تمثيل ، وهو ضمير عربي مخلص للأمة العربية ، لم تقلح معه كل المحاولات الاسرائيلية لفصله عن جذوره العربية الأصيلة ، بحيث يصبح على عدااء مع العرب ، ويعيش في كراهية عنيفة لهم ، وبحيث يشعر بأن قضية فلسطين العربية ليست قضيته .. لقد فشل الاسرائيليون في هذا كله . وها هو سميح القاسم يعلن في وضوح : انه عربي في كل حرف يكتبه ، وفي كل قطرة من قطرات دمه ، وفي كل نبضة من نبضات قلبه . وهو بذلك يعلن فشل سياسة التفرقة الطائفية التي تحاول اسرائيل أن تشعلها بين العرب المقيمين داخل الأسوار الاسرائيلية .

واذا كانت اسرائيل قد فشلت بوضوح في التأثير على جماهير الدروز ، وتمزيق الصلات الأساسية التي تربطهم ، تاريخا ودما وثقافة ، بالأمة العربية ، فانها قد استطاعت أن تسيطر على قلة قليلة من زعماء الدروز في اسرائيل ، وهي نسبة ضئيلة لاتعبر عن مصالح الدروز أو مشاعرهم الحقيقية . وحول هذه المجموعة القليلة من الدروز الذين يتعاونون مع السلطات الاسرائيلية يتحدث صبرى جريس في كتابه عن « العرب في اسرائيل » فيقول :

« ينبغي أن نشير الى أن تدخل اسرائيل في شئون الطائفة الدرزية قد

تم نتيجة الخضوع زعماء هذه الطائفة التقليدية لسلطات اسرائيل ، وماهؤلاء الزعماء الا فريق من الجهلة والمرائين الذين يلبون طلبات الحكومة ، في حين أن الطائفة الدرزية بالذات لم تستفد شيئاً من هذا الخضوع فالقسم الأعظم من قراها متأخر غاية التأخر اذا ما قورن بسائر القرى العربية في اسرائيل ، والجدير بالذكر أن السياسة الاسرائيلية هذه قد قابلها الشباب والمتفقون الدروز بمعارضة شديدة وهم ثائرون عليها ويطالبون بتغييرها باستمرار .

ان الطائفة الدرزية في الوطن العربي خارج اسرائيل ، تقف في صف القضية العربية بقوة ووضوح ، وقد أنجبت هذه الطائفة عددا كبيرا من القيادات الوطنية العربية التقدمية ، وحسبنا أن نذكر في هذا الميدان الزعيم اللبناني المعروف كمال جنبلاط ، وهو زعيم من طائفة الدروز ، وهو من الزعماء العرب البارزين الذين يدافعون عن الأمة العربية والقومية العربية والتقدم العربي بصدق وحرارة وإخلاص .

هكذا يحاول الاسرائيليون أن يستخدموا أسلوب التفرقة الطائفية في صفوف العرب داخل أسوار اسرائيل ، ويحاولون أيضا استخدام شتى أساليب الاضطهاد ضد هؤلاء العرب . فالعرب يتعرضون لما يسميه الاسرائيليون بالحكم العسكري . وهذا الحكم العسكري يفرض على العرب ألوانا من القيود تشل حركتهم ، وتضعهم على الدوام في ظروف قاسية يخضعون فيها لألوان من التنكيل والارهاب . فمن حق الحاكم العسكري الذي يتولى حكم المناطق العربية في اسرائيل أن يقرر سجن أى مواطن عربى في أى لحظة ، وأن يمنعه من التنقل من بلد الى آخر ، أو من منطقة الى أخرى في المدينة الواحدة ، ومن حق الحاكم العسكري أن ينزع أراضي العرب وممتلكاتهم لأتفه الحجج والأسباب وفي ظل هذا الحكم العسكري يتم طرد العرب في أعمالهم ، ويتم فرض رقابة واسعة على كتاباتهم ومطبوعاتهم واجتماعاتهم ونواديهم المختلفة . ونتيجة للحكم

العسكري تم حل جماعة « الأرض » العربية ، وهي الجماعة التي كانت تهدف الى خلق نوع من التنظيم السياسى العلنى للدفاع عن حقوق العرب داخل اسرائيل ، واعتبرت السلطات الاسرائيلية أى نشاط لهذه الجماعة معاديا للدولة ، واعتقلت الكثيرين بتهمة الاشتراك فى هذه الجماعة وصادرت كثيرا من المطبوعات العربية بحجج مختلفة على رأسها أن هذه المطبوعات تعبر عن جماعة « الأرض » الممنوعة .

وفى ظل الحكم العسكرى المفروض على العرب داخل اسرائيل طردت السلطات الاسرائيلية الكتاب والشعراء العرب من أعمالهم وأدخلتهم السجون مرة بعد مرة . فالشاعر سميج القاسم ، خرج من الجيش الاسرائيلى ، حيث تسمح اسرائيل بتجنيد الدروز ، ثم عمل مدرسا فى احدى المدارس العربية ، ولكنه طرد من عمله لأنه ثورى ، وله نشاط معاد للدولة الاسرائيلية . أما شاعرنا محمود درويش فقد أتم دراسته الثانوية ولم تسمح له السلطات الاسرائيلية بأن يتم تعليمه العالى . ثم عمل فى جريدة « الاتحاد » العربية التى يصدرها الحزب الشيوعى العربى فى حيفا ثم طرد من هذه الجريدة ، ثم عاد اليها وطرد مرة أخرى ، وكانت التهمة الموجهة اليه دائما هى أشعاره الثائرة التى اعتبرها الاسرائيليون ضد الدولة . وقد اعتقل محمود درويش مرارا ، ودخل السجون الاسرائيلية وذاق فيها ألوانا من العذاب ، ولكن معدنه النضالى الصلب ، ظل قويا أصيلا يزداد توهجا واشتعالا كلما ازداد عنف الاضطهاد الموجه اليه ..

وتسمح السلطات الاسرائيلية بطبع بعض القصص التى تصدر فى العواصم العربية المختلفة ليقراها العرب داخل اسرائيل . ولكنهم يحرصون على أن يختاروا من هذه القصص ما يكون بعيدا عن القضايا الوطنية والثورية للأمة العربية . ومن الحوادث الطريفة فى هذا الميدان أنهم سمحوا بطبع رواية « أنا أحيا » للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي ، ثم اكتشفوا

أن الرواية تتضمن أفكارا عنيفة لا تتفق مع تكوين إسرائيل والفكر الصهيوني وكانت الرواية قد صدرت وقرأها العرب .. وبسرعة أصدرت السلطات الاسرائيلية قرارا بمصادرة الرواية وجمعها من الأسواق . وتمت المصادرة بالفعل . كل ذلك يكشف أمامنا بوضوح عن ذلك الارهاب الفكرى الذى تفرضه السلطات الاسرائيلية على العرب ، حيث تعمل هذه السلطات بكل قوة على خلق حصار ثقافى خائق يقضى عليهم فكريا وروحيا ، بحيث ينزلون تماما عما يجرى فى الوطن العربى خارج أسوار إسرائيل ، وبحيث ينزلون عن بعضهم البعض ، فلا يتجمعون فى أى نوع من أنواع التجمع الثقافى أو السياسى ، حتى يصبح العرب فى نهاية الأمر مثل النبات المنزوع من أرضه والمحروم من كل ظروف النمو والحياة ، والمعرض للذبول والموت. ومن المعروف أن الحكومة الاسرائيلية لاتسمح عموما بنشر الكتب العربية الا على نطاق ضيق . وهى تختار من هذه الكتب النصوص الأدبية . فهى لاتسمح بنشر أى دراسات فكرية أو سياسية ، وكما يقول الدكتور أنيس صايغ فى مقال له بعنوان « ماذا يقرأ العرب فى إسرائيل » :

« ان الحكومة ودور النشر التى يهتما أن تمنع عرب فلسطين المحتلة من مناقشة قضاياهم بشكل مباشر تحاول أن تبعدهم عن هذه المناقشة عن طريق تشجيع صنف واحد من المنشورات الأدبية الصرف - من قصة وشعر ورواية - وذلك على حساب الكتابات الفكرية والبحوث والدراسات ولذلك فمن بين الأربعة والستين كتابا التى وضعها كتاب فلسطينيون عرب « من ١٩٤٨ الى ١٩٦٨ » وطبعوها فى فلسطين المحتلة يوجد ٢١ ديوان شعر و ١٩ مجموعة قصصية و ١١ رواية . ولا يبلغ عدد البحوث والدراسات الا ١١ ومعظمها بحوث ودراسات هزيلة وفى موضوعات غير مهمة . كما أن الأغلبية الساحقة من الكتب العربية التى أعيد طبعها فى فلسطين المحتلة لكتاب عرب غير فلسطينيين هى أيضا كتب أدبية ... هذا هو مايكشفه لنا الدكتور أنيس صايغ من واقع الحياة الثقافية للعرب

داخل اسرائيل فالسلطات الاسرائيلية تحرص كل الحرص على اختيار هذه الكتب الأدبية بصورة تحقق كل أهداف الحصار الثقافى . فمن الضرورى أن تكون الكتب المسموح بها لتوفيق الحكيم أو للعقاد أو لطفه حسين كتباً بعيدة عن أى قضايا سياسية أو وطنية .

هذا هو الحصار المادى والاقتصادى والفكرى الذى يفرضه الحكم العسكرى على المواطنين العرب فى اسرائيل . وقد تردد صدى هذا الحكم العسكرى فى الشعر العربى الذى يكتبه شعراء الجيل الجديد . فنحن نجد على سبيل المثال أن الشاعر سميح القاسم يكتب قصيدة بعنوان « الساحر والبركان » حيث يقول فى مقدمتها : « انها أسطورة مهداة الى الحكم العسكرى » .. وفى هذه القصيدة يقول الشاعر :

وشعوذ الساحر فانطلق
من قمقم البحار .. مارداً صغير
يريد للزورق أن يقبل العرق
يريد للحرية الحمراء
أن تقطن فى كوخ ... من الورق
يريد للجذور أن تحيا بلا شجر
يريد للانسان أن يحيا بلا ثمر
يريد للانسان أن يموت فى الحياة
يريد أن . . .

وانفجر البركان
والتهمت ساحره النيران
فعاد للقمقم يستجير
بساحر جديد
ليس له وجود

والرموز فى القصيدة واضحة ، فالساحر هو اسرائيل ، والمارد هو الحكم العسكرى ، والبركان هو الثورة العربية التى يؤمن بها الشاعر

ويرى أنها سوف تلتهم الساحر والمارد معا ، فهما يريدان أن يفرضا على الحياة قيودا لا يمكن فرضها ولا يمكن أن تقبلها الحياة الطبيعية . وهذا النوع من الحكم العسكرى فى اسرائيل سوف يؤدى الى الانفجار الذى يقضى على كل القيود .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر آخر من رفاق محمود درويش أيضا هو الشاعر راشد حسين (١) ، وهو واحد من الشعراء الشباب الشائرين الذين يعيشون داخل الأرض المحتلة ويعانون مع بقية المواطنين ألوان الاضطهاد المختلفة ، وقبل أن نقرأ القصيدة يحسن بنا أن نعرف فكرة سريعة عن موضوعها فمن بين قوانين الحكم العسكرى قانون يعين « قيما على أملاك الغائبين » من العرب وهى صيغة قانونية شكلية لسرقة الأراضي واغتصابها من أصحابها .. يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » :

« ان ماهو أكثر اثارة للذهول انما هو تطبيق هذا القانون على أملاك الوقف الاسلامى فى البلاد ، فحسب قوانين الدين الاسلامى ، تعتبر ملكية الوقف تابعة لله ، ويحول دخل هذه الأملاك لأبناء الطائفة أو لمشروع خيرى أو لهدف جعلت هذه الأملاك وقفا عليه ، وفى هذه الحالة لا يمكن الافتراض أن الطائفة الاسلامية لم يعد لها وجود فى البلاد بعد قيام الدولة لكن رغم ذلك نقلت أملاك الوقف الاسلامى الى القيم على أملاك الغائبين وربما كان ذلك على أساس الافتراض بأن الله « غائب » حسب قانون أملاك الغائبين » .

وحول هذا الموضوع كتب الشاعر راشد حسين قصيدته التى يقول فيها :

الله أصبح غائبا يا سيدى
صادر اذن حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة فهى من أملاكه

(١) خرج راشد حسين تحت الضغط والارهاب من الارض المحتلة منذ سنوات وهو يعيش الآن فى أمريكا

وبع المؤذن فى المزاد الأسود
حتى يتامانا أبوهم « غائب »
صادر يتامانا اذن يا سيدى
لا تعتذر ... من قال انك آثم ؟ !
لا تعتذر ... من قال انك معتدى ؟ !
حررت حتى السائمات ... غداة ان
أعطيت ابراهيم أرض محمد
فخيولنا فوق الجبال طليقة
والثور يستسقى أمام المزود
والحقل يقرئك السلام .. فقمحه
شكر تجمع فى بحيرة عسجد
أو لم « تحرر » عنقه من حاصد
قاس .. ليصبح ملك « أمدن سيد »
هل شعبك المختار أمدن سيد ؟
أم شعبك المختار أمدن معتدى
أنا لو عصرت رغيف خبزك فى يدي
لرأيت منه دمي يسيل على يدي

ان الشاعر هنا يفضح الحكم العسكرى الاسرائيلى فى هذه الأبيات
الملينة بالسخرية والصدق والمرارة .. فالحكم العسكرى الاسرائيلى يصدر
قوانين متعسفة لنزع الأراضى العربية من أصحابها ، بالإضافة الى مايقوم
به هذا الحكم من أعمال ارهابية فى ميدان الفكر والثقافة والتعبير عن
الرأى ، وفى ميدان العمل والحريات الشخصية .. والحكم العسكرى نموذج
فريد للارهاب الذى يمثل العقلية الصهيونية والضمير الصهيونى خير تمثيل
ولن تكتمل صورة الارهاب الصهيونى أمامنا الا اذا توقفنا أمام مثال
نموذجى من أمثلة الارهاب الاسرائيلى ، وقد تجسد هذا المثال فى مذبحه
كفر قاسم .

كفر وتاسم

يا حبيبي

لا تلمني ..

قتلوني ..

قتلوني ..

قتلوني ..

محمود درويش

لا يمكن أن يقوم مجتمع انساني حدث

فيه مثل هذه النذالة دون

أن تشور فيه رعشة غضب ...

الشاعر اليهودي
نتان الترماني

فى عام ١٩٠٦ وقعت فى القرية المصرية الصغيرة دنشواى تلك المذبحة المشهورة التى قام فيها الانجليز بشنق عدد من الفلاحين وجلد بعضهم ، وكل ذلك تم أمام أهالى القرية وأقرباء الضحايا . وكانت هذه الحادثة ذات دوى ضخم فى داخل مصر وخارجها ، وقد اتخذ منها الكاتب الايرلندى العالمى برناردشو فرصة شن من خلالها حملة عنيفة ضد « كرومر » المندوب السامى الانجليزى فى مصر وضد الاستعمار الانجليزى عموما ، كذلك اتخذ منها مصطفى كامل فرصة لفضح الاستعمار الانجليزى أمام الرأى العام المحلى وأمام الرأى العام العالمى . وقد انتهت هذه الحادثة بخروج « كرومر » من مصر واشتداد قوة المقاومة المصرية للاحتلال الانجليزى .

ولم تكن حادثة « دنشواى » فى حد ذاتها سببا فى كل هذه الضجة العالمية التى ثارت حولها ، فما أكثر ضحايا الاحتلال الانجليزى منذ أن دخل المحتلون البلاد عام ١٨٨٢ ، ولكن حادثة « دنشواى » كانت تجسيدا لأساليب الاستعمار فى معاملة المواطنين ، وخلاصة هذه الأساليب أنه لاقيمة لأى اعتبار انسانى فى سبيل تثبيت أقدام الاستعمار فى البلاد ، كما أن المذابح التى تقوم بها سلطات الاحتلال كانت وسيلة واضحة من وسائل الارهاب ، وما كان شنق الفلاحين فى « دنشواى » الا درسا أراد به الانجليز أن يخيفوا شعب مصر ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا للمواطنين : ان كل متمرّد سوف يكون مصيره هو نفس مصير الفلاحين التّعساء فى « دنشواى » ، ومثل هذا الأسلوب هو نفسه الأسلوب الذى اتبعته سلطات الاحتلال الاسرائيلية فى فلسطين منذ قيام دولة اسرائيل الى اليوم . بل لقد

وصلت اسرائيل في هذا الميدان الى أقصى درجات التطرف ، فجعلت من « المذابح » جزءا أساسيا من سياستها لارهاب العرب في الأرض المحتلة وفي خارجها على السواء . ان الاستعمار الصهيوني هو تلميذ للاستعمار الانجليزى . ولقد عاش الصهيوونيون طويلا في ظل الانتداب الانجليزى على فلسطين . بعد الحرب العالمية الأولى ولمدة ثلاثين عاما تقريبا امتدت من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨ واستفاد الصهيوونيون فائدة واسعة من المساعدات الضخمة التى قدمتها سلطات الانتداب الانجليزى لتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين ، كما استفادوا سياسيا وأديا من وعد بلفور الانجليزى عام ١٩١٧ ، وأخيرا فقد تعلم الصهيوونيون كثيرا من أساليب العمل الاستعماري . الانجليزى ، وتفوقوا على الانجليز بعد ذلك في تطبيق هذه الأساليب *

ومنذ اعلان قيام الدولة الاسرائيلية ، بل وقبل قيامها والاسرائيليون . يعتمدون على أسلوب الارهاب العنيف حتى تمتلئ نفوس المواطنين العرب بالذعر . وتستسلم لمطالب الاسرائيليين . ولذلك يلجأ اليهود بين الحين والحين للقيام بمذابح عنيفة قاسية يكون هدفها الأساسى هو اشاعة الرعب فى قلوب العرب .

وكانت أول مذبحه شهيرة من هذا النوع هى مذبحه « دير ياسين » ، التى قام بها الاسرائيليون فى ٩ ابريل عام ١٩٤٨ . وفى هذه المذبحه العنيفه . قتل الاسرائيليون فى ساعات قليلة مايقرب من مائتى مواطن عربى من بينهم نساء وأطفال وشيوخ ، بل وكان من بينهم حوامل أيضا . ولم يكتف . الاسرائيليون بعملية القتل الجماعية ، بل قادوا من بقى من الأحياء فى القرية العربية وثيابهم ملوثة بدماء أقربائهم ومواطنيهم من الضحايا ليقوموا بعملية استعراض لهم فى شوارع القدس حتى يزرعوا بذلك رعبا عنيفا فى قلوب العرب فلا يكون أمامهم الا أن يتركوا بلادهم ويهربوا بعد أن رأوا بأعينهم ما أصاب اخوانهم من أبناء « دير ياسين » . ولقد كان لهذه المذبحه بالفعل أثرها الكبير على العرب ، وكانت من أهم أسباب .

الهجرة العربية من فلسطين بصورة جماعية عنيفة عام ١٩٤٨ .

ولقد أصبحت وقائع مذبحة « دير ياسين » أمرا معروفا ، ذلك لأن « دير ياسين » نالت سمعة عربية وعالمية واسعة نتيجة لما حدث فيها من وقائع قاسية .

ولكننى أود هنا أن أنقل ماكتبه المسئول عن هذه المذبحة وهو الزعيم الصهيوني ميناخم بيجن أحد دعاة العنف والتشدد في إسرائيل ، وهو وزير الدولة في وزارة إسرائيل التي قامت بالعدوان على العرب في ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وظل عضوا بالوزارة حتى استقال سنة ١٩٧٠ . لقد تحدث ميناخم بيجن عن مذبحة « دير ياسين » وذلك في كتاب له بعنوان « الثورة » يروى قصة حياته وقصة المنظمة التي أنشأها وتزعمها وهي « منظمة « الارغون زفاى ليومى » أو « المنظمة العسكرية القومية » .. يقول ميناخم في كتابه الذى ترجمه الى العربية الأستاذ سمير صنبر :

« لقد قامت دعاية عالمية ضدنا تعلن أننا ارتكبنا الفظائع في « دير ياسين » . والحقيقة هى أننا أنذرنا الأهالى قبل الهجوم ، ونظرا لاشتداد المعركة التي خسرنا فيها كثيرا من رجالنا اضطررنا الى استعمال القنابل اليدوية مما أدى الى موت الأهالى الذين رفضوا أن ينسحبوا من القرية . وقد أرسلت الوكالة اليهودية رسالة الى الملك عبد الله تعتذر له فيها عن حادث « دير ياسين » وقد رد الملك عبد الله على الاعتذار قائلا : « ان الوكالة اليهودية مسئولة أيضا وانه لايعترف أن هناك اراييين وغير اراييين » . وهكذا قامت في البلاد العربية ، وفي جميع أنحاء العالم موجة من السخط على ماسموه « بالمذابح اليهودية » وقد كانت هذه الدعاية العربية تقصد الى تشويه سمعتنا ولكنها أنتجت لنا خيرا كثيرا ، فقد دب الذعر في قلوب العرب ، فقرية « كالونيا » التي كانت ترد هجمات « الهاجاناه » الدائمة هجرها أهلها بين ليلة وضحاها واستسلمت بدون قتال ، وهرب أهالى « بيت اكسا » أيضا . وبسقوطهما واحتلال

« القسطل » استطاعت القوات اليهودية أن تحافظ على الطريق الى القدس . وفي أماكن كثيرة كان العرب يهربون دون أن يشتبكوا مع اليهود في أى معركة وقد ساعدتنا أسطورة « دير ياسين » فى المحافظة على طبريا واحتلال حيفا . وعندما تقدمت جميع القوات اليهودية فى هجومها الناجح على حيفا كان العرب يهربون مذعورين صائحين : دير ياسين !! »

هذا هو مايقوله ميناخم بيجن ، وهو يكشف لنا بوضوح كامل عن مغزى المذابح الاسرائيلية وخططها الدقيقة فهى تهدف الى تقديم نموذج يخيف العرب ويرهيبهم ويؤدى بهم الى الاستسلام للخطط الاسرائيلية .

وبعد مرور ثمانية أعوام على مذبحه « دير ياسين » قدمت اسرائيل نموذجا آخر من سياستها الارهابية فى مذبحه جديدة قامت بها عام ١٩٥٦ ، وذلك فى قرية « كفر قاسم » العربية ، والتي تضم حوالى ألفين وخمسمائة مواطن كلهم من العرب . وقد حدثت هذه المذبحة ليلة العدوان الثلاثى على مصر أى فى مساء ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ . وكان الهدف من هذه المذبحة هو نفس الهدف من مذبحه « دير ياسين » وهو ارهاب العرب واشاعة الذعر فى نفوسهم ، وكان التخطيط فى هذه المذبحة موجها الى عرب الأرض المحتلة وخاصة فى مناطق الحدود ، فقد كان من أهم أهداف هذه المذبحة دفع العرب للهروب الى البلاد العربية المجاورة وبذلك يتخلص الاسرائيليون من جزء من السكان العرب .

وتبدأ مأساة كفر قاسم عندما قررت السلطات الاسرائيلية منع التجول فى القرية العربية فى تلك الليلة ابتداء من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة صباحا ولكنهم لم يبلغوا أهالى القرية بهذا القرار الا بين الساعة ٣٠ و٤٥ ، أى قبل موعد منع التجول بحوالى ربع ساعة . وكان من الطبيعى ألا يصل الأمر لكل أهل القرية فى تلك الفترة القصيرة وخاصة بالنسبة للعمال الذين يقومون بالعمل خارج القرية . وقد عاد مايقرب من خمسين عاملا من أهل القرية بعد منع التجول بقليل فأطلق

الجنود الاسرائيليون النيران عليهم وقتلوهم دون أن يعرف هؤلاء الضحايا سببا لذلك أو يعرفوا حقيقة التهمة الموجهة اليهم في نظر السلطات الاسرائيلية .

وهذه بعض وقائع المذبحة كما رواها بعض الذين نجوا منها وكما نشرتها الصحف الاسرائيلية نفسها ، وترجمها عن العبرية الأستاذ ربحى كمال في كتابه عن « العرب في الأرض المحتلة » .

يتحدث العامل عبد الله سمير بدير من قرية كفر قاسم فيقول :

« في الساعة الخامسة الا خمس دقائق وصلت الى مدخل القرية مع ثلاثة آخرين من العمال ، وكنا نمتطي الدراجات ، والتقينا بدورية من حرس الحدود على سيارة ، وعددهم ١٢ شرطيا مع ضابطهم ونزل رجال الشرطة وأمرونا بالوقوف وأصدر الضابط أمره باطلاق الرصاص علينا . ولما بدأ رجال الشرطة باطلاق النار ، ارتميت أنا عبد الله بدير ، على الأرض وتدحرجت الى الحجرة المجاورة للطريق وأنا أصرخ ، ولكنى لم أصب بأذى ، وتوقفت عن الصراخ وتظاهرت بالموت . واستمر الجنود في اطلاق النار على العمال المصابين حتى قال لهم الضابط : كفى ... ووصلت بعد ذلك عربة « كارو » تحمل ثلاثة عمال فأوقفت الدورية العربة وأطلقت النار على العمال فقتلتهم وابتعدت الدورية عن ذلك المكان بضع عشرات من الأمتار ، واحتلت استحكما آخر على الطريق . ووصل عدد آخر من العمال وسيارة شحن مملوءة بالعمال ، فاتتهز الفرصة وركضت نحو القرية فأطلقت الدورية النار على ، ولكنى لم أصب ، واختبأت في أحد البيوت الأولى للقرية حتى انتهى منع التجول »

ومن بين سيارات الشحن التي وصلت الى مدخل القرية سيارة تحمل ١٣ عاملة ، بالاضافة الى السائق ومعاونه ، وكن عائدات من عملهن في قطف الزيتون خارج القرية . وعن مصير ركاب هذه السيارة تحدثت هناء سليمان عمر ، وعمرها ١٦ عاما قائلة :

« أوثقونا عند مدخل القرية وأمروا السائق ومعاونه بالنزول لقتلهما ، فراحَت النساء يبكين ويتوسلن طالبات عدم قتلها ، ولكن رجال الشرطة صاحوا : سنقتلكن أتنن أيضا . ولما قتلوهما راحوا يتشاورون فيما يفعلون بالنساء . وسمعت أحد الجنود يتحدث باللاسلكي . وفي الحال راح رجال الشرطة يقتلون النساء ، وبعضهن نساء حوامل ، واحداهن في شهرها الثامن هي فاطمة داود صرصور ، وبينهن عجائز تتراوح أعمارهن بين ٥٠ و ٦٠ عاما ، وفتيات صغيرات مثل لطيفة عيسى ورشيقة بدر لايتجاوزن ١٣ عاما . أما أنا فقد جرحت ، وسقطت بين الجثث وظنوا أنني فقدت الحياة .. »

وقد استمرت هذه المذبحة حتى بلغ عدد القتلى من سكان القرية حوالي الخمسين سقطوا واحدا بعد الآخر .. بحجة أن هؤلاء الضحايا خالفوا أمر منع التجول ، والحقيقة أنهم لم يسمعوا به نهائيا ، ولم يكن في الامكان أن يسمعوا به ، لأن القرية سمعت بهذا الأمر بعد اصداره بفترة قصيرة تتراوح بين نصف ساعة وربع ساعة .

هذه المذبحة التي قام بها الاسرائيليون عام ١٩٥٦ ، تجسد روحهم العدوانية نحو العرب في الأرض المحتلة ، وهي روح تحركها رغبة عاتية في الانتقام والتدمير .

على أن مذبحة كفر قاسم لم تمر بسلام على السلطات الاسرائيلية ، فقد جعل منها العرب في الأرض المحتلة ذكرى قومية يحتفلون بها كل عام بالمظاهرات والاضرابات ، وكثيرا ما تقوم السلطات الاسرائيلية بفرض الحصار على « كفر قاسم » ومنع الدخول اليها أو الخروج منها في يوم ذكرى المذبحة . لقد أصبحت « كفر قاسم » شرارة نضالية لا تنطفئ أبدا ، وأصبح شهداء « كفر قاسم » جيشا يحارب حربا عنيفة ضد الاسرائيليين ، ولا يملك هذا الجيش من الشهداء مسدسات أو بنادق أو قنابل ، وانما يملك ما هو أقوى من ذلك كله ... انه صرخات المظلومين

والأبرياء من الأطفال والصبايا والشباب والعجائز ، وهي صرخات يطلقها هذا الجيش من الشهداء ضد سلطات الاحتلال والاعتصام ، وسيظل يطلقها حتى يوم الحساب والحرية الكاملة .

ولقد حاكمت السلطات الاسرائيلية المسؤولين عن هذه المذبحة محاكمة صورية ، بعد أن أحدثت المذبحة أثرا عنيقا لدى الرأي العام العربي داخل اسرائيل ، كما تسربت حقائقها الى الصحافة العالمية وأثارت نقمة واسعة على السلطات الاسرائيلية . وبالطبع انتهت المحاكمة الصورية بادانة شكلية للمسؤولين عن المذبحة ، ثم انتهى الامر في النهاية بالعمو عن هؤلاء المسؤولين . ويكفى أن نعلم ان المتهم الأول في هذه المذبحة وهو الضابط الاسرائيلي « شموئيل ملىكى » قد أدين وحكم عليه بالسجن لمدة ١٧ عاما ، ثم تم تخفيض الحكم في الاستئناف الى ١٤ عاما ، ثم خفض رئيس الدولة الاسرائيلية الحكم الى خمسة أعوام . ثم أطلق سراح الضابط بعد فترة قليلة قبل أن يتم مدة السجن . ومن الطريف أن أحد المسؤولين عن هذه المذبحة وهو ضابط آخر اسمه « جبرائيل دهان » قد أفرج عنه بعد ادانته بقتل ٤٣ مواطنا عربيا في المذبحة ، ثم عين بعد الافراج عنه مباشرة في بلدية « الرملة » وهي مدينة عربية في الأرض المحتلة ، وكانت الوظيفة التي اختير لها هذا القاتل هي أن يكون : « المسئول عن شؤون العرب في المدينة » . وقد حوكم في القضية أيضا ضابط اسرائيلي كبير اسمه « اللواء شدمى » وحكمت المحكمة بلومه وتغريمه قرشا اسرائيليا واحدا .

ومن الطريف أيضا ، ان كان في هذه المأساة مجال للطرافة ، ان أحد انشعراء الاسرائيليين كتب قصيدة عن هذه المذبحة وأدان فيها الاسرائيليين واعتبرهم مجرمين وسفاحين . يقول هذا الشاعر واسمه « تنان التزمان » :

« بعد أن تبينت لك تفاصيل ذلك العمل الرهيب ، تفاصيله التي

لاستطيع اليد أن ترتفع لتكتبها ، بعد ذلك عرفت : انه لا يجب الكتابة عن شيء آخر ... لا كتابة قصة ولا قصيدة ، لأن اللغة العبرية ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل القذر الذي جرى في اسرائيل .

ثم يقول الشاعر الاسرائيلي بعد هذه الادانة لمجتمعه :

« لا يمكن أن يقوم مجتمع انساني حدث فيه مثل هذه النذالة دون أن تثور فيه رعشة غضب »

أما الشعراء العرب في الأرض المحتلة فقد جعلوا من « كفر قاسم » مدينة مقدسة للكفاح والنضال ، وكتبوا عنها مجموعة من أجمل أشعارهم ، ولا يكاد يوجد شاعر في الأرض المحتلة الا وقد كتب قصيدة عن « كفر قاسم » .

ومن بين قصائد محمود درويش في ديوانه « آخر الليل » ، قصيدة طويلة من ستة مقاطع بعنوان « أزهار الدم » تسجل بصورة فنية رفيعة مأساة « كفر قاسم » ، وما يتعلمه النضال العربي والانسان العربي من هذه المذبحة .

ففي المقطع الأول من القصيدة وعنوانه « مغنى الدم » يصور لنا محمود درويش شهداء « كفر قاسم » وقد تحولوا الى « أوتار » يغنى الشاعر على ألحانها . فالشهداء لم يموتوا ، ولكنهم أصبحوا أصواتا إلهية تعزف للأمل وللمستقبل ، لقد انطلق الشهداء ورفرفوا بأجنحتهم الحانية على كل المحزونين من أبناء الأرض المحتلة يمسحون الدموع ويملاؤن القلوب بالأمل

ويصور محمود درويش التناقض بين موقف القرية الوداعة الوديمة « كفر قاسم » وأهلها الذين لا يهتمون الا بالحياة ومشاكل الحياة وبين موقف الاسرائيليين الملىء بالظلم والنزعة الدموية المعادية للحياة .

القرية والناس يحلمون أحلاما طيبة نبيلة والاسرائيليون يحلمون بالقتل والشر والدماء :

« كفر قاسم »

قرية تحلم بالقمح ، وأزهار البنفسج
وبأعراس الحمائم

... ..

— احصدوهم دفعة واحدة

حصدوهم

... ..

... حصدوهم ...

... ..

في هذه الأبيات تلخيص « انساني » للموقف كله . فالذين قتلهم
السلطات لم يكونوا سوى عمال بسطاء في غابات الزيتون أو الحقول
الفلسطينية الأخرى أو في أى ميدان من ميادين العمل اليدوى ، حيث
يقوم العمال العرب بأعمالهم في شقاء وصبر واحتمال

على أن رؤية محمود درويش الشعرية لم تقتصر على تسجيل التناقض
بين روح البراءة والاخلاص والسلام عند العرب الذين ماتوا في هذه
المذبحة وبين القتل والسفاحين ، بل أن الشاعر يصور امتداد المأساة الى
الطبيعة نفسها . لقد تعاطفت هذه الطبيعة مع الانسان واشتركت في حزنه
وأساءه وغضبه . فالطبيعة لم تعد ودیعة كما كانت ، لم تعد سعيدة راضية
... بل لقد تسرب اليها ما أصاب الانسان من ألم ، وصيغنها جراح
الشهداء بلون الدم :

غابة الزيتون كانت دائما خضراء

كانت يا حبيبي

ان خمسين ضحية

جعلتها في الغروب

بركة حمراء ... خمسين ضحية

ياحييبي .. لا تلمني

قتلوني .. قتلوني

قتلوني

وليست هذه الصورة من باب « البلاغة القديمة » التي كانت تجعل السماء تمطر عند الحزن ، والأزهار تبتسم عند الفرح ، وما الى ذلك من الصور المفتعلة ... كلا ... فالشاعر هنا يصور لنا حالة نفسية عميقة ، وتجربة روحية شاملة ، لأن الحزن الذي ملأ نفس الشاعر ، وملأ نفوس أهل القرية البريئة ، قد انعكس على نظرهم لكل شيء في الواقع الخارجى ، فاصبحوا لا يرون اللون الأخضر في غابة الزيتون ، ولكنهم يرون اللون الاحمر يصبغ كل شيء ، لأنه لون الدم البشرى البرىء الذى سال في مذبحه « كفر قاسم » . على أن الصلة بين أهل القرية وبين الطبيعة هي صلة قوية ووثيقة ، فالناس في القرية يمتزجون بالطبيعة امتزاجا كاملا في حياتهم وعملهم ، ومعظم أهل القرية هم عمال زراعيون . فالصداقة بينهم وبين الطبيعة عميقة ، والامتزاج بينهم وبين الطبيعة هو امتزاج قوى أصيل ... فليس من الغريب أن يرى الشاعر تلك الرؤية ... وهي ان الطبيعة تحزن للمأساة هؤلاء البشر الأبرياء الذين سالت دماؤهم تحت الأشجار وفوق التراب وعلى القنوات الصغيرة .

ولكن محمود درويش لا يكتفى بتسجيل هذه الرؤية الشعرية التي جعلت من الطبيعة شريكة للانسان في حزنه العادل وأساه العميق . وجعلت غابة الزيتون الخضراء مصبوغة بلون الدم الذى سال من أجساد الضحايا الأبرياء ... ان محمود درويش لا يكتفى بذلك بل ينظر الى المأساة نظرة عميقة ، ويحاول أن يرى انعكاسها على الواقع الانسانى . وهذا جزء من الحوار الذى دار بين القتيل رقم ١٨ وحييته في مقطع من هذه القصيدة الطويلة الرائعة نفسها ، وعنوان هذا المقطع : « القتيل رقم ١٨ » .. يقول محمود درويش على لسان هذا القتيل :

كان قلبي مرة عصفورة زرقاء
 يا عش حبيبي
 ومناديلك عندي كلها بيضاء
 كانت يا حبيبي
 ما الذي لطحها هذا المساء ؟
 أنا لا أفهم شيئاً يا حبيبي !
 أوقفوا سيارة العمال في منعطف الدرب
 وكانوا هادئين
 وأدارونا الى الشرق
 وكانوا هادئين ..

ان هذا الهدوء الذي يصفه الشاعر ليس أكثر من تصوير صادق وأمين
 للضمير الميت عند كل قاتل سفاح . على أن القتل رقم ١٨ بعد أن تصييه
 الرصاصة في قلبه يتحول في خيال الشاعر الى كائن شفاف ... لم يمت ...
 لأن الشهيد البريء لا يموت ، ولكنه يخاطب حبيته التي كانت تنتظره
 فيقول :

لك مني كل شيء
 لك ظل لك الضوء
 خاتم العرس وما شئت
 وحاكورة زيتون وتين
 وسأتيك كما في كل ليلة
 أدخل الشباك ، في الحلم ،
 وأرمي لك فلة
 لا تلمني ان تأخرت قليلا
 انهم قد أوقفوني
 ...

ياحييى .. لا تلمنى
قتلونى ... قتلونى
قتلونى

هذا التصوير الفنى الصادق العيق المؤثر لذلك القتل الشهيد الذى رحل عن الحياة ماذا يقدم الينا ؟ انه يؤكد لنا معنى يحس به الشاعر احساسا فريدا .. فاذا كان جسد الشهيد قد رحل عن الأرض التى يحبها فان ما فى قلبه من عواطف أصيلة وأفكار بسيطة ونبيلة لم ترحل ولا يمكن أن ترحل . ان ما كان يحمله فى عقله وقلبه لا يمكن أن ينطفئ مع انطفاء الجسد ، ولا يمكن أن تغتاله رصاصات العدو ... حبه لأرضه ، وحبه لأهله ، وحبه للحياة ، كل هذا مازال باقيا متجسدا فى علاقته مع حبيبته التى مازال يتحدث إليها ، ويحمل لها الهدايا ، ويدخل بيتها من الشباك مع الأحلام والأطيان ، ويرمى لها فلة ويعتذر عن تأخره قليلا ... ان الحياة تدب فى أوصال القتل ، لأنه كان يحمل فى قلبه أشياء غالية لاتموت مثل حبه وبراءته .

على أن العلاقة الانسانية فى حياة الشهيد ليست هى علاقته بحبيبته فقط ، ليست هى عاطفته الجميلة التى بعثت بعد موته حية متوهجة تطل على الحبية وترعاها وتمنحها هداياها المعهودة ... ليس هذا هو الامتداد الوحيد لحياة الشهيد ، بل ان هناك امتدادا آخر ، هو امتداد الكفاح فى الحياة اليومية ، فهذا الشهيد هو من سلالة عاملة تأكل خبزها بعرق أيامها ... انه من جماعة ذات قلوب طيبة وقضية عادلة ولكن أيديها خشنة ليس فيها نعومة البطالة والترف ... ولذلك فان الشهيد سوف يبقى ما بقيت عواطفه النبيلة ، وما بقيت تلك الأيدي الخشنة التى تكافح وتعمل وتعرق ... ففى مقطع آخر من قصيدته عن « كفر قاسم » وعنوانه « القنيل رقم ٤٨ » يقول محمود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد

وقمر ...

وهو ملقى ، ميتا ، فوق حجر

وجدوا علبة كبريت

وتصریح سفر

وعلى ساعده الغض نقوش

قبلته أمه

وبكت عاما عليه

بعد عام

نبت العوسج فى عينيه

واشتد الظلام

عندما شب أخوه

ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة

حبسوه ...

لم يكن يحمل تصریح سفر

انه يحمل فى الشارع

صندوق عفونة

وصناديق آخر

آه ، أطفال بلادى

هكذا مات القمر

ان هذا الشهيد باق اذن ، له امتداد لا ينتهى ، طالما ان هناك مكافحا
آخر يبذل عرقه فى الشوارع أو فى السجون أو فى أى ميدان من ميادين
العمل مهما كان هذا العمل بسيطا أو قاسيا رديئا لا قيمة له ولا راحة فيه .

ان هذا الشهيد الذى سقط فى « كفر قاسم » لا يمكن أن يموت لأنه
ترك وراءه أشياء غالية : الحب والعمل وفلة لحبيته !

وبعد هذه الرحلة مع شهيد « كفر قاسم » وعلاقاته الانسانية التى

لم تنقطع مع الرصاصات التي تلقاها في قلبه ، يحملنا محمود درويش الى
 المعنى العام لقصيدته الطويلة الرائعة ، وهو يحملنا الى هذا المعنى بعد أن
 نكون قد عشنا مع الشهيد في لوحات مختلفة من حياته بعد الاستشهاد ،
 سواء كانت هذه اللوحات تصويرا لعلاقته مع حبيبته أو لعلاقته مع
 أهله وأبناء قريته . وهذا المعنى العام يجسده لنا محمود درويش في قوله :

الذى مات هو القاتل يا قيثارتي

ومغنيك انتصر

وفي قوله :

« كفر قاسم »

اننى عدت من الموت لأحيا !

لأغنى

فدعيني استعصر صوتي من جرح توهج

وأعيني على الحقد الذى يزرع قلبى عوسج (١)

اننى مندوب جرح لايساوم

علمتني ضربة الجلاد

أن أمشى على جرحى

وأمشى ثم أمشى ... وأقاوم !

هذا هو الصوت الذى يرفعه الشاعر من بين أنقاض مذبحه « كفر
 قاسم » ، ومن بين أجساد الشهداء ... انه صوت أرواح الشهداء الفقراء
 الذين ماتوا في تلك الليلة الحزينة دون أن يعلموا سببا لموتهم .. فهذه
 الأرواح كان لها همسها وغناؤها الباقي الذى لا يذوب أبدا أمام أصوات
 مليئة بالضجيج والعنف . ولقد أنصت الشاعر جيدا الى هذه الأصوات
 ونقل لنا في قصيدته النبيلة ماقاله لنا الشهداء ومايرددونه مع الأيام حتى
 يسود العدل :

يا « كفر قاسم » ! لن ننام

(١) العوسج هو الشوك

وفيك مقبرة وليل
 ووصية الدم لاتساوم
 ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم
 أن نقاوم ...

ان القوة تولد هنا من المأساة ، و « كفر قاسم » لم تعد قرية بسيطة
 عادية ، بل أصبحت قريتنا جميعا لأنها قرية المجروح والشهيد وطالب
 الثأر من الظلم .

شعراء وشهداء

قصائدنا

بلا لون

بلا طعم

بلا صوت

إذا لم تحمل المصباح..

من بيت إلى بيت

محمود درويش

لم يظهر محمود درويش فجأة ، ولم تظهر مدرسته الشعرية بلامقدمات ، فمحمود درويش ومدرسته يرتبطان أشد الارتباط بحركة النضال في فلسطين وبشعراء هذه الحركة النضالية . ولو عدنا الى تاريخ الأدب العربى في فلسطين لوجدنا ان مدرسة محمود درويش تمتد جذورها الى جيلين سابقين هما جيل ١٩٣٦ وجيل ١٩٤٨ . ولابد لنا من الحديث عن هذين الجيلين اذا أردنا أن نعرف المقدمات الصحيحة التى مهدت للجيل الثالث وهو جيل محمود درويش ورفاقه

والحادث الرئيسى الذى كان فرصة لظهور الجيل الأول من شعراء المقاومة هو ثورة عام ١٩٣٦ . ففى أواخر ابريل من هذا العام قامت في فلسطين ثورة شاملة ، بدأت باضراب أعلنه الشعب واشتركت فيه معظم الطوائف باستثناء بعض العناصر من الموظفين الذين ترددوا في الاستجابة للثورة ، ونشبت معارك مسلحة في عدد كبير من المدن الفلسطينية بين العرب من جانب واليهود والانجليز من جانب آخر ، وأعلن العرب قبل بدء الاضراب بليلة واحدة مطالبهم المحددة أمام العالم كله ، وكانت هذه المطالب تتركز في وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين فورا ، ثم في اصدار قانون يمنع تسرب الأراضى العربية عن طريق بيعها لليهود أو الاستيلاء عليها بواسطة سلطات الانتداب الانجليزى ثم تسليمها لليهود بعد ذلك ، وكان المطلب الثالث الذى أعلنه العرب هو تشكيل حكومة وطنية عربية تتولى السلطة في فلسطين .

واهتزت السلطات الانجليزية أمام اجماع أغلبية الشعب على الاضراب والثورة ، كما أثر موقف الشعب على القيادات السياسية التى كانت تعيش

في انقسام وتمزق كبيرين ، فاتحدت هذه القيادات فيما سمي حينذاك باسم « اللجنة العربية العليا » كذلك اشترك مناضلون من خارج فلسطين في الكفاح المسلح الذي شمل فلسطين في ذلك العام ، وكان موجها ضد اليهود والانجليز في وقت واحد ، ونشأت في المناطق الفلسطينية المختلفة حكومات محلية سميت باسم « اللجان القومية » وكانت هذه اللجان تشرف على توجيه الثورة من الناحية السياسية ، وكانت تشرف على تزويدها بالسلاح كما كانت تقوم بكل المهام الأخرى التي تحتاجها ادارة البلاد في ظل الثورة .

وقد أسرع الانجليز باللجوء الى بعض الحكام العرب لينوسطوا لدى القيادات السياسية في فلسطين حتى تدعو الشعب الى انهاء اضرابه وثورته لايجاد مناخ مناسب وفرصة جديدة للتفاهم مع الانجليز على تحقيق المطالب العربية ، وقد نجحت هذه الوساطة التي كان نوري السعيد على رأس القائمين بها في ايقاف الاضراب والثورة المسلحة ولم تنجح في تحقيق أى تفاهم بين شعب فلسطين والسلطات الانجليزية ، وذلك لأن الانجليز كانوا قد أعدوا خططهم على أساس اقامة دولة اسرائيل بالارهاب تارة وبالمناورة تارة أخرى .

ومهما كانت نتائج ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين ، فانها في الحقيقة كانت ثورة عنيفة وشاملة ، بل انها كانت أكبر مما قدرته لها كل القيادات السياسية في ذلك الحين ، واستطاعت هذه الثورة أن تخلق جيلا من عرب فلسطين له نظرة خاصة للقضية الفلسطينية ، وهى نظرة عنيفة غاضبة مناضلة ، استطاعت أن تدرك بعد تجارب عديدة انه لا حل لهذه القضية الا بالقوة المسلحة ، ولذلك فانها لم تعد تؤمن الا بأعنف صور المقاومة ضد اليهود والانجليز معا ، فذلك هو الحل الوحيد للمأساة التي كان هذا الجيل يراها قادمة تزحف على الأرض الفلسطينية ، وتنسج لشعب فلسطين العربي مصيرا دمويا لا حدود لتعاسته وشقائه .

ولقد كان الجيل الذى مهد لثورة ١٩٣٦ ثم قادها بعد ذلك يشعر بأن هناك أملا كبيرا فى النصر لو ارتفع صوت المقاومة فوق كل صوت ، لأن المأساة لم تكن قد نسجت كل خيوطها ولم يكن الظلام قد أصبح شاملا ، بل كان هناك أمام المناضلين فرصة للعمل والحركة ، ومن هنا فاننا نستطيع أن نسمى جيل عام ١٩٣٦ باسم « جيل المقاومة » ، فلقد حارب المخلصون من أبناء هذا الجيل حربا شاملة على جميع الجبهات ، فحاربوا بالكلية والسلاح والتنظيمات السرية والتنظيمات العلنية على السواء ، وحاولوا أن يستمدوا المساعدة من البلاد العربية ومن أوروبا ومن كل مكان تصوروا انه يمكن أن يخدم القضية بأي قدر ولو كان ضئيلا .

ومن الظواهر التى تلفت النظر فى هذا الجيل أن المثقفين لعبوا دورا كبيرا فى قيادته وتوجيهه ، ولعل أصدق نموذج نضالى يقدمه هذا الجيل هو نموذج الشيخ « عز الدين القسام » الذى جسد ولا شك أفضل خصائص جيل عام ١٩٣٦ وأعظمها وأكثرها أصالة وصفاء ، ولذلك فانه يمثل الوجدان الفلسطينى فى ذلك الجيل خير تمثيل ، وربما كان هناك زعماء أكثر شهرة منه ، وربما كان هناك قادة أحزاب سياسية استطاعوا أن يجمعوا عددا أكبر من الأنصار ولكن ذلك كله لا ينفى أننا فى بحثنا عن الوجدان الفلسطينى لن نجد أصدق من هذا النموذج النضالى كممثل حقيقى لجيل عام ١٩٣٦ ، ورغم ان القسام استشهد فى أواخر عام ١٩٣٥ الا أن بعض رجاله قد عاشوا بعده وساهموا فى قيادة ثورة عام ١٩٣٦ مساهمة كبيرة ، كما ان القسام كان بأفكاره الثورية التى نشرها فى طول الأرض الفلسطينية وعرضها من أكبر الذين مهدوا لثورة عام ١٩٣٦ وأعدوا الشعب لها خير اعداد ، وليس مجرد مصادفة أن تشتعل الثورة بعد استشهاد القسام بحوالى خمسة أشهر ، وحتى هذه الشهور لم تكن هادئة بل كانت تنذر بالانفجار بين لحظة وأخرى ، وكان الغضب الذى ملأ قلب الشعب يعبر عن نفسه فى انفجارات صغيرة متنوعة ، ولن نستطيع

أن نفهم الشعراء الذين ينتسبون الى جيل عام ١٩٣٦ ويعبرون عنه دون أن نقف أمام شخصية الشيخ القسام وقفة متأنية باعتباره نموذجا مثاليا يكشف حقيقة الوجدان الفلسطيني في تلك الفترة ، وهو وجدان المقاومة والاستشهاد والغضب واشعال النار في صفوف الأعداء ، ولم يكن القسام مجرد حالة فردية ، بل كان صورة أمينة لحقيقة العواطف الشعبية في حرارتها والتهابها العنيف . وعندما نتبين ملامح شخصية القسام وصورته الواضحة ، فاننا نستطيع أن نفهم الدائرة الوجدانية التي كان يدور فيها شعراء فلسطين في تلك الفترة .

وهذه هي صورة القسام وصورة حركته الثورية الاستشهادية كما قدمها لنا الأستاذ ناجي علوش في كتابه القيم عن « المقاومة العربية في فلسطين » .. وأنقل هنا هذه الصورة الدقيقة الواضحة بكل تفاصيلها حتى تعطينا ما نحتاج اليه من معرفة كاملة بما كان يعيش في قلب هذه الفترة من أفكار وانفعالات وحركات عميقة .

يقول الأستاذ ناجي علوش في كتابه : « كان عز الدين القسام رجل دين وقورا ، وخطيبا ملك أعنة الكلام ، وتوفر على علم واسع بمجاليه ، وقد وضع علمه ومركزه الديني في خدمة المقاومة العربية ، فأخذ يحرض على الانتفاض على الظلم والثورة على الأجنبي ، مذكرا في خطبه بأن المسلم غير مكلف بالخضوع للأجانب وكان مؤمنا ان الثورة لا بد لها من أن تعتمد على الفلاحين والعمال . رأى القسام ان الهبات الشعبية لا تكفي لتحرير البلاد ودفع الخطر الصهيوني عنها ، كما رأى ان القيادة في فلسطين غير أهل للمهمة الخطيرة الموكولة اليها ، ولذلك فقد عمل على انشاء حركة ثورية عقائدية ، تقوم على العقيدة الاسلامية من جهة ، وعلى التنظيم السري من جهة أخرى ، ومن هنا بدأ القسام العمل ، فأنشأ حلقات سرية ، وأخذ يعدها ليومها الموعود » .

« ليس هناك تفصيلات واسعة عن تنظيمات القسام وأفكاره ، وخططه ،

ولكن ما هو موجود يدلنا على ما يلي :

أولا : اعتبر القسام ان المقاومة تقتضى وجود « كوادر » مهيأة عقائديا وسياسيا وعمليا ، ولذلك فقد اتجه الى تثقيف أنصاره ومريديه تثقيفا اسلاميا وطنيا ، وكانت عملية التوعية هذه تستهدف تزويد المقاتلين بالايمان ، وحضهم على التضحية والتفانى ، وفي القرآن الكريم مادة لا تنضب من الآيات والأحاديث المفيدة جدا فى هذا المجال •

ثانيا : اعتبر القسام ان بريطانيا هى أساس البلاء ، وان الحركة الصهيونية مرتبطة بالاستعمار البريطانى ، ولذلك فان انتهاء الانتداب هو الواجب الأول ، على أن تبذل الجهود لمنع الحركة الصهيونية من الاستيلاء على مزيد من الأراضى •

ثالثا : ان الثورة المسلحة هى وحدها القادرة على إنهاء الانتداب والحيلولة دون قيام دولة صهيونية فى فلسطين وهذه الثورة تستلزم : نشوء تنظيم سرى - تربية المقاتلين واعدادهم للمعركة عسكريا - تعبئة الجماهير نفسيا لتأييد الثورة والاشتراك فيها •

وبدأ القسام العمل ، تحقيقا لهذه الأهداف منذ عام ١٩٢٢ ، بتأسيس الحلقات السرية • وقد انتسب عام ١٩٢٦ الى جمعية الشبان المسلمين ، فانتخب رئيسا لها ، وكان يستهدف بانتسابه للجمعية التستر على أعماله السرية • وحينما عين عام ١٩٢٩ مأذونا شرعيا أخذ يتجول فى القرى ، دارسا نفسية الشعب ، داعيا جموعه الى المحبة والوئام • وكان القسام يتصل بكل فئات الشعب ، حتى الذين لا يعرفون بالورع والتقوى ، فآثار حفيظة بعض رجال الدين وجرى بينه وبينهم نقاش حول الموضوع ، استعمل القسام منبر مسجد الاستقلال فى حيفا لاستشارة روح الكفاح فى المصلين ، ولاختيار العناصر التى يتوسم الخير فيها منهم ، لتنضم الى حلقاته السرية ، وطلب القسام من الحاج « أمين الحسينى » ، مفتى فلسطين فى ذلك الحين ، أن يعينه واعظا متنقلا ، ليعمل من أجل الاعداد للثورة ،

فاعتذر الحاج أمين قائلا : « نحن نعمل لحل القضية سياسيا » * وأرسل القسم عام ١٩٣٥ أحد رجاله المدعو محمود سالم ، الى الحاج أمين ليعلمه بعزم القسم على اعلان الثورة في الشمال ، وليطلب منه اعلان الثورة في الجنوب ، ولكن المفتي أجاب : بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وان الجهود السياسية التي تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقوقهم » *

« وكان القسم في هذه الفترة قد بنى تنظيمه السرى ، واشترى كميات من الأسلحة ودرب عددا من المقاتلين ، وقد اتصل بالطليان أعداء الانجليز ومنافسيهم على المنطقة العربية وضمن تأييدهم .

وكانت لجان خمس تشرف على العمل وهذه اللجان هي :
أولا : لجنة الدعوة وهي مكونة من عدد من العلماء ووظيفتها اعداد الشعب للثورة مستخدمين كل الوسائل الممكنة من الاتصال اليومي بالناس ، الى حلقات التدريس والخطب في المساجد .

ثانيا : لجنة التدريب العسكرى ووظيفتها اعداد المقاتلين *
ثالثا : لجنة العتاد ، ووظيفتها شراء الأسلحة وحفظها في الأماكن الآمنة .
رابعا : لجنة مراقبة الاعداء ، ووظيفتها جمع المعلومات عن الانجليز والصهاينة *
خامسا : لجنة الشؤون الخارجية ، ووظيفتها تنحصر في العلاقات الخارجية *

اجتمعت قيادة الحركة بمناسبة الذكرى السنوية لاصدار وعد بلفور ، وقررت بدء الكفاح بالانتقال الى الريف ، وكان ذلك في ١٢/١١/١٩٣٥ ، واختارت منطقة « جنين » القريبة من حيفا مسرحا لعملياتها ، وكانت تستهدف الاتصال بالفلاحين ، وتحريضهم على الاحتلال الأجنبي ، ودعوتهم للاشتراك في الثورة * وكان عدد الأعضاء المنظمين في الحركة قرابة مائتين عند اتخاذ هذا القرار ، بالاضافة الى ثمانمائة من الانصار * ولاعتقاد

القسام بأن الثورة يجب أن تعتمد على الفلاحين والعمال ، فقد اختار أعضاء منظمته من أوساط « الفلاحين والعمال » الذين كانوا يسكنون في ضواحي حيفا .

حين انتقلت جماعة القسام الى الريف أحس الجواسيس المكلفون بمراقبتهم أنهم غائبون ، فازداد قلق السلطات المحتلة ، ونشطت في البحث عنهم . وفي يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ التقى نفر من جماعة القسام بجاويش يهودي ، وشرطي عربي ، فقتلوا الجاويش ، وتركوا الشرطي حيا ، وقد أخبر الشرطي بما رأى ، فحشدت السلطات المحتلة قوة كافية ، وأخذت تجوب المنطقة بحثا عما أسماه الانجليز « العصاة » .

استمر البحث أياما ، حتى أن جريدة فلسطين كتبت تقول : « قضاء جنين كأنه ساحة حرب » . استطاعت القوات البريطانية أن تحكم الطوق على جماعة القسام الذين قاوموا مقاومة باسلة ، ولكنهم كانوا في واد عميق ، ولم يفكروا في التسلل والهرب ، بل في المقاومة والاستشهاد ، ولذلك فإن القسام حين طلب منه الاستسلام أجاب : « اننا لن نستسلم ، ان هذا جهاد في سبيل الله والوطن » والتفت الى زملائه وقال : « موتوا شهداء » . واستمر الاشتباك الاخير من الفجر حتى التاسعة صباحا ، حين قتل القسام وبعض صحبه ، وجرح آخرون منهم الشيخ نمر حسن السعدى .

لم تستطع حركة القسام أن تحقق أهدافها الأولية فقد قتل قائدها ، وبعض كبار معاونيه . الا أن الحركة لم تذهب سدى ، ذلك ان بعض جماعة القسام ، قد افترقوا عنه ، بقيادة الشيخ فرحان السعدى بعد مقتل الشاويش اليهودي فنجوا ... ثم ان مقتل القسام حرك البلاد ، وأثار كوامن حقدتها ونقمته ... » .

هذه هي صورة « القسام » كما يرسمها الأستاذ ناجى علوش ، بكل أبعادها الواضحة العميقة وهي صورة حية نبيلة مشرقة لمثقف ثورى

عربي ، فقد ثقته بالقيادات السياسية التقليدية في عصره ، وأحس ان اللغة الصحيحة هي لغة الثورة والاستشهاد ، وجسد في موقفه حقيقة الوجدان الفلسطيني في تلك المرحلة من تاريخ فلسطين . وكما يبدو أمامنا من خلال نموذج «القسام» فان الوجدان الفلسطيني في تلك المرحلة كان وجدانا مشتعلا بروح المقاومة ، مؤمنا بأن الدين والعلم والثقافة والفن والأدب وكل شيء يجب أن ينصهر في المعركة الأساسية ، ولذلك فقد أحال هذا الشيخ الشهيد خطبه في المسجد وجولاته في القرى والمدن كماذون يربط بين القلوب برباط من القانون والشرع ، وجلساته في صحن المساجد المختلفة ... حول هذا كله الى دعوة للثورة المسلحة ، والتنظيم القوي الذي يستطيع الوقوف في وجه الانجليز واليهود معا . ولقد كانت عقلية «القسام» الثورية في غاية الدقة والوضوح . ويبدو لنا هذا كله من تنظيمه لجماعته الصغيرة الى جان دقيقة تستوعب كل أوجه النشاط في العمل الثوري ، كما كان اصراره على ان القاعدة الأساسية للثورة ينبغي أن تتكون من الفلاحين والعمال دليلا على فهم فذ وموهبة ثورية أصيلة في تلك الفترة المبكرة من تاريخنا العربي قبل ثلاثة وثلاثين عاما . كما كانت أفكاره تحديدا لبرنامج ثوري شديد الوضوح حول العمل لتحرير فلسطين ، ولقد كانت هذه الأفكار التي ترددت في برنامج الثوري تمثيلا صحيحا لهموم الشعب وآماله ، وكانت هذه الأفكار أيضا هي نفسها التي رددت في قصائد الشعراء البارزين في تلك الفترة ، ولاشك أن هؤلاء الشعراء تأثروا بأراء القسام وشخصيته الثورية الجذابة المخلصة ، كما أنهم من ناحية أخرى كانوا يعبرون عن هذه الأفكار باعتبارها أفكارا عامة كامنة في روح العصر ... ولم يفعل القسام في نهاية الأمر الا انه استخرج هذه الأفكار من قلب الواقع ، ثم بلورها في أحاديثه وخطبه ، ثم دافع عنها آخر الأمر بدمه .

هذا النموذج الحى للوجدان الفلسطيني في تلك الفترة هو الذى عبر

عنه شعراء فلسطين من أبناء جيل عام ١٩٣٦ ، وهناك عدة ظواهر فنية وإنسانية مشتركة عند كل هؤلاء الشعراء •

فهم أولا : شعراء مناضلون ، أى أن العمل السياسى الثورى كان بالنسبة لهم « غذاء يوميا » ، بل إن شعرهم نفسه لم يكن إلا أداة من أدوات هذا العمل السياسى الثورى ، وقد تعرض هؤلاء الشعراء للاضطهاد العنيف ومات بعضهم في ميدان النضال شهداء كما مات « القسام » ، فقد كانوا من نفس النسيج الذى تكونت منه شخصية القسام ، وكانوا جميعا في النهاية تعبيرا عن الوجدان الشعبى المقاتل وتجسيدا له في تلك الفترة ... ذلك الوجدان الذى لم يكن يرى سوى الثورة المسلحة العنيفة الشاملة طريقا للخلاص •

وهؤلاء الشعراء - ثانيا - جعلوا من شعرهم تسجيلا للمواقف الثورية المختلفة في فلسطين ، وجعلوا منه اعتراضا واحتجاجا على المواقف المترددة ، ويمكننا أن نستخرج كثيرا من الأحداث التاريخية الواقعية الخاصة بالثورة في فلسطين من دواوين هؤلاء الشعراء ... لقد قدموا دواوين شعر وكتب تاريخ في نفس الوقت ، فدواوينهم ليست مجرد تعبير وجدانى عن النضال ، بل هى وثائق تاريخية لهذا النضال ، وهى أحيانا نسجيل يومى لأحداثه المختلفة •

ومن ناحية ثالثة كان هؤلاء الشعراء يستخدمون الشكل التقليدى للقصيدة العربية في التعبير عن مشاعرهم وتجاربهم ... فالتحدى الذى كان يواجهه الشاعر العربى الفلسطينى من جانب الانجليز واليهود معا هو التهديد بالقضاء على شخصيته كعربى ، والقضاء على الشخصية العربية لفلسطين نفسها • ومن هنا فلقد كان من الطبيعى أن يتمسك الشاعر بترائه وتقاليد الثقافة والأدبية العربية ، وذلك كجزء من تمسكه بشخصيته الأصيلة التى تواجه التحدى وتتعرض للعاصفة •

والواقع ان المعركة العربية في فلسطين في تلك الفترة لم تترك مجالا

أمام الشاعر العربى الفلسطينى لى يفكر تفكيراً عميقاً فى قضية التجديد، فعندما تشتعل النيران فى أنحاء البيت لا يفكر أحد فى أحدث الأساليب لبناء العمارات ... ان الأساليب والأشكال هنا تميل عادة الى التبسيط والسهولة والتأثير المباشر ، لأن الهدف هو انقاذ البيت من الحريق . ومن ناحية أخرى فان قضية التجديد الأدبى فى ميدان الشعر العربى فى عام ١٩٣٦ لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، فلقد كان جيل المجددين من الشعراء من أمثال على محمود طه وإبراهيم ناجى وغيرهما مازالوا فى البداية لم تتأكد خطواتهم فى طريق التجديد ولم تتضح بصورة كاملة ملامح حركتهم الفنية ما عدا بعض تجديدات قليلة مثل التنويع فى القافية وما الى ذلك ، بالإضافة الى أن موضوعاتهم الأساسية فى تلك المرحلة كانت موضوعات غزلية أو فلسفية ولم يكونوا فى معركة وطنية أو اجتماعية ، ولعل انصراف الشعراء المجددين فى مصر فى الثلاثينات عن الموضوعات الوطنية عموماً والموضوعات العربية على وجه خاص ، كان أثراً من آثار العزلة الوجدانية والسياسية فى مصر عما يجرى فى الوطن العربى فى تلك الأيام ، فبينما كانت ثورة فلسطين تشتعل فى قراها ومدنها وسهولها وجبالها فى عام ١٩٣٦ ضد الانجليز واليهود ، كانت القيادات السياسية فى مصر تتوحد فى جبهة لمفاوضة الانجليز والاتفاق معهم على معاهدة ١٩٣٦ ... أى ان الانجليز كانوا يتعاهدون ويتفقون فى مصر فى نفس اللحظة التى كانوا يطلقون فيها الرصاص على شعب عربى آخر هو شعب فلسطين ، ومن هنا فى ظنى كان الجو السياسى العام فى مصر - التى كانت مركزاً لحركات التجديد الفنى - جواً هادئاً نسبياً مما أبعد كثيراً من الشعراء المجددين عن الارتباط بالمعركة العربية فى تلك الأيام . ومن هنا ضعف تأثيرهم التجديدى على شعراء فلسطين .

ولعل من الأسباب القوية التى جعلت الشكل التقليدى عند جيل عام ١٩٣٦ من شعراء فلسطين هو الشكل الأساسى لقصائدهم ما يتضمنه هذا

الشكل نفسه من قدرة فنية على التأثير الجماهيري الواسع ، فمن السهل حفظ هذا النوع من الشعر لما يتميز به من وحدة البيت والقافية ، ومن السهل ترديده في المظاهرات والاحتفالات الجماهيرية ، ولقد كانت وظيفة الشعر الأولى بالنسبة لجماهير فلسطين هي وظيفة « خطابية » تهدف الى الاثارة العنيفة والتحريض ، والدعوة الى اتخاذ مواقف معينة ، وكذلك كانت القصيدة المؤثرة حقا هي القصيدة التي تشبه المنشور الثوري في عنفها ووضوحها وارتفاع نبرتها ، وهي القصيدة التي تقترب من الشعارات والهتافات والخطابات ، كل ذلك طبعا دون أن تفقد جمالها الخاص وصدقها الوجداني والا انتهت بفقدان التأثير على الناس أيضا .
ولذلك كان شعراء هذه الفترة يلتزمون بالقصيدة العربية التقليدية ، ولذلك أيضا قبلتهم الجماهير وتأثرت بهم أشد التأثر .

ويقول الأستاذ كامل السوافيري في كتابه ، « الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين » صفحة ٢٩٨ : « لا يوجد بين الفلسطينيين الذين تعلموا في مدارس فلسطين بعد ثورة عام ١٩٣٦ من لا يحفظ لابراهيم طوقان قصيدتيه « الفدائي » و « الشهيد » ولعبد الرحيم محمود قصيدتيه « الشهيد » و « الشعب الباسل » ، ولأبى سلمى داليتة التي ثار فيها على ملوك العرب ... »

حقا ... لقد كانت تلك القصائد منشورات ثورية عامة موجهة الى جميع المواطنين لا الى المثقفين والمشتغلين بالأدب فقط ، ومن هنا فرضت تلك الوظيفة الاجتماعية الثورية للشعر شروطها الفنية على شعراء تلك المرحلة ، وهذه الشروط هي : التعبير المباشر الصريح ، والشكل التقليدي ذو القافية المتنوعة أحيانا ولكن في الاطار التقليدي ، والنزعة الخطابية الصريحة العالية التي تدعو الجماهير الى موقف محدد ... كل ذلك لأنه شعر يولد وسط ضجيج المعركة .. شعر يولد في المظاهرات والاصطدامات المسلحة ... بين أصوات الرصاص وأنهار الدماء .

وإذا بحثنا عن الأسماء الالامعة من شعراء فلسطين في جيل عام ١٩٣٦ وجدنا على رأس القائمة ثلاثة أسماء هم : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى *

وابراهيم طوقان ولد في فلسطين عام ١٩٠٥ بمدينة نابلس وما زالت عائلته تقيم فيها حتى اليوم ، ومن أفراد هذه العائلة الشاعرة فدوى طوقان ، وهي شقيقة ابراهيم ، وقد تعلم ابراهيم في الجامعة الأمريكية ببيروت ثم عاد ليعمل مدرسا في «نابلس» بمدرسة اسمها مدرسة النجاح . وفي هذه المدرسة كانت الدروس الأساسية التي يلقيها على طلابه هي الوطنية والعروبة والنضال ، فلقد كان يربى الطلاب على الثورة وعلوم الثورة قبل أن يريهم على العلوم العادية * وقد ترك ابراهيم التدريس بعد أن عمل به فترة قصيرة لا تزيد عن عام واحد ، ويمكننا من خلال ديوان ابراهيم طوقان أن نعرف الكثير عن وقائع النضال الفلسطيني في تلك الفترة ، كما نجد اثارة مباشرة للشعب كي يلتزم بهذه المطالب مثل : الدعوة الى عدم بيع الأراضي لليهود ، والدعوة الى وحدة الأحزاب السياسية وما الى ذلك من قضايا واقعية مباشرة .

ولنقرأ هذا النموذج من شعر ابراهيم طوقان عن القدائي ، وكالعادة التي تتكرر كثيرا في شعر ابراهيم كتب الشاعر هذه القصيدة في حادثة معينة سجلها في مقدمة القصيدة فيقول : « عينت الحكومة المنتدبة يهوديا بريطاني الجنسية لوظيفة النائب العام في فلسطين ، فأمن في النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التي كان « يطبخها » ، ولما ثقلت على العرب وطأته ، كمن له أحد الشبان المتحمسين في مدخل دار الحكومة وأطاع النار عليه فجرحه » * * * أما القصيدة فيقول ابراهيم طوقان فيها ، وهي من أشهر القصائد بين أبناء فلسطين من جيل عام ١٩٣٦ وما بعده من الأجيال حتى اليوم :

هو بالباب واقف والردى منه خائف

فاهـدئـي يا عواصف
 صامت لو تكلمـا
 قل لمن عاب صمته
 وأخو الحزم لم تزل
 لا تلوموه قد رأى
 وبلاداً أحبها
 وخصوماً يبغيم
 مر حين فكاد يقتـ
 هو بالباب واقف
 فاهـدئـي يا عواصف
 خجلاً من جـراءته
 لفظ النار والدمـا
 خلق الحزم أبكـا
 يده تسبق انفسـا
 منهج الحق مظلمـا
 ركنها قد تهدما
 ضجت الأرض والسما
 له اليأس انما
 والردى منه خائف
 خجلاً من جـراءته

وفي قصيدة أخرى يقول ابراهيم طوقان متحدثاً عن هؤلاء العرب الذين
 يبيعون الأرض لليهود :

باعوا البلاد الى أعدائهم طمعا
 بالمال لكنما أوطانهم باعوا
 قد يعذرون لو ان الجوع أرغمهم
 والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
 وبلغت العار عند الجوع تلفظها
 نفسى لها عن قبول العار رداع
 تلك البلاد اذا قلت : اسمها «وطن»
 لا يفهمون ، ودون الفهم اطماع
 يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة
 ولا تعلمت ان الخصم خداع
 فكر بموتك في أرض نشأت بها
 واترك لقبرك أرضاً طولها باع
 وفي هذه القصيدة يقول بيته المشهور :

أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفة

ونحن منذ هبطنا الأرض زراع

هذا هو شعر ابراهيم طوقان الذى يمثل « وجدان عام ١٩٣٦ » خير تمثيل فهو شعر نضالى عنيف صريح مباشر ، فيه صفاء مطلق فى الرؤية الوطنية ، وفيه دعوة وتحريض ، وتسجيل للمشاعر والوقائع التى امتلأت بها هذه الفترة الملتهبة من تاريخ فلسطين . وقد ظل ابراهيم طوقان يكتب شعره بهذا الأسلوب الواضح الصريح ، وظل ملتزما بموقفه الوطنى العنيف حتى مات فى السادسة والثلاثين من عمره عام ١٩٤١ حيث كان منذ صباه يعانى أزمة مرضية صاحبت طيلة حياته حتى قضت عليه فى زهرة العمر .

أما عبد الرحيم محمود فهو تلميذ من تلاميذ ابراهيم طوقان فى مدرسة النجاح بنابلس ، وقد تعلم عبد الرحيم الشعر والوطنية على يد أستاذه وعندما أتم تعليمه بالمدرسة أصبح مدرسا بها . وكان عبد الرحيم مناضلا حقيقيا : بمواقفه وقصائده معا ، وقد اشترك فى المعارك الشعبية المسلحة ضد الانجليز واليهود فى ثورة عام ١٩٣٦ ، ثم هرب الى العراق بعد اخماد الثورة عن طريق الارهاب والمناورات الانجليزية والوساطات المتكررة من بعض الحكام العرب ، وفى العراق اشترك عبد الرحيم محمود فى ثورة رشيد عالي الكيلانى عام ١٩٤١ ، وعندما قامت الحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ اشترك الشاعر فيها ، محاربا وفارسا ، واستشهد فى احدى المعارك بقرية الشجرة قريبا من مدينة الناصرة ، وكان سنه عند استشهاده خمسة وثلاثين عاما .

وشعر عبد الرحيم محمود ، هذا المناضل والفارس والشهيد ، قريب الى حد بعيد فى خصائصه الفنية من شعر أستاذه ابراهيم طوقان وان كان يختلف عنه من الناحية الموضوعية فى أن الاحساس باللوعة والمرارة عند عبد الرحيم أعنف وأكثر عمقا ، ربما لأنه عاش بعد موت ابراهيم طوقان ،

فراى فصولا جديدة من المأساة حضرت فى نفسه هموما وأحزانا جديدة ،
ولذلك فنحن نسمع ايقاع الحزن فى شعر عبد الرحيم محمود أكثر مما
نسمعه فى شعر ابراهيم طوقان ، رغم انهما فى نهاية الأمر من مدرسة فنية
وفكرية ووطنية واحدة ***

يقول عبد الرحيم فى احدى قصائده مخاطبا أحد الأمراء العرب عند
زيارته للقدس :

يا ذا الأمير أمام عينك شاعر ضمت على الشكوى المريعة أضلعه
المسجد الأقصى : أجئت تزوره أم جئت من قبل الضياع تودعه
وغدا ، وما أدناه ، لا يبقى سوى دمع لنا يهمل وسن تقرعه
هذا صوت حزنه ، أما صوت فروسيته ونضاله فيتردد فى كثير من
القصائد الأخرى *** فهو يقول فى احدى قصائده مشيرا الى استشهاد
« عز الدين القسام » ومخاطبا أبناء فلسطين :

واغضب حقوقك ، قط لا تستجدها إن الألى سلبوا الحقوق لئام
هذى طريقك للحياة فلا تحدد قد سارها من قبلك القسام
وله قصيدة أخرى يعرفها كثيرون من أبناء فلسطين ويحفظونها مثلما
يحفظون قصيدة الفدائى لابراهيم طوقان ، تلك هى القصيدة التى يرثى
بها أحد شهداء فلسطين ويتحدث فيها عن نفسه :

سأحمل روحى على راحتى
وألقى بها فى مهاوى الردى
فأما حياة تسر الصديق
وأما ممات يسىء العدى
ونفس الشريف لها غايتان
ورود المنيا ونيل المنى
لعمرك انى أرى مصرعى
ولكن أغد اليه الخطى

أرى مقتلى دون حقى السليب
 ودون بلادى هو المبتغى
 وجسمى تجندل فوق الهضاب
 تناوشه جارحات أثقلا
 فمنه نصيب لطير السماء
 ومنه نصيب لأسد الثرى
 كسا دمه الأرض بالأرجوان
 وأثقل بالعطر ريح الصبا
 وعفر منه بهى الجبين
 ولكن عفارا يزيد البها

وهكذا نجد عبد الرحيم محمود فى شعره كما فى حياته نموذجاً حياً
 لوجدان المقاومة العربية الذى تربى فى قلب ثورة عام ١٩٣٦ ولم يكن يفرق
 بين الفن والعمل ، فكان شعره نضالاً وحياته نضالاً وقضيته الأولى
 والأخيرة هى تحرير فلسطين قبل أن تسقط فى قبضة المأساة ، ولقد أدى
 الشاعر الفارس النبيل رسالته حتى آخر قطرة من الدم .. فمات شهيداً
 لا يرى طريقاً غير الاستشهاد خلاصاً من المحنة .

بقى من الشعراء الثلاثة الذين يمثلون وجدان عام ١٩٣٦ ، أو وجدان
 المقاومة .. الشاعر « أبو سلمى » أو عبد الكريم الكرمى ، وهو الشاعر
 الذى مازال حتى اليوم يواصل رسالته النضالية عن طريق الفن والعمل
 السياسى معاً ، وذلك بعد أن بدأ شاباً فى ثورة عام ١٩٣٦ كما بدأ صديقاً
 ورفيقاً : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود . وبقى أبو سلمى بعدها
 حاملاً لراية النضال حتى اليوم .

وأبو سلمى لا يختلف من الناحية الفنية عن زميله ابراهيم طوقان
 وعبد الرحيم محمود ، وإن كانت تجاربه الفنية قد اتسعت وأتيح له من
 العمر ما ساعده على أن يبلور شخصيته الفنية فى صورة أكثر وضوحاً

وتحديدًا ، كما أننا نجد في شعره الى جانب خطه الأساسى وهو خط النضال والمقاومة خطوطا أخرى مثل : الحزن والتعبير عن صور المأساة بعد عام ١٩٤٨ ، وهذه مرحلة لم يشهدها ابراهيم طوقان ولا عبد الرحيم محمود .. لم يشهدوا ضياع الأرض ولا جموع اللاجئين المشردين ولم يعاصروا تلك النفسية التى سيطرت على الوجدان الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ وهى النفسية المليئة باليأس والتشاؤم والمرارة ، والتى استمرت مرحلة بأكملها وخلقت جيلا من الشعراء يعبر عنها ويختلف عن الجيل الأول : جيل المقاومة ، ويمكننا أن نسمى جيل ما بين عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٦ من شعراء فلسطين باسم « جيل اليأس والهزيمة » أو جيل « الفردوس المفقود » .

لقد أصيب أبو سلمى بهذه الأحزان وعبر عنها ، فكانت قصائده الحزينة مثل الزهور الدامعة المعلقة على صدر شعره النضالى ، لأنه مازال فى حقيقته ابن ثورة عام ١٩٣٦ التى كانت نضالا ومقاومة واصرارا على النصر ولو بالاستشهاد .

على أن شعر « أبو سلمى » يختلف قليلا عن شعر زميله ، لافى شكله الفنى ولا فى موضوعه الأساسى وهو المقاومة والنضال ، ولكنه يختلف فى طريقة الأداء ، فهو يعتمد أكثر من زميله على الطابع العقلى ، فبينما كان ابراهيم طوقان يمثل عاطفة شعرية عنيفة ، نجد « أبو سلمى » يمثل عاطفة أهدأ وتفكيرا أكثر .. وهذا مايفسر لنا اهتمامه بالتفاصيل الكثيرة ، وببحثه المتصل عن زوايا متعددة للموضوع الذى يعالجه وبعبارة أخرى فنحن نجد عند « أبو سلمى » اهتماما عقليا وعناية فكرية بالقصيدة كعمل فنى من ناحية مادتها وشكلها وصورها الشعرية ، وهو أمر لم يكن يهتم به ابراهيم طوقان أو عبد الرحيم محمود اهتماما كبيرا ، فالقصيدة عندهما كانت فطرة تنفجر وعاطفة هادرة ومنشورا ثوريا .. كل ذلك بالطبع دون أن نفتقد فى « أبو سلمى » العاطفة الوطنية الدافئة الصادقة التى تربطه

تماما بأبناء جيل عام ١٩٣٦ من الشعراء والمناضلين .
 في قصيدة كتبها « أبو سلمى » عن ثوار جبل نابلس عام ١٩٣٦ ، وهو
 الجبل الذى يسمى باسم « جبل النار » ... يقول أبو سلمى فى هذه
 القصيدة :

جبل النار يا أعز الجبال
 انت لازلت معقد الآمال
 تنبت المجد فوق سفحك فينان
 وتسقيه من دم الأبطال
 يفصح الصخر عن شمائل أبنائك
 فوق اللظى وعند النزال
 ما ذكرنا حماك الا اتشينا
 وانتشت نخوة رؤوس الرجال

هذا هو جبل المقاومة الذى تربى فى نيران ثورة عام ١٩٣٦ ، والذى
 كان شعره غذاء لهذه الثورة .. يلهمها ويطعم وجدانها بقصائده النبيلة
 الصادقة ، ويتحمل فى سبيل موقفه النضالى كل الصعوبات فلقد أصيب
 هؤلاء الشعراء جميعا بألوان مختلفة من الاضطهاد ، واستشهد أحدهم
 وهو عبد الرحيم محمود فى المعركة ، ولكنهم لم يترددوا لحظة فى مواصلة
 نضالهم والتعبير عن عدالة قضيتهم وتحريض الشعب على العمل الثورى .
 وهذا الجيل من شعراء ثورة ١٩٣٦ هو التراث الفنى والنضالى الذى
 تجدد شعرا وكفاحا - فى محمود درويش وفى جيله من شعراء المقاومة
 فى الأرض المحتلة .

ثم جاءت مأساة عام ١٩٤٨ ، وقامت دولة اسرائيل على أشلاء المواطنين
 العرب .. ومرت أعوام ظهر فيها شعراء فلسطينيون يائسون متشائمون ..
 انهم شعراء الهزيمة أو الشعراء المهزومون .

المهزومون

كانت سنة ١٩٤٨ تاريخاً حاسماً بالنسبة للوجدان العربى عموماً ،
وبالنسبة للوجدان الفلسطينى على وجه الخصوص ، ففى هذا العام أقيمت
دولة اسرائيل ، وانهزمت الجيوش العربية هزيمة سريعة ، ونجحت المؤامرة
الصهيونية العالمية فى اقامة الدولة الاسرائيلية على أشلاء الشعب العربى
الفلسطينى ، وبدأت مرحلة واسعة من مراحل النفى والتشريد والابادة
بالنسبة لعرب فلسطين ، فخرجوا من ديارهم ليعيش بعضهم لاجئين فى
الخيام ، وخرج بعضهم الى البلاد العربية المجاورة يلتمس مأوى وعملاً
وظلاً قليلاً يخفى فيه حزنه ولوعته ومأساته ، وسالت دماء الآلاف منهم على
التراب الفلسطينى وبقي البعض من أبناء فلسطين فى غزة أو فى مدن الضفة
العربية ينظر أمامه ليجد العدو يحتل وطنه ، وليجد أن مجموعة من الأسلاك
الشائكة تفصل بين الفلسطينى وبين أخيه الخاضع لاحتلال اسرائيل ، وليجد
أن الراية الاسرائيلية ذات النجمة السداسية ترفرف على المدن والقرى
التي كانت فى يوم غير بعيد مدناً عربية أصيلة . وانقسمت مدينة القدس
الى مدينتين ... مدينة يحتلها اليهود ومدينة أخرى للعرب .. واصبح
العربى يطل على الجزء المسروق من مدينته وفى قلبه لوعة لا توصف .
لقد كانت سنة ١٩٤٨ كارثة كاملة بالنسبة للوجدان العربى ، وكانت
هزيمة واضحة للانسان العربى وسحقاً لكل المشاعر الثورية التي كانت
تملأ قلبه .

وبالنسبة للفلسطينيين بالذات ، فان الموجة الثورية العنيفة التي انطلقت
سنة ١٩٣٦ وأنجبت شعراء الثورة من أمثال : ابراهيم طوقان وأبو سلمى
وعبد الرحيم محمود كما أنجبت زعماء وشهداء من أمثال : عز الدين

انقسام .. هذه الموجة الثورية قد وصلت الى آخر مداها في سنة ١٩٤٨ ، وأصابها انحسار شديد ، وتحولت من موجة ثائرة في السياسة والشعر والعمل اليومي الى موجة يائسة .. وفي سنة ١٩٤٨ بالذات مات الشاعر عبد الرحيم محمود شهيدا في احدي المعارك وانطوى الشاعر أبو سلمى على نفسه حزينا يطوى قلبه على جراح كثيرة .. وبذلك خمدت ثورة ١٩٣٦ وانطفأت شعلتها العنيفة . واستمد اليأس بين الفلسطينيين قوة أخرى جاءت من ذلك الشعور القاتم الحزين الذي ساد الوطن العربي كله بعد الكارثة .

وفي هذا العام بدأت فترة الحزن والأسى في الشعر العربي الفلسطيني .. فشعراء ما بعد عام ١٩٤٨ هم الشعراء « المهزومون » الذين يعبرون عن اليأس والمرارة والدموع والفردوس المفقود ، والذين فقدوا ديارهم وأرضهم ولم يجدوا بدلا منها أملا في المستقبل أو نورا يضيء أمامهم ذلك انظلام الشامل .

وأى مراجعة لشعر هذه المرحلة سوف تكشف بوضوح أن اللغة الأصيلة في هذا الشعر هي لغة اليأس ولغة الحزن ، وأن الأصوات القليلة التي ارتفعت آنذاك بالشعر الخطابي الرنان لم يكن لها تأثير كبير ، وانها كانت خالية من الأصالة الفنية .. لأن اللغة النصحيجة الصادقة في تلك المرحلة كانت لغة اليأس والهزيمة . وأجمل نماذج الشعر الفلسطيني وأصدقها في مرحلة ما بعد عام ١٩٤٨ هي هذه النماذج اليايسة الحزينة التي قد تنتفض أحيانا بالأمل ولكنه أمل خافت غامض لا يعرف طريقه الى المستقبل . ولنقف أمام بعض النماذج الممتازة من شعر هذه المرحلة .. وسنجد أنفسنا بوضوح أمام روح الأسى واليأس والهزيمة .

في قصيدة للشاعر الفلسطيني يوسف الخطيب ، وهو من أصدق وأعذب أصوات المأساة الفلسطينية ، نستمع اليه وهو يتحدث الى « قبرة » ، أو بالأحرى يتحدث عنها ، وكيف أن هذه « القبرة » تملك الحرية في رؤية

الوطن والاستقرار على ترابه والتنقل بلا خوف بين أشجاره وأعشابه
وأزهاره .. بينما لا يستطيع هو ، الفلسطيني صاحب الأرض ، أن يرى
بلاده ، وكل ما يملكه هو الحزن والدموع .. يقول يوسف الخطيب :

تلك يا صاح قبرة ..

في الحدود ..

خرقت ألف حرمة ..

للعهود ..

فهى تغدو طليقة ..

وتروح ..

وأنا مشخن هنا ..

بالجروح ..

ليتنى كنت قبرة ..

فأطير ..

وجناحي مصفق ..

في الأثير ..

فوق بيارة لنا ..

وغدير ..

ليتنى كنت قبرة ..

ان في هذه القصيدة التي كتبها يوسف الخطيب بأسا ومرارة واضحة ،
فالشاعر لا يملك أملا في العودة الى داره كإنسان ، فلا بد له من «التحول»
و «الحلول» في جسد طائر طليق حتى يستطيع أن يعود .. وهذه الصورة
التي يرسمها لنا الشاعر لتعبر عن تجربته النفسية تكشف لنا عن الفارق
الكبير بين الإنسان الفلسطيني سنة ١٩٣٦ والإنسان الفلسطيني سنة
١٩٤٨ وما بعدها .. فالإنسان الفلسطيني سنة ١٩٣٦ كان جزءا من شعب ،
وكان هذا الشعب يعيش فوق أرضه ويعيش في ثورة ، والثورة تجعل الفرد

جزءاً من جماعة كبيرة يشترك معها في الفكر والعمل والشعور والأمل والألم . أما انسان عام ١٩٤٨ وما بعد هذا العام فهو انسان بلا أرض ، وهو وحيد ، منعزل ، فرد ، لا يرتبط بغيره ، لأن الشعب الفلسطيني تمزق ، وتناثر كأوراق الورد التي داستها قدم قوية ، وعبثت بها رياح عاصفة .. فإذ هو جزء من شعب .. لأن الشعب مبشر متفرق ، ولا هو جزء من ثورة تجمع الأفراد في وحدة قاسية شاملة .. انه الآن انسان وحيد ، على رصيف الحياة ، لا رفيق له ولا سند الا الخيال والتأمل والحلول الرومانسية المختلفة لهمه ومأساته .

وبهذه الروح الفردية المتوحدة المنعزلة ، التي لا تجد عزاء لها الا في الوهم والخيال يكرر يوسف الخطيب في شعره صورة الطائر الذي يملك حرية العودة الى الأرض .. وهى حرية عزيزة لا يملكها الانسان الفلسطيني الوحيد الضائع ، وهذه الصورة نلتقى بها في قصيدة أخرى رائعة هى قصيدة العنديل المهاجر ليوسف الخطيب نفسه حيث يقول :

أتراك مثلى يا رفيق تمر في الزمن
عبر المهالك ، والليالى السود ، والمحن
لا صاحب يرخى عليك غلالة الكفن
تذرو بقية عمرك الصادى بلا ثمن
لكأن في عينيك بعض الملح من وطنى
لو عشب ييد ، ومزقة سوسن ييد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلث أو ربى صفد
لو عشب ييد ، ومزقة سوسن ييد
أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
أم جئت مثلى بالحنين وسورة الكمد ؟ !

هذا هو الشعور اليأس الحزين ، الملىء بالقلق والحيرة ، والذي يعبر

عنه الشاعر المهزوم الذى ولد عام ١٩٤٨ .. فكان ابنا للهزيمة ، ولم يكن ابنا للثورة .. وأبناء الهزيمة لغتهم هى اليأس والشعور بالوحدة والعزلة ، أما أبناء الثورة فلهم لغة أخرى هى لغة الانتماء والمقاومة والاحساس بأنهم جزء من جماعة كبيرة واحدة .

ومن شعراء مرحلة الهزيمة ، بل ومن ألمع شعراء هذه المرحلة فدوى طوقان، فشعرها فى معظمه تعبير عن الهزيمة واليأس والمرارة والحزن ، ولاشك أن فى حياة فدوى الخاصة ما يبرر حزنها مثل فجيعتها فى شقيقتها وأستاذها ابراهيم طوقان ، الذى مات سنة ١٩٤١ ، وهى فتاة صغيرة معلقة به أشد التعلق .. ولكن لو كانت المأساة الخاصة قد وقعت لفدوى طوقان وهى تنتمى الى شعب سعيد مطمئن ، أو الى مجتمع لم يتعرض لمأساة كبيرة ، بحجم المأساة التى تعرض لها شعب فلسطين ، لو كانت فدوى تعاني من مأساة خاصة فقط فلا شك أنها كانت ستجد العزاء بمرور الزمن ، وستجد ما يخفف عنها تلك المحنة الذاتية .. ولكن المأساة الخاصة ازدادت حدتها مع المأساة العامة التى تعرض لها شعب فلسطين . ومن هنا كان شعر فدوى دموعا ومرارة وحزنا شاملا عميقا ، حتى لقد كان اسم ديوانها الأول يحمل لمسة من لمسات حزنها الكبير ويأسها الغامر فقد أسمت هذا الديوان « وحدى مع الأيام » ، وهذا الاسم هو تعبير صادق عن شعور الفلسطيني بعد عام ١٩٤٨ ، فلقد أصبح جزءا منعزلا عن الكل ، بعد أن كان جزءا متصلا أشد الاتصال بالشعب كله ، عندما كان هذا الشعب يواجه عدوه بالثورة العنيفة خلال أعوام ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ .

وفى قصيدة من قصائد « وحدى مع الأيام » تصور لنا فدوى طوقان هذه الروح المهزومة اليائسة فتقول :

حياتى ، حياتى أسى كلها
إذا ما تلاشى غدا ظلها
سيبقى على الأرض منه صدى

يردد صوتي هنا منشدا .
حياتي دموع
وقلب ولوع
وشوق وديوان شعر وعود
وهذا شبابي
أمان كوابي
شباب سقاء الأسي ورواه
إذا ما دعتة اليها الحياة
وأشواقها ، شدة ألف غل
وطوقه ألف طوق مذل
شباب عذاب
رهين اغتراب
يضيع شذاه بأسر القيود

قد يتصور البعض أن قصيدة فدوى انما تعبر عن محنة ذاتية خاصة بها وحدها ، ولكن الحقيقة أن تعبير فدوى عن مأساتها انما يصور أيضا شعور الانسان الفلسطيني بعد سنة ١٩٤٨ كما ينعكس على نفس فتاة شاعرة حساسة مثل فدوى تنظر الى الدنيا فترى حياتها الخاصة مظلمة وترى الحياة العامة في وطنها أكثر اظلاما وعتمة ، وترى اليأس ينشر سلطانه على عيون أبناء وطنها وقلوبهم ، سواء كانوا فتيانا أو فتيات أو أطفالا أو شيوخا ، سواء كانوا شعراء أو كانوا عمالا أو فلاحين أو عاطلين أو ساكني خيام يعيشون على معونة الأمم المتحدة حيث يعيش اليهود في ييوت العرب ويأكلون من ثمار أرضهم .

هذه الروح اليائسة ، روح الهزيمة ، تملأ كل الشعر الذي ظهر بعد عام ١٩٤٨ ، حتى الشاعر الكبير أبوسلمى ، ابن ثورة عام ١٩٣٦ ، قد امتد اليأس الى قلبه ، وسيطرت عليه روح الهزيمة ، ونحن لانجد هذه

الروح المهزومة في شعره الوطني فقط ولكننا نجدها أيضا حتى في شعره العاطفي ، فهذا الشاعر الحساس المحب للحياة ، قد أصيبت نفسه بجراح قاتلة ، جعلته لا يجد متعة في أى مظهر من مظاهر الجمال ، ولعل روحه قد أصابها ما أصاب المتنبي حين قال وقد تجمدت ينابيع الحياة في قلبه :

أصخرة أنا ؟ ما لى لا تحركنى

هذى المدام ، ولا تلك الأغاريد

وبهذا الشعور المنصرف عن الحياة ، الذى لا يحس بالمتعة ولا يتأثر بالجمال ولا يتذوق طعما لأى شئ ، يتحدث أبو سلمى في قصيدة له فيقول :

أين الشذا والحلم المزهر

أهكذا جبك يا أسمر ؟ ..

أهكذا تذوى أزاهيرنا ؟ ..

وكان منها المسك والعنبر ..

الشفة الحلوة ما بالها ؟ ...

تحمل لى الخمر ولا أسكر ؟

والعين لا تبسم عند اللقاء ..

السحر فى العين ولا تسحر !

إن الشاعر هنا يعبر عن روح حزينة يائسة فقدت الحياة معناها في وجدانه .. وأصبحت خالية من كل ايحاء جميل . وتلك هى روح الهزيمة التى مست بيدها كل شئ ، وأخرست كل أناشيد الفرح والأمل فى قلوب الشعراء .

وسوف نجد هذه الروح سائدة فى معظم الشعر الصادق الذى صدر عن شعراء فلسطين فى هذه الفترة .. سوف نجدها عند سلمى الخضراء ، وهى شاعرة فلسطينية أصيلة ذات موهبة خصبة حقا ، انها تعبر بطريقتها الخاصة عن روح الهزيمة واليأس :

شجر الزيتون لم يثمر لنا زيتا ونارا

واستحال اللون في أوراقه

ونسيم الصبح لم يحمل لنا شوقا ماثرا

عانق الاغراب في أشواقه

ونقرأ لشاعر آخر من أبناء جيل عام ١٩٤٨ ، هو هارون هاشم رشيد-
تعبيرا مباشرا حزينا مليئا بالدمع والتساؤل والارتباط بمأساة بلاده :

يمر العام اثر العام يا أبتى ... بلا جدوى

فلا أمل ولا بشرى ، ولا نجوى ولا سلوى

سوى الآلام والشجن ، سوى الأحزان والمحن

سوى صوت من الأقدار ، يهتف دائما : وطنى

لماذا .. نحن يا أبتى ، لماذا ... نحن أغراب ؟

معظم ماصدر عن الشاعر الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ هو صدى المجرح ،
وتعبير عن المأساة ، وتصوير للتشتت الذى أصاب الفلسطينيين .. ولقد
كان هناك بين الحين والحين أصوات تحاول أن تتمرد ولكن صوت اليأس
كان يخنق صوت التمرد ويرتفع فوقه .. ذلك لأن جيل عام ١٩٤٨ ..
كان جيل الهزيمة وجيل المهزومين . وليست هذه الحقيقة طعنا فى هذا
الجيل أو تقليلا من شأنه ... على العكس لقد كان أبناء هذا الجيل من
أكثر الذين تألموا وتعذبوا وتحملوا الكثير من الهموم فى سبيل وطنهم ،
ولقد كانت أحزانهم مقدمة حية لكل ماجاء بعدهم من مظاهر الثورة
والتمرد كما كان هذا الحزن تنبيها للضمير العربى حتى يتيقظ ويبدأ
مرحلة جديدة من مراحل التاريخ فى الأرض العربية .

الشاعر الجدید

اننى أبحث فى الأنقاض عن ضوء
وعن شعر جدید
محمود درویش

ظل صوت اليأس بالنسبة للشاعر العربى الفلسطينى هو أعلى الأصوات جميعا بعد عام ١٩٤٨ ولعدة أعوام تالية ... وكان هذا الصوت اليأس تعبيرا عن الضياع والتشتت الذى أصاب فلسطين وشعبها ، فلقد كان الفلسطينيون بعد عام ١٩٤٨ مشردين يبحثون عن مأوى أو لاجئين فى الخيام يعيشون على المعونات والصدقات أو أفرادا متفرقين يعيشون على هامش مجتمعات عربية أو أجنبية أخرى .. وكان الوطن العربى كله يمر فى حالة من اليأس الشامل والحزن العميق ، ولذلك لم يجد الشاعر الفلسطينى مصدرا يلهمه بالقوة والأمل ويمنحه شعورا بالتفاؤل ، ولو كان هذا التفاؤل محدودا وقليلًا .. لم يكن هناك مصدر للضوء أو منبع من منابع الأمل . كان هناك بعض المظاهرات أو الانفجارات العنيفة بين الحين والحين تجرى على سطح الحياة العربية .. ولكنها كانت نوعا من البرق الخاطف .. سرعان ما ينطفئ بعد أن يشتعل بقليل .

ولكن هذه الموجة اليأسية التى ملأت أرض الوطن العربى بأكمله بدأت تتغير شيئا فشيئا ، ويبطء ، وكانت نقطة البداية ولاشك هى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . فلقد كانت هذه الثورة أول احتجاج ناجح على الأوضاع الفاسدة فى الوطن العربى والتى كان من الواضح أنها سبب رئيسى من أسباب المأساة الفلسطينية . ولقد كشفت قصة الأسلحة الفاسدة فى الجيش المصرى على سبيل المثال أن الضباط والجنود المصريين الذين كانوا يحاربون فى فلسطين عام ١٩٤٨ .. هؤلاء المقاتلون كان ظهرهم عاريا تماما .. فالعدو أمامهم والخيانة وراءهم فى نفس الوقت . فهم يحاربون اليهود وجها لوجه ، ولكن كانت وراءهم مجموعة من التجار والاستغلاليين

والسياسيين والحكام الذين لا يعينهم من الأمر شيء على الإطلاق سوى مصالحهم التجارية وزيادة ثروتهم حتى ولو كان ذلك على حساب أرواح الجنود والضباط المصريين .. حتى ولو كان ذلك على حساب الشعب الفلسطيني الذي ضاعت أرضه وتمزق أفراداه وتشتتوا في كل مكان .

ولذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو بداية الرد على هذه الظروف الفاسدة التي كانت من أهم عوامل المأساة . وكانت ثورة ٢٣ يوليو بداية لاتعاش الأمل في نفس الشاعر الفلسطيني ، وبداية لميلاد شعور جديد عنده يخلصه من الاحساس بالانسحاق والهزيمة نتيجة لما حدث في عام ١٩٤٨ . على أن هذا الشعور الجديد لم يتبلور بصورة واضحة الا بعد عدوان عام ١٩٥٦ ففى هذا العدوان كانت هناك مواجهة صريحة بين العرب والاسرائيليين ، ولم يستسلم العرب أمام المؤامرة الصهيونية التي تمت بمساعدة الجيوش الانجليزية والفرنسية ، بل صمدوا وقاوموا مقاومة شعبية واضحة في بور سعيد ، وقاوموا مقاومة سياسية كبيرة واسعة النطاق .. وانهى الأمر بإسحاب الجيوش الغازية من الأرض العربية ..

وكان الأثر الأكبر لهذه التجربة أن الأمل ولد من جديد في نفس الشاعر العربي .. والشاعر الفلسطيني على وجه الخصوص .

اذن .. فالمواجهة ممكنة ، والتمرد على الاحتلال الاسرائيلي ممكن . والأمل في التخلص من المأساة ممكن .

وبدأ الشاعر الفلسطيني يخرج من خيمة المهزومين .. ولكن على مهل ، وخطوة بعد خطوة . وساعد على ذلك قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، حيث أعطت الوحدة أملا كبيرا في أن يحقق العرب أهدافهم ، ويستردوا حقوقهم .. وتبدأ رحلتهم من جديد نحو استعادة أرضهم المضائعة.

وفي عام ١٩٥٦ بالذات وقعت في الأرض المحتلة مذبحة « كفر قاسم » ، التي أشرنا إليها في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وكانت هذه المذبحة صدمة عنيفة لعرب فلسطين المحتلة ، وقد أيقظتهم هذه الصدمة وقدمت

لهم صورة واضحة لنوع الحياة التي تنتظرهم في « إسرائيل » ، وأثبتت لهم أن الاسرائيليين لن يتركوهم في أمان ، حتى لو استسلموا هم للمأساة . وقبلوا الأمر الواقع ، وأثبتت لهم هذه المجزرة أيضا أن عرب الأرض المحتلة لم يعد أمامهم سوى الكفاح والنضال للخلاص من الوضع الذي يعانون منه ، خاصة أن الأمة العربية التي ينتسبون إليها قد بدأت تستيقظ ، وكان الانتصار على العدوان الثلاثي أكبر علامة من علامات الأمل الجديد الذي بدأ يولد في النفس العربية اليائسة المهزومة الحزينة .

ثم جاءت وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا فأكدت هذا الأمل وغذته بالمزيد من الحرارة والقوة .

وإذا بحثنا في الشعر الفلسطيني عن المظاهر الجديدة لاسترداد النفس ، وعودة الأمل ، والخلاص من روح الهزيمة .. فإننا نجد أول مظهر حقيقي لهذه الروح الجديدة في الشعر الفلسطيني إنما يأتي من داخل الأرض المحتلة نفسها ، لقد بدأ الشاعر الفلسطيني طريق التمرد .. وكانت البداية من فوق التراب الفلسطيني الذي يحتله العدو .. أي من تلك المنطقة التي تصور الاسرائيليون أنهم لن يسمعوها صوتها أبدا بعد عام ١٩٤٨ .

ففي قصيدة للشاعر حبيب قهوجي من قرية « فسوط » في الأرض المحتلة كتبها الشاعر خلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، يقول الشاعر :

تفجر من صميمي يا قصيدي
جرىء اللحن تسخر بالقيود
وارسلها مجلجلة تدوى
الى أرض القنال وبور سعيد
الى الأبطال قد طاروا خفافا
لصد الغزو كالقندر المبيد
قبعت بقرب مذياعى شرودا
وروحى عندكم رغم السدود

تحرق مهجتي وتذيب نفسي
معانقة المعارك من بعيد

وفي قصيدة أخرى من الأرض المحتلة للشاعر حنا أبو حنا عن بورسعيد.
أيضا ، كتبها الشاعر في نفس الفترة ، أي أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ،
يقول الشاعر :

بورسعيد الصمود ميناء عز
بك أرسلت أحلامنا المعسولة
وعلى صخرة الخليج على شطيك
تفنى كل الجيوش الدخيلة
هتف المجيد بالرجال فهبوا
... أي حر يطبق الحياة الذليلة !

وقد وردت هاتان القصيدتان في كتاب الأستاذ غسان كنفاني « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة » .. والذي يهمننا في هاتين القصيدتين قبل أي اعتبار فني آخر هو روح الأمل والتفاؤل بالمستقبل ، والتي بدأ الشاعر الفلسطيني يسترد من خلالها أنفاسه ويرفع رأسه ، بعد أن كان مكسور الجناح لا يجد أمامه غير الهزيمة بمشاعرها السوداء القاتمة .. كل ذلك رغم مانجده في القصيدتين السابقتين من تعبير مباشر وصوت خطابي صارخ ، رغم ذلك كله فالأمل ينبض في حروف القصيدتين ويملأ قلب الشاعرين ان الشاعر الفلسطيني منذ عام ١٩٥٦ وبعد الانتصار على العدوان يتغير ويتفتح وينظر الى مصيره نظرة جديدة .

بل نستطيع أن نقول : ان شاعرا جديدا قد ولد على أرض المأساة الفلسطينية .. وهو شاعر لا يحس أنه وحيد منعزل مشتت منفى ، ولا يحس بأن اليأس هو غذاؤه الوحيد ، وأن الحزن والكآبة هما « المادة الشعرية » الوحيدة أمامه .. شاعر ينتمى الى قوة شعبية وأمة بدأت تستيقظ وتطالب بحقوقها ، لا شاعر يحس أنه لم يعد يملك الا ذكريات قديمة مبعثرة ودارا

ضاعت منه وأرضا اغتصبها اليهود ولم يعد له فيها شيء .. ذلك كان صوت الهزيمة ، صوت الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٤٨ .. أما الآن فهناك صوت جديد ، صوت الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٥٦ . وهو يولد هذه المرة من قلب الجرح الكبير . من قلب فلسطين المحتلة .

ويزداد الشاعر الفلسطينى الجديد قوة وأصاله وذلك بعد وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ .. وفى قصيدة كتبها الشاعر توفيق زياد من الأرض المحتلة أيضا ، وكتبها عام ١٩٥٨ بالتحديد .. يقول توفيق زياد فى هذه القصيدة التى كتبها من السجن وعنوانها من وراء القضبان :

ان يجبسونا ... انهم
 لن يجبسوا نار الكفاح
 لن يجبسوا عزم الشباب الحر
 يعصف كالرياح
 لن يجبسوا أغنية
 تعلق على هذى البطاح
 شرقية ، عربية الألحان ،
 حمراء الجناح
 طلعت على الأرض الحصية
 مثل آلهة الصباح
 ياطعمة الحكام زيدى
 هل لاضطهادك من مزيد
 ألقى القيود على القيود
 سوداء باردة الحديد
 سيعود شعبى فى ضياء الشمس
 من خلف الحدود
 سيعود للطلل المهدم

يبتنيه من جديد
سيعود للأرض الحبيبة
للزنابق للورود
سيعود
رغم النار ، والأغلال
خفاق البنود

هذه الروح الثائرة المتمردة المليئة بالأمل والتفاؤل هي روح الشاعر الفلسطيني الجديد .. وهذه الروح لم تخذل أبدا منذ أن استيقظت حتى اليوم ، رغم أنها تعرضت لأزمات وصدمات متعددة ، مثل انفصال سبتمبر عام ١٩٦١ بين مصر وسوريا ، ومثل نكسة يونيو عام ١٩٦٧ ، ان الروح التي ولدت عام ١٩٥٦ ، لم تمت ولم تستسلم واستفادت قوة جديدة من كل التجارب القاسية التي مرت بها .

ومحمود درويش هو ابن هذه المرحلة الجديدة في الشعر الفلسطيني ، مرحلة الأمل والتفاؤل والتمرد والثورة .. بل ان محمود درويش هو واحد من أجمل وأصدق الأصوات الفنية المعبرة عن هذه المرحلة الجديدة في الشعر العربي الفلسطيني .. انه خلاصة نقية أصيلة لهذه المرحلة الجديدة ، مرحلة التفاؤل الثوري ، رغم أن صوته الشعري لم يرتفع الا بعد عام ١٩٦٠ ..

ومنذ أن ارتفع صوت محمود درويش وهو يخلق في عالم الأمل والتفاؤل الثوري ، ولا يتردى أبدا الى قاع اليأس القاتم أو الهزيمة الساحقة ...

ذلك لأنه يرى بقلبه الكبير حقيقة المأساة ، ويرى أن الظلم الذي وقع على العربي الفلسطيني لابد أن يزول ، وان منطق التاريخ يؤكد ذلك ، وانه مهما كانت الظروف القاسية التي يمر بها الانسان العربي في فلسطين المحتلة فان عودة الأرض الى أصحابها حلم ليس ببعيد .. بل انها حلم

سوف يجسده الواقع في صورة مادية حقيقية في يوم من الأيام .
لقد مرت على الشاعر العربي خارج الأرض المحتلة فترات من اليأس
والتشاؤم صبغت شعره بلون قاتم ، خاصة بعد ١٩٤٨ كما أشرنا في الفصل
السابق ، رغم أن الشاعر العربي خارج الأرض المحتلة لم يتعرض أبدا
لكل ما تعرض له العرب داخل أسوار إسرائيل . فمن أين جاء الأمل ومن
أين جاء التفاؤل الى شعراء الأرض المحتلة ؟ .. لاشك أن أقوى سبب وراء
التفاؤل العظيم هو القانون الذي سماه المؤرخ الانجليزي والفيلسوف
الكبير توينبي باسم قانون « التحدي والاستجابة » .. فعندما يتعرض
الانسان لأزمة عنيفة تهدد وجوده كله تكون هذه الأزمة هي التحدي الذي
يحتاج الى استجابة معينة .. فاذا كان الانسان قادرا على البقاء ، قادرا
على مواجهة التحدي ، قادرا على أن يحاول بأفضل ما لديه من قوى وعناصر
على أن يقف على قدميه رغم الظروف السيئة العاصفة التي تحيط به ..
وعندما يستطيع الانسان أن يفعل ذلك كله فانه يواجه التحدي وينتصر
عليه . وعندما يعجز عن مواجهة هذا التحدي فانه ينتهي ويتلاشى .

والانسان العربي في الأرض المحتلة يتعرض لمحنة خطيرة ليس بعدها
محنة .. وهي محنة تهدده بالقضاء على أرضه وحياته .. تهدده باقتلاع
كل جذوره ، بل لقد تم اقتلاع جذور عدد كبير من المواطنين العرب قبل
ذلك من أراضيهم في فلسطين .. وبقي هؤلاء الذين يبلغون ربع مليون
عربي أو يزيدون قليلا داخل أسوار إسرائيل ينتظرون مصيرهم .

من هنا لم يعد أمامهم الا الكفاح المستميت من أجل قضيتهم ، لم يعد
أمامهم فرصة للتردد او التخاذل ، فمصيرهم في مهب العواصف ، ولذلك
فهم يبذلون أقصى ما لديهم من جهد مادي ومعنوي في سبيل هذه القضية .
وخاصة بعد أن انتهت صدمة ١٩٤٨ بانتصار العرب على العدوان الثلاثي
سنة ١٩٥٦ .

ولذلك أيضا جاء هذا الجيل الجديد من شعراء الأرض المحتلة ، وقد

امتزجت في نفسه مرارة التجربة وقسوة الضغط والارهاب ، وعمق الاحساس بظلم العدو ، امتزج هذا كله بعدالة قضية الانسان العربي .. كل هذا ساعد في تكوين نفسية خاصة للشاعر العربي الجديد في الأرض المحتلة والذي نسميه باسم « شاعر المقاومة »

لنأخذ مثلاً شاعرنا محمود درويش .. لقد هدم اليهود قريته « البروة » أما هو فقد دخل السجن أكثر من مرة وفقد عمله أكثر من مرة ، وهو يعيش - رغم كل مواهبه - حياة مليئة بالمتاعب المادية والتمزق المعنوي ، وسميح القاسم شاعر آخر من هؤلاء الشعراء الممتازين .. لقد طردوه من عمله وسجنوه وصادروا شعره . وتوفيق زياد .. انه هو الآخر شاعر مطارد مضطهد هو وأهله من العرب في كل مكان من الأرض المحتلة . فماذا بقي لهؤلاء غير الثورة وغير الاصرار وغير التمرد ؟! والثائر لا يمكن أن يكون متشائماً . لأن التشاؤم يشل قدرة الانسان على الحركة والعمل . انه يجعل الانسان في حالة سقوط معنوي كامل . أما الثائر الحقيقي ، فلا بد أن يكون متفائلاً ، فالتفاؤل وحده هو الذي يمكن أن يمنح الانسان قدرة على العمل والتمرد واحتمال الاضطهاد الكبير الذي يتعرض له .. ولا يوجد في التاريخ كله ثائر غير متفائل ، فالثورة في جوهرها ايمان بإمكانية تحقيق العدل في هذا العالم ، وايمان بأن العمل والكفاح والمحاولة كلها أشياء مجدية .. وأن النصر في النهاية ممكن . وكلنا يذكر ذلك الثائر الصيني الذي كان يقول « هذا مجرد فشلنا الأول .. هذا مجرد فشلنا الثالث . هذا مجرد فشلنا العاشر » .. لقد كان متفائلاً لا يعرف اليأس ، وهكذا دائماً شأن الثوار ، فالثوار يحملون فكرة مؤمنة بضرورة تغيير الواقع ، ولا بد لهم من أن يؤمنوا بإمكانية تغيير هذا الواقع . وعندما وقعت أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧ لم يتزعزع ايمان « شاعر المقاومة » في الأرض المحتلة .. لقد هزتنا هذه الأحداث جميعاً ، وأثرت في نفوسنا تأثيراً كبيراً وكشفت لنا عن لحظات سوداء قاتمة مليئة باليأس ، ولكن أبناء الأرض المحتلة تلقوا

الصدمة بقوة أكثر منا ، لقد عرفوا من قبل صدمات مثلها وأكثر منها ..
وتعودوا على هذه الصدمات ، ولذلك فهم قادرون على احتمالها
والخلاص منها ومواصلة طريق الثورة والتفأول

يقول سميح القاسم في قصيدة له عن ٥ يونيو :

نحن ، في الخامس

من شهر حزيران ،

ولدنا من جديد

ويقول محمود درويش بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ أيضا :

وليكن ..

لا بد لي

لا بد للشاعر من نخب جديد

وأناشيد جديدة

ويقول محمود درويش أيضا في حديث له مع الكاتب اللبناني محمد
ذكروب « مجلة الطريق نوفمبر ١٩٦٨ » :

« أدبيا .. لم تخلق حرب حزيران تأثيرا مفاجئا ، ولم تقلب أفكارى رأسا
على عقب ، ولم تحطم قيمى كما فعلت ، ومن الخير أنها فعلت ، بالكثيرين
من الشعراء خارج بلادى ، لم أكن جالسا في برج حمام لكى تقنعى بمتل
هذا الدليل القادح على ضرورة النزول الى الشارع . ولكنها كانت مكاشفة
جارحة . وأضافت ، لمن لم يصدق حتى ذلك الحين برهانا جديدا على
ضرورة ممارسة العمل والفكر الثوريين الحقيقيين ، وعلى أن الأدب ليس
سلعة أو متعة . وهذا ما كنا نؤمن به ، حتى النخاع ، قولا وعملا . ومازلنا
بعد حزيران أشد ايمانا . ومن الضروري أن يستفيد منها أولئك الذين
سودوا أطنانا من الورق ضد التزام الأديب بقضيته وضد تسليح الأديب
بفكر ثورى حقيقى . ومن الموجه حقا أن يحتاج أديب الى مثل هذه
الكارثة لاكتشافه ما يشبه البديهيات . وأذكر أنى قلت لفدوى طوقان ،

في لحظات لقائنا الأول في حيفا : هل ترين يافدوى أن شهرا واحدا من الاحتلال قد حل ، عندك ، كل المناقشات الطويلة حول الشعر ؟ مشيرا الى الانعطاف الواضح في شعر فدوى بعد احتلال نابلس . وقلت لها ، بكثير من الوجع : آمل أن يستفيد الجميع مما حدث ، لئلا يأتى نزار قباني ، لزيارتنا «

ويشير محمود درويش في تلميحه الأخير الى أن الأديب العربى ، والانسان العربى اذا لم ينتبها الى واجبهما كاملا فسوف تتعرض أراض عربية كثيرة للاحتلال والغزو بحيث يصبح عدد كبير من المواطنين في حالة تشبه حالة محمود درويش .. تحت الاحتلال الاسرائيلى .
يقول محمود درويش في قصيدة له :

خسرت حلما جميلا
خسرت لسع الزنابق
وكان ليلى طويلا
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلا

... انه شاعر متفائل بين شعراء متفائلين .. انه يرى خسائره الفادحة وهو مع ذلك صامد وصابر وقوى لأنه كما يقول وكما ينبغى أن نقول نحن معه : « .. وما خسرت السبيلا » .

ملاح شخصية

ولد محمود درويش في ١٣ مارس سنة ١٩٤١ ، وهناك بعض الأحاديث الصحفية التي أدلى بها محمود درويش والتي توحى أنه ولد سنة ١٩٤٢ ، ففى حديث أدلى به للأستاذ محمد ابراهيم دكروب ونشره في مجلة الطريق اللبنانية يتحدث محمود درويش عن مأساة ١٩٤٨ كما أحس بها في قريته الفلسطينية الصغيرة « البروة » فيقول :

« .. الرصاص الذى انطلق في تلك الليلة من صيف ١٩٤٨ في سماء قرية هادئة « البروة » لم يميز بين أحد ، ورأيت نفسى ، وكان عمرى يومها ست سنوات أعدو في اتجاه أحراش الزيتون السوداء ، فالجبال الوعرة .. مشيا على الأقدام حيناً وزحفاً على البطون حيناً ، وبعد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش وجدنا أنفسنا في بلد اسمه لبنان .. »
ثم يعود محمود درويش في نفس الحديث ليشير الى أن ميلاده كان سنة ١٩٤٢ فيقول عن ديوانه الأول :

« أول ديوان مطبوع لى لا يستحق الوقوف أمامه . كنت في سنتي الدراسية الأخيرة « ١٨ سنة » وكان تعبيراً عن محاولات غير متبلورة . صدر عام ١٩٦٠ واسمه : عصافير بلا أجنحة .. »

ومن خلال هذا الحديث نستنتج أن محمود درويش ولد سنة ١٩٤٢ ، وقد سألت محمود درويش عندما التقيت به في القاهرة في فبراير ١٩٧١ عن تاريخ ميلاده الصحيح فقال لى : انه أخطأ في حديثه الى مجلة الطريق عندما قال انه خرج من قريته « البروة » وسنه ست سنوات ، فالصحيح أنه خرج منها وسنه سبع سنوات ، كما أن ديوانه الأول صدر سنة ١٩٦٠ وكان سنه آنذاك ١٩ سنة لا ١٨ سنة كما ذكر محمود نفسه في

حديثه الى مجلة الطريق . وذكر لى محمود درويش بعد ذلك أن تاريخ ميلاده الصحيح هو ١٣ مارس ١٩٤١ . وقد أشرت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب الى أن محمود درويش ولد سنة ١٩٤٢ وكان هذا خطأ قاذنى اليه حديث محمود درويش لمجلة « الطريق » أما قرية محمود درويش التى ولد فيها وعاش بها حتى سنة ١٩٤٨ فهى قرية « البروة » بكسر الباء، ويحدثنا الأستاذ مصطفى مراد الدباغ في كتابه « جغرافية فلسطين » عن قرية البروة فيقول :

« انها قرية تقع شرقى عكا على مسيرة ٩ كيلومترات منها ، بها ١٤٦٠ نسمة وقد مر بالبروة ناصر خسرو الرحالة الفارسي المسلم في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وقال انه زار فيها قبر «عيسى» و«شمعون» والبروة من المدن التى بناها الرومان أو أعادوا بناءها فى فلسطين » . ثم يقول الكاتب وحديثه هنا يتصل بفلسطين حتى سنة ١٩٤٨ « ومازال كثير من مدن وقرى بلادنا تحتفظ بأسمائها التى عرفت بها فى عهد الرومان أو حرفت تحريفا ظاهرا ، فقرية البروة كان اسمها Biri » هذه فكرة عامة عن قرية محمود درويش حتى سنة ١٩٤٨ ، ولكن هذه القرية تأثرت بالمأساة الفلسطينية تأثرا مباشرا ، فقد هدم اليهود هذه القرية كما فعلوا بكثير من القرى العربية الأخرى ، كذلك غير اليهود اسم القرية من « البروة » وهو اسمها الأصلى الى « أحيهود » وحولوها الى موشاف وهو القرية التعاونية اليهودية . وكل سكان هذا « الموشاف » من اليهود اليمنيين المهاجرين الى اسرائيل . كما تحول جزء من قرية البروة أيضا الى كيبوتز اسمه كيبوتز (١) « يسعور » وكل سكان هذا الكيبوتز من اليهود الانجليز المهاجرين الى اسرائيل .

وعندما احتل اليهود قرية « البروة » سنة ١٩٤٨ تجمع أهل القرية مع عرب القرى المجاورة وحرروها من الاحتلال الاسرائيلى ، ولكن اليهود عادوا الى احتلالها بعد أسبوع . ولاشك أن من العوامل التى دفعت

(١) الموشاف هو القرية التعاونية والكيبوتز هو المزرعة الجماعية

اليهود الى هدم القرية بعد ذلك أن هذه القرية قاومتهم بشدة مما دفعهم الى الانتقام والثأر منها بعنف وقسوة ، كما حرص اليهود على احتلال هذه القرية وطرد كل سكانها العرب لأن القرية نفسها تتميز بأرضها الخصبة ومزروعاتها الممتازة من الحبوب والخضروات والزيتون . وقد خرج أهل قرية البروة بعد هدمها ولجأوا الى القرى المجاورة التى استطاعت أن تنجو من أيدي اليهود ، كما لجأ بعض السكان الى سوريا ولبنان ، أى أن هؤلاء السكان تحولوا الى لاجئين فى البلاد العربية أو لاجئين فى الأرض المحتلة . ومن المعروف أن بعض أهل البروة الأصليين - وهذا ليس غريباً فى اسرائيل - يدخلون الآن أرض « البروة » بتصريح من السلطات الاسرائيلية ليعملوا أجراء أو عمال بناء فى القرية التى كانت لهم ، وكانوا يعرفون فيها كل ذرة تراب وكل شجرة زيتون وكل نسمة هواء .. لقد تحولوا الى أجراء عند الذين سلبوا القرية وهدموها وأقاموا على أنقاضها مشروعاتهم الجديدة . وعلى الأجير العربى ابن « البروة » الأصلي أن يدخل القرية فى الصباح ويغادرها فى المساء بتصريح خاص ، لأن المطلوب منه هو قوة عمله التى يستغلها اليهود .. فلم يعد للعربى فى قريته دار ولا زيتونة ولا عصفورة ولا نسمة هواء .

ويروى محمود درويش فى حديث هام له مع احدى الصحف العبرية هى صحيفة « زوهديرخ » قصته التى امتزجت بقصة أهله وقريته ، وقد أجرى هذا الحديث معه الصحفى اليهودى « يوسى الغازى » ، وقد وصفت الصحف العبرية هذا الحديث بأنه « أول لقاء مباشر بين محمود درويش والقارئ العبرى » ، ذلك لأن الصحافة العبرية عموماً لا تهتم الا فى أضيق نطاق بالمواطنين العرب وهى لا تهتم أى لون من ألوان الاهتمام بالشعر العربى فى الأرض المحتلة وتنظر اليه على أنه حركة عديمة الأهمية والتأثير ، أما صحيفة « زوهديرخ » فهى صحيفة أسبوعية ناطقة بلسان الحزب الشيوعى الاسرائيلى وهو الحزب الذى يتعاطف مع

العرب أكثر من أى قوة سياسية أخرى فى اسرائيل .

وهذا الحديث الذى أدلى به محمود درويش للصحيفة يعتبر وثيقة هامة من عدة جوانب ، فهو وثيقة تاريخية ، لأنه يسجل ما حدث لقرية « البروة » ولحمود درويش ولأسرته ، وما حدث للقرية والشاعر والأسرة ليس حادثا خاصا بل هو حادث عام أصيبت به القرى والمدن والناس فى الأرض المحتلة ، وما القصة التى يرويها محمود درويش فى هذا المجال الا نموذج واحد تكرر مرات عديدة .. بعدد البلاد وعدد المواطنين فى فلسطين المحتلة ، والحديث من ناحية أخرى وثيقة سياسية لأنه يكشف عن الكثير من فكر المحتل الصهيونى فى مواجهة المقاومة العربية سواء كانت هذه المقاومة سلبية كمجرد التمسك بالأرض والرضا باللجوء والغربة فى الدار والوطن داخل فلسطين المحتلة أو كانت مقاومة ايجابية كالعمل العنيف على استرداد الأرض واعادتها الى أصحابها الحقيقيين ، كما أن هذا الحديث وثيقة انسانية لأنه يكشف عما تعرض له العرب من ظلم واضطهاد وامتهان لحقوقهم كبشر ، كما يكشف عن الظلم والغرور والنزعة العدوانية التى تتمثل فى الحركة الصهيونية وتتجسد عمليا فى دولة اسرائيل، والحديث الذى أدلى به محمود درويش هو أيضا وثيقة أدبية تكشف عن موهبة هذا الشاعر الفنان المناضل الذى جعل كل مواهبه فى خدمة التعبير عن قضيته العادلة حيث امتلأ الطريق اليها بالشوك والألم والاستشهاد والحزن العميق . ومن أجل هذا كله فأنا أستأذن القارئ فى نقل فقرات طويلة من هذا الحديث الذى يصور لنا مأساة حياة محمود درويش ومأساة قريته وفوق ذلك كله مأساة وطنه وشعبه .

يقول محمود درويش فى حديثه عن قريته وطفولته ، وأنا أثقل هنا من نص الحديث كما نشرته مجلة الآداب البيروتية فى ابريل ١٩٧٠ :

« أذكر نفسى عندما كان عمرى ست سنوات . كنت أقيم فى قرية جميلة وهادئة ، هى قرية البروة الواقعة على هضبة خضراء ينبسط أمامها سهل

عكا . وكنت ابناً لأسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة . عندما بلغت السابعة توقفت ألعاب الطفولة .. واني أذكر كيف حدث ذلك .. أذكر ذلك تماما : في احدى ليالى الصيف التى اعتاد فيها القرويون أن يناموا على سطوح المنازل ، أيقظتنى أمى من نومى فجأة ، فوجدت نفسى مع مئات من سكان القرية أعدو فى الغابة ، كان الرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ، ولم أفهم شيئاً مما يجرى . بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع أحد أقاربنى الضائعين فى كل الجهات الى قرية غريبة ذات أطفال آخرين . تساءلت بسذاجة أين أنا ؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة : لبنان »

« يخيل الى أن تلك الليلة وضعت حدا لطفولتى بىتهى العنف فالطفولة الخالية من المتاعب انتهت . وأحسست فجأة أنى أتنمى الى الكبار . توقفت مطالبى وفرضت على المتاعب . منذ تلك الأيام التى عشت فيها فى لبنان لم أنس ، ولن أنسى الى الأبد تعرفى على كلمة الوطن ، فلأول مرة ، وبدون استعداد سابق كنت أقف فى طابور طويل لأحصل على الغذاء الذى توزعه وكالة الغوث « وكالة اغاثة اللاجئين الفلسطينيين » . كانت الوجبة الرئيسية هى الجبنة الصفراء . وهنا استمعت لأول مرة الى كلمات جديدة فتحت أمامى نافذة الى عالم جديد : الوطن ، الحرب ، الأخبار ، اللاجئين الجيش ، الحدود ، وبواسطة هذه الكلمات بدأت أدرس وأفهم وأتعرف على عالم جديد ، على وضع جديد .. حرمنى طفولتى .

بعد أكثر من سنة ، عشت خلالها حياة لاجئ ، أبلغونى ذات ليلة أننا سنعود غدا الى البيت . أذكر جيداً أنى لم أنم فى تلك الليلة .. لم أنم من شدة الفرح . فالعودة الى البيت تعنى — بالنسبة لى — نهاية الجبنة الصفراء ، نهاية تحرشات الأولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتموننى بكلمة لاجئ المهينة »

« ... وخرجت الى رحلة العودة . كان الظلام مخيماً على كل شيء . وكنا ثلاثة : أنا ، وعمى والدليل الذى كان يعرف مجاهل الدروب فى

الجبال وفي الوديان . انى أذكر الزحف على البطون لكى لايرانا أحد . وبعد رحلة مضنية ، وجدت نفسى فى إحدى القرى . ولكن ما أشد خيبة أسمى : لقد وصلنا الى قرية دير الأسد ، وهى ليست قريتى . لا يبنى هنا ولا زقاقى . سألت : متى نعود الى قريتنا .. الى منزلنا . ولم تكن الأجوبة مقنعة . ولم أفهم شيئاً ... لم أفهم معنى أن تكون القرية مهدمة ، لم أفهم معنى أن يكون عالمى الخاص قد انتهى الى غير رجعة ولم أفهم لماذا هدموا هذا العالم ... ومن هم أولئك الذين هدموه !

ورويدا رويدا اعتدت على حياة الكبار ، وقضايا الكبار ، واتضح لى بمنتهى خيبة الأمل ، أنى لم أعد الى منبع الأحلام ، ولم أعد الى زقاق الطفولة . كل ما فى الأمر هو أن اللاجئين قد استبدل بعنوانه عنواناً جديداً . كنت لاجئاً فى لبنان . وأنا الآن لاجئ فى بلادى . والآن ، عندما أتحدث اليك ، وأنا فى الثامنة والعشرين (١) من العمر ، فانى قادر على تقسيم تلك الفترة . اذا أجرينا مقارنة بين أن تكون لاجئاً فى المنفى وبين أن تكون لاجئاً فى الوطن ، فقد خبرت النوعين من اللجوء ، فاننا نجد أن اللجوء فى الوطن أكثر وحشية . العذاب فى المنفى والأشواق وانتظار يوم العودة الموعد شئ له ما يبرره ... شئ طبيعى . ولكن أن تكون لاجئاً فى وطنك ، فلا مبرر لذلك ، ولا منطق فيه . وعندما تتقدم قليلاً فى السن تتخلص من الغصة وتشعر أن الوجود هنا أكثر تبريراً . عندما يتدخل عنصر التحدى ، وعامل الوعي والبحث عن حل . وقد عثرت على الحل فى سن لاحقة ، عندما انتهى الصبا ، وأدركت أن ثمة حاجة الى الانتماء الفعال . الانتماء الملموس والسياسى . ومن الطبيعى أن السياسة تقضى على الحساسية المفرطة وعلى التمسك المتواصل ببقايا الذكريات وبوسعى أن أقول الآن أن وضعى الراهن أسهل . ولكن المواجهة النفسانية الداخلية نشور فى عندما أجلس لكتابة الشعر . عندما يجرى الحوار بين احساس

(١) بخطاب محمود درويش الصحفى اليهودى ، وقد ادلى محمود بهذا الحديث سنة ١٩٦٩

الفنان وبين الوعي السياسى . وأنا أعتقد أن الفنان يجب أن يكون عاريا أمام نفسه »

« عندما عدت من « لبنان » الى قرية « دير الأسد » كنت فى الصف الثانى . كان مدير المدرسة انسانا طيبا . وأنا أذكر عندما كان يزور المدرسة مفتش وزارة المعارف ، كيف كان المدير يستدعيني ويخبئني فى غرفة ضيقة . فقد كانت السلطات تعتبرني متسللا وكان المعلمون يرغبون فى الدفاع عني . لقد أضاف ذلك الحادث « حادث العودة من لبنان الى فلسطين » كلمة أخرى الى قاموسى الخاص ، الى قاموس الحياة : كلمة « متسلل » . وكلما كانت الشرطة تأتى الى القرية ، كانوا يخبئونني فى خزانة « دولاب » أو فى احدى الزوايا ، لأنه من المحظور على أن أعيش هنا ... فى وطني . لقد منعوني من الادلاء بهذا الاعتراف : « كنت فى لبنان » . وعلموني القول أني كنت لدى احدى القبائل البدوية فى الشمال . وهكذا فعلت لكى أحصل على بطاقة الهوية الاسرائيلية . ولكنى لا أزال حتى اليوم محروما من الجنسية فى وطني »

وأود أن أتوقف قليلا عن نقل فقرات أخرى من حديث محمود درويش ، لأشير الى قصيدة له بعنوان « جواز سفر » وفى هذه القصيدة يعبر محمود درويش عن مرارة التناقض بين انتمائه هو وأهله منذ أجيال وأجيال الى أرض فلسطين وبين حرمانه من « الجنسية » فى هذا الوطن ، حيث يعتبره الاسرائيليون غريبا ولاجئا فى أرضه كما يعتبرونه « غير جدير » يأذن يحصل على « باسبور » تتحدد فيه جنسيته ، وهو يتحرك - اذا تحرك - خارج بلاده بورقة مرور أو بما يسمى « ليسيه باسيه » . وفى هذه القصيدة الجميلة يجسد لنا محمود درويش مأساة حرمانه من الانتماء الى وطنه فلسطين فى صور فنية وانسانية خصبة ورائعة . ويكشف لنا الشاعر عن تلك العلاقة الحميمة الصادقة بينه وبين ذرات التراب والعصافير وأوراق الشجر ... كل هذه الكائنات الحية وغير الحية تعرفه وتعرف

الوجه العربي صاحب الأرض ... حتى ولو لم تعترف له الحكومة
الاسرائيلية بحق الحصول على « جواز سفر » باعتباره - في نظر هذه
الحكومة - بلا جنسية .. يقول محمود في قصيدته :

لم يعرفوني في الظلال التي
تمتص لوني في جواز السفر
وكان جرحى عندهم معرضاً
لسائح يعشق جمع الصور
لم يعرفوني ، آه ... لاتركى
كفى بلا شمس
لأن الشجر

يعرفنى
تعرفنى كل أغاني المطر
لاتركنى شاحبا كالقمر !
كل العصافير التي لاحقت
كفى على باب المطار البعيد
كل حقول القمح
كل السجون
كل القبور البيض
كل الحدود
كل المناديل التي لوحت
كل العيون السود
كل العيون
كانت معى ، لكنهم
قد أسقطوها من جواز السفر
ثم يحدثنا محمود درويش في استنكار وألم في نفس القصيدة :

عار من الاسم ، من الانتماء ؟
في تربة ريبتها باليدين ؟

ثم يربط الشاعر بين مأساته ومأساة « أيوب » الذي أصابه الله بالداء
ليختبر قوته على الصبر والمحافظة على إيمانه في ظل الألم والقهر النفسى ...
غير أن بلاء أيوب كان بلاء الهيا جاءه من السماء ولكن محمود درويش ، أو
أيوب العصرى ، مثله مثل كل أبناء وطنه من العرب المضطهدين ، إنما
يعيشون جميعا في ظل « بلاء أرضى » صنعه الاستعمار والصهيونية ،
لذلك فإذا كانت مأساة أيوب القديم تحتاج الى الصبر والاحتمال والرضا
بالواقع ، فإن مأساة أيوب العصرى ، وهو الانسان العربى الفلسطينى
تحتاج الى حل آخر هو الثورة والتمرد ورفض الظلم فى كل أشكاله
الصغيرة والكبيرة ... يقول محمود درويش فى نفس قصيدته « جواز
سفر » :

أيوب صاح اليوم ملء السماء
لاتجعلونى عبرة مرتين
ياسادتى ! ياسادتى الأنبياء
لاتسألوا الأشجار عن اسمها
لاتسألوا الوديان عن أمها
من جبهتى ينشق سيف الضياء
ومن يدي ينبع ماء النهر
ثم يصرخ الشاعر صرخته العظيمة :
كل قلوب الناس جنسيتى
فلتسقطوا عنى جواز السفر

اننا مع هذه القصيدة نعيش موقفا واضحا من مواقف الألم الذى
يعانيه العربى فى الأرض المحتلة ، ونعيش فى نفس الوقت موقفا من مواقف
التمرد والثورة على هذا الألم .

نعود بعد ذلك الى حديث محمود درويش عن حياته حيث يواصل هنا تصوير مأساته بعد أن دخل المدرسة على أثر عودته من لبنان التي قضى فيها عاما وبعض عام بعد أن خرج من أرضه سنة ١٩٤٨ ... يقول محمود درويش :

« اعتبرت في المدرسة تلميذا متفوقا . كنت أكثر من مطالعة الأدب العربى . وقلدت الشعر الجاهلى فى محاولاتى الشعرية الأولى . واليوم يبدو من المستهجن أن أكشف النقاب لأول مرة : أنى كنت موهوبا آتذ فى الرسم . ربما كنت فى ظروف وملابسات أخرى أنطور كرسام لا كشاعر . وقد تضحك عندما تعرف لماذا توقفت عن الرسم . السبب فى منتهى البساطة : لم يملك والدى قدرا من المال يتيح له امكانية أن يشتري ما أحجته من أدوات الرسم . لقد زودنى بدفاتر الكتابة بشق النفس . ألمنى ذلك كثيرا ، فبكيت وتوقفت عن الرسم . وعندها حاولت التعويض عن الرسم بكتابة الشعر . وكتابة الشعر لا تتطلب نفقات مالية . كانت مواضيع محاولاتي الشعرية الأولى هى مشاعر الطفولة . وكنت أحاول الكتابة أحيانا عن مواضيع ذات وزن ، كانت أكبر من طاقتى فى تلك السن . شجعتى المعلمون على الكتابة . ولا أزال حتى اليوم مدينا لبعضهم — ومن بينهم معلم شيوخى هو نمر مرقس — قاموا بتوجيهى وساعدوا خطواتى الأولى فى الشعر »

« ولقد خلق لى شعري المتاعب منذ البداية . ودفعنى الى الصدام مع الحكم العسكرى . واذا أردت مثلا على ذلك : كنت طالبا فى الصف الثامن عندما احتفلوا بمناسبة اقامة دولة اسرائيل . وقد نظموا مهرجانات كبيرة فى القرى العربية باشتراك تلامذة المدارس فى هذه المناسبة . طلب منى مدير المدرسة أن أشارك فى مهرجان فى قرية دير الأسد وعندها ، ولأول مرة فى حياتى ، وقفت أمام الميكروفون وبالبنطلون القصير ، وقرأت قصيدة كانت صرخة من طفل عزبى الى طفل يهودى . لا أذكر القصيدة

ولكننى أذكر فكرتها : يا صديقى ! بوسعك أن تلعب تحت الشمس كما تشاء . بوسعك أن تصنع ألعابا . ولكننى لا أستطيع . أنا لا أملك ماتملكه . لك بيت وليس لى بيت ، فأنا لاجئ . لك أعياد وأفراح . وأنا بلا عيد أو فرح ... ولماذا لا تلعب معا ؟ ..

وفى اليوم التالى استدعيت الى مكتب الحاكم العسكرى فى قرية « مجد الكروم » . هددنى وشتمنى ، فاحترت . لم أعرف كيف أرد عليه . وعندما خرجت من مكتبه بكيت بمرارة لأنه أنهى تهديده بقوله : اذا مضيت فى كتابة مثل هذه الأشعار فلن نسمح لأبيك بالعمل فى المحجر ! يؤلمنى أن أذكر الآن أن تهديدات ذلك الحاكم العسكرى أثرت على تأثيرا سلبيا . وبمنطق الصبى قلت لنفسى : سأحصل على القصاص . ولن أكتب . وبالمنطق ذاته عجزت عن فهم السبب الذى يجعل مثل تلك القصيدة تثير حاكما عسكريا . وأسجل الآن أن ذلك الحاكم العسكرى كان أول يهودى أقابله وأتحدث إليه ! لقد ضايقتنى سلوكه : اذا كان الأمر كذلك فلماذا أتحدث الى الطفل اليهودى ؟

لقد تحول الحاكم العسكرى الى رمز الشر الذى يؤذى العلاقات بين الشعبين . ومن الواضح أننى الآن فقط أستطيع الاجابة على الأسئلة التى ضايقتنى آنثذ «

ولنترك حديث محمود درويش مرة أخرى قليلا لنسجل ملاحظة ضرورية فحديث محمود درويش موجه فى أساسه الى يهود اسرائيل ، وهو يهدف بالفقرة الأخيرة التى يتحدث فيها عن فساد العلاقة بين الشعبين الى أن اليهود والعرب كان يمكن أن يعيشا معا فى سلام بدون « الحاكم العسكرى الاسرائيلى » ، أى بدون التعصب اليهودى الذى يجسده العسكريون الاسرائيليون بعنف وقسوة والذى يهدف الى اقامة دولة اسرائيل على أساس عنصرى يرفع من قيمة العنصر اليهودى فوق قيمة العنصر العربى ويدعو الى سيادة العنصر اليهودى سيادة كاملة على غيره من العناصر .

وهذه الفكرة هي التى دفعت محمود درويش الى أن يشير فى الجزء التالى من حديثه الى شخصية يهودية طيبة ، وهو يقصد من وراء ذلك الى التأكيد على أن العرب لا يرفضون اليهود كعنصر أو كأصحاب ديانة ، ولكنهم يرفضون استمرار اليهود فى موقفهم العنصرى المتعالى على العرب والمعادى لهم وهو الموقف الذى يتجسد فى المتعصبين الصهيونيين ويتجسد أيضا فى العسكريين الاسرائيليين الذين يهدفون الى التوسع والتخريب واحتلال الأرض والقضاء على عرب فلسطين جميعا بكل الوسائل والأساليب ، أما اليهودى الطيب ، فهو الانسان العادى الذى لا يحمل أحقادا عنصرية ومثل هذا اليهودى يمكن أن يعيش فى سلام وكرامة وود فى أى أرض حتى فى الأرض العربية نفسها ... طالما أنه لم ينجى للعدوان والكراهية والقتل والنهب .

أما صورة اليهودى التى يرسمها محمود درويش فى حديثه أمامنا وأمام رأى العام الانسانى والرأى العام اليهودى فهى صورة مدرسته اليهودية « شوشنة » ... يقول محمود :

« ومن حسن حظى ، ظهرت فى حياتى صورة أخرى مناقضة للحاكم العسكرى « الاسرائيلى » ، بعد ذلك الحادث ببضعة شهور انتقلت الى مدرسة كفر ياسيف الثانوية . هناك التقيت بشخصية يهودية أخرى تختلف تمام الاختلاف ، هى شخصية المعلمة « شوشنة » التى لا أمل الحديث عنها . لم تكن معلمة . كانت أما . لقد أنقذتني من جحيم الكراهية لقد علمتني شوشنة أن أفهم الثورة كعمل أدبى وعلمتني دراسة بيباليك « شاعر يهودى كبير » بعيدا عن التحمس لانتماؤه السياسى ، وانما لجرارته الشعرية . لم تحاول أن تعبئنا بسموم البرامج الدراسية الرسمية التى ترمى الى دفننا للتكر لتراثنا . لقد أنقذتني شوشنة من الحقد الذى ملأني به الحاكم العسكرى . لقد حطمت الجدران التى أقامها ذلك الحاكم » .

ويواصل محمود درويش حديثه بعد ذلك عن حياته أو مأساته فيقول :

« قبل عدة أسابيع عقدنا - نحن محرري الصحف العربية - مؤتمراً صحفياً في حيفا + تصرف بعض الصحفيين « الاسرائيليين » بدون لياقة اذا استخدمت الكلمة اللينة + وبدون فهم لمشاعرنا وقضايانا + وفي مجرى الحديث قلت لأحد الصحفيين ان صحيفة « عل همشمار » نشرت في ذلك الصباح خبراً بارزاً عن الاحتفالات بمرور عشرين سنة على انشاء كيوتز « يسعور » + جاء في الخبر أن الفرح بهذه المناسبة لم يكن له مثيل ، وقلت للصحفي : يؤسفني أن أقول لك الحقيقة - أنا أفهم فرحك ولكنني عاجز عن مشاركتك فيه + لماذا ؟ لأن هذا الفرح قائم على أطلالي - فان كيوتز « يسعور » ومستوطنة « أحيهود » مبنيان على أنقاض قريتي ... على أنقاض حارتي وبيتي . ذلك ينتمي الى الماضي ، ولكنه محفور في أعماقي ! » +

« عندما عدت من لبنان حذرني أهلي من « خطورة » رغبتى في زيارة المكان الذى ولدت فيه وقضيت طفولتى ، فاذا ألقى القبض على هناك ، سأطرد الى لبنان + وهكذا لم أزر المكان الا عام ١٩٦٣ + كانت زيارة سرية لأن دخول تلك المنطقة ممنوع + ولم أجد من كل القرية الا مبنى الكنيسة الذى تحول الى حظيرة للمواشى + ان ما رأيته فى ذلك المكان المهجور يفسر لك لماذا كانت هذه هى زيارتى الأولى والأخيرة + فتشت عن مرتع طفولتى فلم أجد الا الأشوك ... لا منزل ولا شئ الا الشوك + لن أعود الى ذلك المكان + وكانت الزيارة بمثابة حج + قمت بتأدية هذه الفريضة مع مجموعة من الأصدقاء ، من أبناء القرية . خلدنا الى الصمت طيلة تلك الزيارة وبعدها + التقينا هناك براعى أغنام « يهودى » من اليمن يقيم فى مستوطنة « أحيهود » التى حلت محل قرية محمود درويش : البروة + قلت له : لقد أصبحنا أبناء قرية واحدة ! لم يفهم ما أعنيه + ولم

تكن بي رغبة في التفسير » .

وفي فقرة أخرى من حديث محمود درويش يعطينا صورة من حياته في السنوات الأخيرة داخل إسرائيل ... يقول محمود :

« الكثيرون من أصدقائي يتألمون من أجلى + هذه الملاحقات + + + الاعتقالات وأوامر الإقامة الجبرية التي تحدد حرية تجولي في وطني ، أصبحت جزءا من حياتي اليومية ، ولكنني أنظر إليها باستهتار يكاد يكون خبيثا . لست متوترا أو لست مندهشا . أجلس في غرفتي كل مساء ويظربني أن أرتبط بالشمس ، لأنني أمتنع من مغادرة البيت بعد غروب الشمس + منحوني شرفا كبيرا عندما ربطوا خطواتي بالشمس + أسمع موسيقى ، وأنتظر البوليس + وفي الساعة الرابعة بعد كل يوم أثبت وجودي في محطة الشرطة بإتسامة حقيقية غير لثيمة دائما ، وأنا أنظر الى ذلك برؤية شعرية : لقد تناسمنا اليوم : لهم الليل ، والنهار لي ، لا يحق لي الخروج في الليل وهم دائمو التجوال في الليل . وكل واحد منا يعرف أن النهار أجمل من الليل ، وضوء الشمس أحلى من الظلام . فمن انتصر ... أنا أم البوليس ؟! » .

هذه بعض ملامح من حياة محمود درويش كما رواها محمود لتلك الصحيفة العبرية في حديث ملىء بالحزن والألم والكبرياء والجراح والحقائق . وإذا أردنا أن نعرف مزيدا من ملامح صورته الشخصية فإنا نجد أن محمود درويش هو الابن الثاني لأسرة تتكون من ثمانية أبناء : خمسة أولاد وثلاث بنات + والابن الأكبر في هذه الأسرة هو أحمد + وكان أحمد مهتما بالأدب ، وقد بدأ حياته بالكتابة الأدبية ثم توقف حيث انشغل بعمله كمدرس في قرية « الجديدة » + وعن « أحمد » الابن الأكبر أخذ محمود درويش بدايات اهتمامه بالأدب + وفي أسرة محمود أيضا شقيقته الثالث « زكي » وهو كاتب قصة من الكتاب الشبان المعدودين في الأرض المحتلة + ولا يوجد بين أفراد الأسرة من يهتم بالأدب غير هذين

الأخوين : أحمد وزكى ، فالأب فلاح فلسطينى كان يملك بعض الأراضى فى قريته البروة ، وهو الآن يعيش فى قرية الجديدة ولا يملك شيئاً . واسم الأب سليم درويش أما الأم فهى من قرية « الدامون » وكان والدها « أديب البقاعى » مختاراً أى عمدة لقرية الدامون ، وهذه الأم سيدة فلسطينية لا تقرأ ولا تكتب . أما والد محمود درويش فيعرف القراءة والكتابة ولكنه لم يتعلم تعليماً منتظماً بعد أن درس فى « كتاب » قريته . وبعد هدم قرية « البروة » التى كانت الأسرة تعيش فيها ، وبعد فترة اللجوء القصيرة الى لبنان ، أقامت الأسرة فى قرية دير الأسد فى الأرض المحتلة ، ثم انتقلت الى قرية الجديدة واستقرت فيها حتى اليوم . وقد ذكرت - خطأً - فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب على لسان أحد الشبان الفلسطينيين الذين خرجوا من الأرض المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧ : أن والد محمود درويش قد استشهد فى حرب ١٩٤٨ ، والواقع أن والد محمود درويش مازال حياً وهو فى حوالى الستين من العمر . كما أن والدته وأخوته السبعة كلهم أحياء يقيمون فى قرية « الجديدة » ... إحدى القرى العربية فى الأرض المحتلة .

وقد دخل محمود درويش سجون إسرائيل أكثر من مرة وكانت المرة الأولى سنة ١٩٦١ ، وكان محمود قد انتقل من قرية الجديدة حيث تقيم أسرته ليعيش وحده فى مدينة حيفا سنة ١٩٦٠ بعد أن أتم تعليمه الثانوى وكان اعتقال البوليس الاسرائيلى له فى المرة الأولى سنة ١٩٦١ بدون سبب ، وقد تم القبض على الشاعر فى مسكنه ، ودخل محمود بعد القبض عليه سجن « الجلعة » قرب مدينة الناصرة ، وهى إحدى المدن العربية الكبيرة فى الأرض المحتلة ، وقد بقى محمود فى السجن أسبوعين بدون أى محاكمة ، وكان يعيش داخل السجن فى « عنبر » واحد مع أربعين من المتهمين كلهم من العرب ، وكان الجميع ينامون على الأرض ، وكان عمر الشاعر آنذاك عشرين سنة ... ويقول محمود درويش عن هذه التجربة

الأولى مع السجن «ان السجن الأول مثل الحب الأول لا ينسى» وجاء السجن الثانى لمحمود درويش سنة ١٩٦٥ ، كان الشاعر قد سافر من حيفا الى القدس بدون تصريح ، حيث ينبغي على كل عربى فى الأرض المحتلة أن يحمل تصريحا خاصا اذا أراد أن ينتقل من مكان الى مكان . وقد بدأت قصة محمود درويش فى الاعتقال هذه المرة عندما عقد الطلبة العرب فى الجامعة العبرية أمسية شعرية وذهب محمود من حيفا الى القدس للاشتراك فى هذه الأمسية ، وهناك ألقى قصيدته الطويلة المعروفة « نشيد الرجال » وهى القصيدة التى نشرها بعد ذلك فى ديوانه الثالث « عاشق من فلسطين » وفى مطلع هذه القصيدة يقول الشاعر :

لأجمل ضفة أمشى
فلا تحزن على قدمي
من الأشواك
ان خطاى مثل الشمس
لا تقوى بدون دمي !
لأجمل ضفة أمشى
فلا تحزن على قلبي
من القرصان
ان قوادى المعجون كالأرض
نسيم فى يد الحب
وبارود على البغض
وفى هذه القصيدة يقول :
سنصنع من مشائقنا
ومن صلبان حاضرا وماضي
سلام للغد الموعود
ثم نصيح : يا رضوان !

افتتح بابك الموصود !

وقد تم اعتقال الشاعر بعد القاء قصيدته وقدم للمحاكمة في محكمة عسكرية كان قاضيه ضابطا بحريا اسرائيليا * وسأل القاضي محمود درويش : اذا ذهبت الى القدس بدون تصريح فقال الشاعر لقد طلبت التصريح من الحاكم العسكري فوعدني به ولكنه لم ينفذ وعده وظل يماطلني *** انه لم يرفض اعطائي التصريح ولكنه كان يؤجل ذلك يوما بعد يوم « وأنا لا أستطيع أن أحضر خيمة لأقيم بجواره حتى يقرر اعطائي هذا التصريح » قال له القاضي : هل أنت نادم على ما فعلت وهل تعتذر عنه ؟ قال الشاعر : لا *** لست نادما ولا أعترف أنني متهم *

وصدر حكم القاضي بسجن محمود درويش لمدة سنتين يوما مع التنفيذ وتسعين يوما مع ايقاف التنفيذ ، والمفروض أن الحكم مع ايقاف التنفيذ ينفذ على الفور لو حدثت أى مخالفة من الشاعر خلال سنتين وذلك بالاضافة للحكم الاساسى على المخالفة الجديدة *

وقضى محمود درويش مدة السجن الثانى فى سجن « الرملة » حيث كتب معظم قصائد ديوانه الثالث « عاشق من فلسطين » داخل السجن *

وما بين ١٩٦٥ و ١٩٦٧ سجن الشاعر مرة ثالثة عندما حامت حوله شبهة النشاط المعادى لاسرائيل ، وفى هذه المرة انتدبت له المحكمة أحد المحامين ، وحاول المحامى أن يقول انه يعتذر باسم محمود درويش عن المخالفة التى ارتكبها الشاعر ويعد بالآلا يكرر الشاعر هذه المخالفة ، وسأل القاضي محمود درويش عن رأيه فيما يقوله المحامى فأجاب الشاعر « بأن المحامى يعبر عن وجهة نظره ولكننى لا أعترف بما يقول ولن أردد هذا القول أو أتريده أبدا » وحكمت المحكمة على الشاعر بغرامة قدرها مائتى ليرة اسرائيلية *

وفى ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ، أى قبل العدوان الاسرائيلى بيوم واحد ، صدرت أوامر اسحق رايبن رئيس أركان الجيش الاسرائيلى آنذاك باعتقال

كل المثقفين العرب ، واختفى محمود درويش ولم تستطع السلطات الاسرائيلية العثور عليه لاعتقاله ، وكان هدف الاختفاء هو أن يشرف محمود درويش على اصدار جريدة « الاتحاد » العربية بعد أن تم اعتقال جميع المحررين فيها . وكان يوم الاثنين ٥ يونيو هو موعد صدور هذه الجريدة التي تصدر مرتين كل أسبوع + وأصدر محمود بالفعل من مخبئه عدد من الجريدة + وكان هو المحرر الوحيد لهذين العددين بما فيهما من أخبار ومقالات وتعليقات مختلفة + وبعد صدور العدد الثاني كان من الواضح أن معركة يونيو سنة ١٩٦٧ قد تحددت نتائجها وأن الهزيمة قد حلت بالعرب فترك محمود مخبأه وعاد الى بيته ، وبعد خمسة أيام من عودته الى البيت تم اعتقاله بدون محاكمة وظل في سجن « الدامون » لمدة شهر + ويقول محمود : انه كان مستريح النفس في هذا السجن ، فلقد كان الواقع خارج السجن مؤلماً بعد الهزيمة العربية ، وفي مثل هذه الظروف يبدو السجن مريحاً للنفس الى أبعد الحدود +

في سنة ١٩٦٩ اعتقل محمود درويش للسرة الحاسية في سجن « الجلسة » وذلك بعد أن نسف الفدائيون عدة بيوت في حيفا + وقد بقي محمود درويش في السجن مدة عشرين يوماً +

وقد تعلم محمود درويش في الأرض المحتلة حتى نال الشهادة الثانوية فقط ، وتعرض في ذلك الوقت لكل ما يتعرض له العرب من ضغوط شديدة حتى لا يتموا تعليمهم الجامعي وحتى يظل مستواهم العلمي والثقافي ضعيفا الى أبعد الحدود + وبعد أن أتم محمود دراسته عاش على الكتابة للصحف العربية التي تصدر في اسرائيل ، وكان دخله من هذه الكتابات ضئيلاً مما يفرض عليه نوعاً من الضيق المادى الشديد ، وقد ظل فترة من الوقت يعيش في حجرة في بيت اميل توما وهو أحد الشخصيات العربية المعروفة في الأرض المحتلة ، واميل توما هو أحد كتاب الأرض المحتلة وأحد السياسيين البارزين فيها وله كتاب بالعربية عن « جمال عبد الناصر ».

ويوجد هذا البيت في شارع عباس في « جبل الكرمل » وهو حي من
أحياء حيفا .

وقد عمل محمود درويش في جريدة « الاتحاد » ومجلة « الجديد »
بوهما من صحف الحزب الشيوعي في اسرائيل ، وهو الحزب الذي يفسح
للأقلام العربية فرصة التعبير في صحفه المختلفة ، وسوف نعود الى موقف
الحزب الشيوعي من عرب الأرض المحتلة في فصل آخر من فصول هذا
الكتاب . كذلك اشترك محمود في تحرير مجلة « الفجر » وهي مجلة
أدبية عربية أصدرها حزب « المابام » وكان يرأس تحريرها يهودى مصرى
اسمه « يوسف واشظ » كما ينطقه العرب أو « فاشد » كما ينطقه
اليهود .

وقد سمعت الكثير عن محمود درويش قبل أن ألتقى به في القاهرة
في فبراير عام ١٩٧١ ، ولقد وجدت ما سمعته عنه حقيقيا الى أبعد الحدود
سواء من ناحية الأوصاف الشكلية أو من ناحية الطبيعة النفسية .
فمحمود نحيف وطويل ، سريع الحركة في شىء من العصبية ، مرتفع
الرأس في اعتزاز لا يشوبه غرور ، وهو يتميز في علاقاته الشخصية
بالعاطفية والاخلاص الشديد لمن تربطهم به أى علاقة انسانية ، وصوت
محمود في الحديث خفيض هادىء ، أما القاؤه للشعر فيبلغ درجة عالية من
الجودة والأصالة والقدرة على التأثير الوجدانى ، ومحمود درويش على
علاقة صداقة بزميله الشاعر سميح القاسم ، ومحمود محب للغناء والموسيقى
وهو يحب صوت فيروز وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ، كما أنه كثير
الاستماع الى الموسيقى الغربية ، وهو يحب النكتة المصرية ويتابع البرامج
الفكاهية في الاذاعات المصرية المختلفة .

ومن الصفات الشخصية لمحمود درويش أنه خجول جدا ، ومن عاداته
أنه يسهر كثيرا ويجد في الليل متعته ، وفرصته للتفكير والتأمل .
وكل هذه الصفات تثبت ما في شخصية محمود من بساطة وحب طبيعى

عميق للحياة •

ويحدثنا عن محمود درويش الكاتب اللبناني الأستاذ محمود كروب وذلك بعد لقائه معه في مهرجان الشباب في صوفيا سنة ١٩٦٨ فيقول : « شاب نحيل ، وجه أليف جدا ، قريب الى القلب » ... ويتحدث عنه الشاعر الفلسطيني الكبير أبو سلمى فيقول : « لا تسئل عن سرورى عندما كنت في صالة فندق يوهانس هوف في برلين أصيل ذات يوم من شهر أيار - مايو - ١٩٦٩ وإذا بأحد شبابتنا اسماعيل عبد الرحمن الذى هجر الشعر وأصبح دكتورا في الاقتصاد يدخل الى صالة الفندق ومعه شاب في مقتبل العمر نحيل الجسم يمسك بيده نظاراته ، اقترب منى والابتسامة تملأ وجهه ، ولكن الحزن يترقرق من عينيه ، صحت : محمود درويش ! وعانقته كأنتى أعانق بلادى فلسطين كلها ... بلادى القائمة وراء الدموع والأسلاك » •

وبعض أشعار محمود درويش تتم ترجمته محرفة الى العبرية حيث يتعرض هذا الشعر دائما لهجوم النقاد اليهود باعتباره « داعية الى اثاره الجماهير وعاملا على تدمير الدولة الاسرائيلية » ، ويتحدث محمود درويش عن موقف اسرائيل من الأدب العربى فى الأرض المحتلة فيقول :

« ان الجهل التام بالأدب العربى فى اسرائيل ينبع من اعتبارات وحسابات سياسية بحتة ، مع أنه ليس من المقبول الحديث عن السياسة والشعر فى سياق واحد • ان أولئك الذين يسيطرون على أدوات الدعاية والنشر لا يريدون أن يقدموا للقارىء العبرى حقيقة الأدب العربى فى البلاد • انهم يخافون مضمون هذا الأدب • ويدركون أن وصول هذا الأدب الى الجمهور اليهودى سيحطم حواجز • فالأدب العربى هنا هو أدب احتجاج على وضع غير عادل ، كآى أدب احتجاج آخر فى العالم • وإذا كان من المتاح لى أن أستعير مثلا من أدب الاحتجاج العالمى المعاصر ، فسأذكر اسم « جيمس بلودوين » الزنجى الأمريكى ، صاحب الكتاب المثير « لا أحد

يعرف اسمى » ، وأعرف أن رنين هذا الكتاب ليس عذبا على الأذن الاسرائيلية بسبب تشابهه الواقعين ، ولكن القلائل ... القلائل جدا في المجتمع الاسرائيلي هم الذين يعرفون أسماءنا » *

وهناك بعض الخطوط الأخرى في شخصية محمود درويش وحياته ، فقد كان من عاداته أن يحضر « الأعراس العربية » كلما أتاحت له فرصة لذلك باعتبارها مكانا للتجمع الجماهيري ، وباعتبارها مصدرا من مصادر الفن الشعبى العربى الذى يحبه ويتأثر به ويتعلم منه . ولقد عاش محمود درويش فى الأرض المحتلة معدا أو شبه معدم ، حيث كان مصدره الوحيد للحياة هو قلمه ، وكانت كتاباته وفنه عصفورين سجينين فى الأرض المحتلة ... ومن هنا فقد كان يعيش على الكفاف فى ظل القيود التى فرضتها عليه السلطات الاسرائيلية حيث وقف محمود درويش من هذه السلطات دائما موقف المناضل والثائر . ويقول محمود درويش فى ذلك ان شعار السلطة : « اكتب ماتشاء وادفع الثمن الذى نشاء ... والثمن هو : فقدان العمل ... الاضطهاد ... الحجز فى البيت ... السجن ... » وهكذا أصدرت السلطات العسكرية أوامر الإقامة الاجبارية ضد الشعراء العرب التقدميين بدون استثناء » ... ويقول محمود درويش أيضا « لا يستطيع الشاعر أو صاحب المطبعة ، أن يطبع أى مجموعة شعرية الا بعد أن تجهيزها المراقبة العسكرية » *

هذه كلها صور من صور الاضطهاد الذى لقيه محمود درويش ، ويلقاه كل فنان ومناضل بل وكل مواطن فى الأرض المحتلة *

وقد سافر محمود درويش الى موسكو للدراسة الجامعية فى أوائل سنة ١٩٧٠ واستطاع أن يحصل على هذه البعثة الدراسية بعد جهد كبير من خلال الحزب الشيوعى الاسرائيلي ، ثم جاء محمود درويش بعد ذلك الى القاهرة فى فبراير ١٩٧١ حيث يقيم بها الآن ويعمل فيها . وقد أثار وصول محمود درويش موجة من الاعتراض على موقفه وهو الأمر الذى سوف نناقشه فى فصل قادم من فصول الكتاب *

ملاح فنية

ماذا يقرأ محمود درويش وكيف تكونت ثقافته الفنية ؟
مما لا شك فيه أن الثقافة الأدبية الأولى لمحمود درويش مستمدة من
الوسط الأدبي العربي الذي يعيش فيه الشاعر ويعيش فيه جميع
المثقفين العرب في الأرض المحتلة ، وأبرز عناصر التأثير في هذا الوسط
الأدبي يتمثل في الجيل الأول من الأدباء العرب المقيمين في الارض المحتلة
وهو ينتسب الى أبناء ثورة ١٩٣٦ في فلسطين ، وكل أبناء هذا الجيل من
ذوى الثقافة العربية القديمة ، ومن ذوى الايمان العميق بالتراث العربي
القديم والمتابعين أيضا للثقافة العربية المعاصرة عند روادها من أمثال طه
حسين والعقاد والمازني وغيرهم ، ونستطيع هنا أن نذكر بعض الأسماء من
بين هؤلاء الأدباء العرب الذين واصلوا حياتهم في الأرض المحتلة ، وكانوا
على صلة قوية بالثقافة العربية القديمة وبالثقافة العربية المعاصرة حتى قيام
دولة اسرائيل ، ومن هؤلاء حنا أبو حنا المدرس باحدى المدارس الثانوية
العربية بالقدس وجبرا تقولا وله كتاب عن « أبي العلاء المعري » وغيرهما
من أبناء هذا الجيل الذي ينتسب الى جيل الأدباء والمثقفين في ثورة ١٩٣٦
هؤلاء جميعا كانوا على معرفة قوية بالتراث العربي القديم ، وعلى ادراك
واضح لقيمته وأهميته ، كما أن هؤلاء كانوا يعرفون جيدا كل ما يتصل
بفن شعراء ثورة ١٩٣٦ الكبار من أمثال ابراهيم طوقان وعبد الرحيم
محمود وأبو سلمى . وقد قرأ محمود درويش الشعر العربي القديم ودرسه

وتعرف عليه بصورة دقيقة واضحة واتصل بهؤلاء الرجال العارفين بالتراث العربي القديم وقد قدمه أحدهم وهو حنا أبو حنا في ديوانه الثاني الذى صدر سنة ١٩٦٤ حيث يقول حنا في هذا التقديم القصير :

« محمود درويش فن أنبته جذع زيتونتنا الخالدة منذ ثلاثة وعشرين عاما ... أ ورق وأثمر فأنشد للجذع الراسخ ، والأرض الملوحة والطيـر المهاجر .. يحتضن أعشاشه ويدعو أسرابه الى العودة » .

ويشير محمود درويش الى بدايته الأدبية في حديثه الذى أدلى به الى مجلة الطريق اللبنانية فيقول :

« لا أذكر متى بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر . ولا أذكر الحافر المباشر لكتابة « القصيدة الأولى » وان كنت أذكر أنى حاولت فى سن مبكرة كتابة « قصيدة طويلة » عن عودتى الى الوطن ، حدثت فيها حذو المعلقة فأتارت سخرية الكبار ودهشة الصغار » ... اذن فقد كانت بداية محمود درويش هى تقليد الشعر الكلاسيكى فى أقدم نماذجه وأشهرها وهى المعلقة ، ولكن هذه مرحلة من مراحل الطفولة الفنية ، وعلى الشاعر أن يتجاوزها بسرعة اذا كانت لديه موهبة حقيقية ، ومحمود درويش صاحب موهبة أصيلة ، وشخصية فنية مستقلة ... ولذلك فقد استطاع بفضل هذه الموهبة أن يتجاوز بسرعة مرحلة التقليد للشعر القديم وهى مرحلة لا بد منها ، ولكنه أخذ من معرفته بالشعر القديم ومن معاشرته الفنية العميقة له صفات فنية ظلت مرتبطة بشعره حتى اليوم ، وأهم ما استفاده محمود من قراءته الدقيقة للشعر القديم أنه - أولا - يملك معرفة واسعة باللغة العربية ، وبمفرداتها اللغوية والشعرية ، فمحمود درويش يمتاز امتيازاً واضحاً فى شعره بترائه اللغوى ، فهو لا يتعثر فى البحث عن ألفاظه ولا يفتعل اشتقاقات لغوية غريبة ، ولا يحس القارئ فى قصائده بما نحسه أحيانا عند شعراء آخرين تكون تجاربهم الروحية أكبر من قدرتهم على التعبير ، وينشأ عن ذلك نوع من الاضطراب الفنى

لا شك فيه ، ولعل من أبرز مظاهر السلبية والضعف في الشعر الجديد ، أن عددا من شعراء المدرسة الجديدة يعانون من هذا الفقر في قاموسهم الشعري ، فيضطربون ويرتبكون ويقصرون تقصيرا واضحا في تعبيرهم . هذا العيب لا نجده عند محمود درويش الا في حالات قليلة ، فلدى محمود قدرة واضحة على أن يجعل من قصيدته عملا فنيا قادرا على استيعاب تجاربه النفسية والروحية ... بلا تعثر في أذيال العجز التعبيري الذي يشيع عند الشعراء المتوسطين في مدرسة الشعر الجديد ، بل وأحيانا عند بعض الشعراء المعروفين في هذه المدرسة ، ومن الملاحظ عموما أن معظم الشعراء الممتازين من شعراء المدرسة الجديدة قد بدأوا حياتهم بكتابة الشعر التقليدي « العمودي » بصورة جيدة مثل : السياب وصلاح عبد الصبور وحجازي والبياتي ومعين بسيسو والفيتوري وأدونيس و خليل حاوي وغيرهم . بل ان بعض هؤلاء الشعراء يلجأ أحيانا الى الشكل التقليدي في بعض تجاربه الجديدة ، مثل تجربة السياب المشهورة في قصيدته عن « بورسعيد » ، ففي هذه القصيدة الممتازة يجمع السياب بين الشكلين القديم والجديد معا . حيث كان في المواقف الغنائية التي يعبر فيها عن مشاعره تعبيرا مباشرا صريحا واضحا ، يلجأ الى الشكل القديم للقصيدة العربية ، بينما كان يلجأ الى الشكل الجديد في المواقف الوصفية التي يريد أن يجسد فيها موقفا أو يرسم صورة انسانية . وقصيدة السياب تبدأ في مقطعها الأول بداية كلاسيكية واضحة حيث يقول :

يا حاصد النار من أشلاء قتلاتنا

منك الضحايا وان كانوا ضحايانا

وبعد ما يقرب من ثلاثين بيتا تمضى كلها على الشكل التقليدي في وحدة البيت والقافية ينتقل السياب الى الشكل الجديد ، حيث يتحول من الغنائية والتعبير المباشر عن عواطفه ومشاعره الى رسم الصور والمواقف الانسانية المختلفة فيقول عن « ضحايا بورسعيد » :

من أيما رثه ، من أي قيثار
تنهل أشعاري ؟
من غابة النار ؟
أم من عويل الصبايا بين أحجار ؟
من أي أحداق طفل فيك تغتصب ؟
من أي خبز وماء فيك ما صلبوا ؟
من أيما شرفة ؟ من أيما دار ؟
تنهل أشعاري
كالثأر ؟
كالنور في رايات ثوار ؟
من مائك السهران أوتاري
أم من برجك الهاري
يكي دما من جرح بحار ؟

وهكذا يجسج السياب وهو رائد من رواد الشعر الجديد بين الشكل القديم والشكل الجديد في قصيدة واحدة ، وذلك عندما يحتاج الى التنويع في موقفه الوجداني والفني ، فهو يريد أن يصور المأساة حيث يتيح الشعر الجديد هذا اللون من التصوير بصورة أفضل ، ويريد في نفس الوقت أن يعبر عن مشاعره وانفعالاته بصورة مباشرة يحتملها الشكل القديم أفضل من غيره .

هذا نموذج واحد يؤكد تلك الفكرة الصحيحة التي تقول بأن الشاعر الجديد لابد أن يمتد بجذوره الى الشكل الشعري القديم حتى يتمكن من تطوير شعره في الاتجاه الجديد تطويرا عميقا يقوم على أسس سليمة . ومثل هذه التجارب الفنية تؤكد بوضوح أن الشاعر الجديد القادر على أن يعبر عن نفسه تعبيرا شعريا أصيلا من خلال الشكل الجديد للقصيدة ، لابد أن يكون على معرفة عميقة بالشكل القديم ، وعلى مقدرة أيضا في

التعبير من خلال هذا الشكل ، لأن الشاعر الجديد لا يستطيع أن يتجاوز الشكل القديم الا اذا كان على مسرفة غير قليلة به .
وقد توفرت لمحمود درويش هذه المعرفة الدقيقة بالشعر القديم ، بل اننا نجده حتى في دواوينه الأخيرة التي تمثل أعلى درجات النضج الفني عنده يفاجئنا بقصائد كتبها بالطريقة الشعرية القديمة رغم ما فيها من صور عصرية جديدة ، وان كان هذا اللون من الشعر التقليدي يكثر على وجه الخصوص في مرحلته الأولى ، حيث نجد معظم ديوانه الأول « عصافير بلا أجنحة » مكتوباً بالشكل التقليدي ، وفي ديوانه الثاني « أوراق الزيتون » نجد نماذج متعددة من القصائد المكتوبة بالشكل التقليدي ... حيث يقول على سبيل المثال في قصيدة « حينا » .. وهي قصيدة قصيرة أنقلها هنا بأكملها :

حينا بلبل ... وشوكة وردة
فافرشي لى على الجراح مخدة
لا أحب النشيد الا شهيدا
ينزف الروح والحشا بمودة
عندما رف في الفضاء جناحي
وهبطت البستان ... أعشق وردة
كنت لا أسأل الطريق رجوعا
ليس في الحب أى درب لعودة

على أن محمود درويش لم يستفد من معرفته الكبيرة بالشعر القديم ذلك القاموس الشعرى الغنى فقط ، ولا ذلك التدريب الفنى الواسع في عالم القصيدة القديمة على استخدام اللغة وحسب ، بل لقد استفاد محمود درويش ميزة أخرى واضحة هي تلك « الموسيقى الشعرية » اللامعة التي نجدها في شعره ... فعالم القصيدة العربية القديمة ملئ بالموسيقى ، وعلى الأخص ما نسميه عادة « بالموسيقى الخارجية » ... الموسيقى العالية التي

تنبع من القافية الواحدة واختيار الألفاظ ذات الرنين الخاص وما الى ذلك ، ولعل هذه الموسيقى الخارجية كانت من الأسباب التي تثير اعتراض النقاد الحديث على الشعر القديم ... لأن الموسيقى الخارجية حالت في كثير من الأحيان بين الشعر القديم وبين توفير «موسيقى داخلية» تخاطب الوجدان والقلب قبل أن تخاطب الأذن ... على أننا لسنا هنا في مجال مناقشة هذه القضية الهامة بالنسبة للشعر القديم ، ولكن الذي يعيننا في هذه الدراسة هو شعر محمود درويش ... لقد استفاد محمود درويش من دراسته للشعر القديم قدرته في المحافظة على الموسيقى الشعرية في قصائده المختلفة .. على أنه لم يستسلم للموسيقى الخارجية التي كانت كفيلة بأن تربطه نهائيا بالمدرسة الشعرية القديمة .

لقد استطاع محمود درويش أن يصل الى توازن دقيق واضح بين « الموسيقى الخارجية » و « الموسيقى الداخلية » ... فصوت قصيدته مسموع ، وهو بذلك يتخلص من ذلك الخفوت الموسيقى والفتور النغمي الذي نلاحظه في عدد غير قليل من نماذج الشعر الجديد ، والذي يدفع النقاد الى وصف هذه النماذج بأنها « ثرية » ... أى أنها قريبة الى النثر بقدر بعدها عن الشعر . ولكننا بالنسبة لشعر محمود نحس بموسيقى هذا الشعر احساسا واضحا ، على أن محمود درويش كصاحب موهبة أصيلة يستطيع أن يتنبه في اللحظة الفنية المناسبة الى أن الموسيقى في القصيدة لا ينبغي أن تعلو الى حد الضجيج والصخب ، بحيث تفقد عذوبة الهمس وقدرته على النفاذ الى القلب والتأثير على الوجدان ... ان محمود درويش في كثير من قصائده يوازن بالفن والاحساس الوجداني الصادق بين الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية ، ويجعل من قصيدته عملا فنيا مسموعا بالأذن والقلب معا . ونستطيع أن نتبين القدرة الموسيقية الواضحة عند محمود درويش دون عناء كبير ... نستطيع أن نلمسها في أى قصيدة فختارها دون بحث طويل أو تردد ... ولنقرأ على سبيل المثال هذه المقاطع

من قصيدة محمود درويش عن الشاعر الأسباني العظيم جازثيا لوركا
الذى قتله الفاشست من أنصار فرانكو خلال الثورة الاسبانية سنة
١٩٣٦ :

عازف الجيتار فى الليل يطوف الطرقات .
ويغنى فى الخفاء .
وبأشعارك يا لوركا ، يلم الصدقات .
من عيون البؤساء .

نسى النسيان أن يمشى على ضوء دمك .
فاكتست بالدم بسمات القمر .
عن أناشيد العجر

أجمل البلدان اسبانيا ، ولوركا يا صبايا .
أجمل الفتيان فيها .
يا مغنى النار ! وزع للملايين شظايا .
اتنا من عابديها .

هذا شعر يتوفر فيه كل ما يحتاجه الشعر الجميل من قدرة موسيقية ..
فنحن فى هذه المقاطع الشعرية نحس بصوت الموسيقى احساسا مطربا
متصلا غير متقطع ولا متهافت ، فالإيقاع هنا مستمر : كأن الشاعر عازف ،
ناى يقدم لحنه فى نفس واحد قوى ... طويل ومديد ، ومن ناحية أخرى
فاننا بقدر ما نحس بالطرب الموسيقى فى هذه القصيدة فنحن نحس بنوع
آخر من النعم ... نعم هامس سهل ، وهو نغم داخلى عميق يتسرب الى
الوجدان فى نعومة وقوة وقدرة على التأثير .. ان القصيدة تطربنا وتشجعنا
وتدفعنا الى حالة من الخدر والصوفية ... خدر كالأحلام .. رصوفية مثل
صوفية الشهداء التى تختلط أمامها كل الحدود ، فلا يكون فرق بين الموت
والحياة .

هذه بعض الثمار التي خرج بها محمود من احتكاك موهبته الجديدة بالشعر العربي القديم ... على أننا بعد ذلك اذا أردنا أن نتابع نمو محمود درويش فسوف نجد أمامنا عدة مراحل متتالية :

المرحلة الأولى هي مرحلة الطفولة الفنية ويمثلها ديوانه الأول « عصفير بلا أجنحة » وقد صدر هذا الديوان سنة ١٩٦٠ وكان عمر الشاعر تسعة عشر عاما ، ويقول محمود درويش نفسه عن هذا الديوان « انه ديوان لا يستحق الوقوف أمامه . كنت في سنتي الدراسية الأخيرة ، وكان الديوان تعبيراً عن محاولات غير متبلورة » . ورغم أن هذا الديوان يكشف عن بعض الحرارة والصدق والطموح الفكري والفني في طفولة محمود درويش الفنية إلا أنه ديوان ضعيف بكل معنى الكلمة ، فالتعبير فيه مباشر بل وساذج في كثير من الأحيان ، والتجارب والأفكار فيه محدودة ، والصور الشعرية قائمة على الزخرف والبلاغة الخارجية والرغبة في تقديم لون من ألوان الابهار اللفظي ، ومحمود درويش في هذا الديوان متأثر أشد التأثير بشعر نزار قباني ، والأصح أن نقول ان الشاعر لم يكن متأثراً بنزار بقدر ما كان يتلده ، كما ان موسيقى هذا الديوان عالية وخطابية وزاعقة بصورة واضحة ، ففي احدي قصائد هذا الديوان وعنوانها « قصة الطفل اللاجيء الذي لا يعرف بلاده » يقول :

حدثوني ! عنى أذكر شيئا
من بلادي ... عابقا في شفتيا
أنا لا أذكر « أيام هنا »
فأعيدوها صدى في أذنيا
وأعيدوها نداء صارخا
في شفاهي وأعيدوها دويا
أنا لا أذكرها ، لكنها

أمل يفرق دنيا أبويا
ووميض ساخن في أعين
صمتها ، ينطق شعرا عبقريا

وقصائد الديوان تتفاوت في مستواها ولكنها تدور كلها في هذا الاطار الشعري الضيق ... اطار الطفولة والرومانسية الهشة .. اطار اللفظ البراق والموسيقى الصاخبة والتجربة الروحية المحدودة . فالوطن عنده يتحرك في اطار صور عامة لكل وطن معرض للظلم والاضطهاد ، فهو وطن مغيب ومجروح ، وملء بألوان الظلم والأسى والألم . أما الحب فهو يدور عنده في اطار عواطف الرومانسيين التقليديين من أسى وحرمان وجراح ، وهو أحيانا يتأثر بلغة الرومانسيين الحسينيين عندما يحاول أن يعبر عن الحب الجسدي العنيف ولكن بنفس الأسلوب الرومانسي المباشر الساذج حيث يقول مثلا في احدى قصائد الديوان وعنوانها « خذنى اليك » :

اضغط على جسدى الطرى فقد نضجت
وادعك شفاهى - هكذا - انى احترقت
ادعك ! بلى .. بحرارة .. انى كبرت
خذنى اليك !

شعري تسل به ... ولا تحرم يديك
والجأ الى نهدين شمعيين قد بكيا عليك
طف أين شئت وحيث شاء لك الهوى
انى لديك
انى أذوب على يديك
خذنى اليك

وفي هذا المقطع نموذج آخر من نماذج مرحلة الطفولة الفنية عند محمود درويش في ديوانه عصافير بلا أجنحة ... انها طفولة الفن والتجربة حيث كان الشاعر في بدايته الأولى يحاول أن يعبر عن نفسه ويحاول أن ينطلق

... ولكنه كان أشبه بالعصفور الصغير الذى لا يكاد يقوى على الطيران إلى آفاق الفن الرحبة الواسعة . على أننا مع كل هذه العيوب الواضحة لانعدام فى هذا الديوان لمسة العذوبة والحرارة والثورة والتمرد ، وهى اللمسة التى توحى بأن صاحب الديوان هو زهرة غير ناضجة فى الفن والفكر والحياة ولكنها زهرة يمكن أن تنضج وتتألق .

ولعل مما يكشف شيئاً عن نفسية محمود فى هذه المرحلة ، مرحلة الطفولة الفنية ، وعما كانت تمتلىء به هذه النفس من انفعالات تأثرة واحساس عميق بمأساة الوطن والشعب منذ البداية تلك المقدمة التى كتبها محمود درويش لديوانه الأول « عصفير بلا أجنحة » والتى يصور لنا فيها نفسيته التى تعيش فى جو من التمرد وتحيط بحياتها المعنوية بقاموس واحد تتناثر حوله ألفاظ الثورة والغضب والتأثر وما إلى ذلك . فرغم أنه كان صبياً آنذاك إلا أن كثيراً من رؤاه الأولى الغامضة كانت تتصل بأحلام وطنه وشعبه فى معظم الأحوال .

يقول محمود درويش فى هذه المقدمة التى تأثرت بأسلوبه العام وهو الأسلوب الرومانسى الملىء بالمبالغات العاطفية والزخرفة والتزييق اللفظى : « كان ذلك فى شهرى آب وأيلول «أغسطس وسبتمبر» من هذا العام ، آخر الصيف وأول الخريف ، الصيف الحار الفضولى ... الصيف الفنان .. الصيف الثائر القوى الذى يحمل فى قلبه تموز « يوليو » الثائر البطل ... الذى يقول لكل جرح : اثار ! اثار ! لقد أذن الفجر وسبح ! والخريف .. الفنان الحزين اليأس ... الذى ذوى وأسلم أمره وكل أيامه ولحظاته للريح تبعثرها بلا حساب »

« فى آب وأيلول ازدحمت الدنيا على بابى : الحب والعذاب والكفاح والثورة والألم والنداء المبحوح القادم البعيد .. البعيد .. وازدحمت فى أعصابى الانفعالات والاهتزازات المتلاحقة باستمرار وغرابة ... وأصبت بمرض .. أو سموه اذا شئتم اغماعة الكتابة ... كان على أن ألبى النداء «مرغماً»

ثم يقول عن قصائد الديوان :

« انها تقديس الحرية ، وتقبل الشهداء ، وتغنى على شباك جيبى ، وتبكي مع شريد ضائع ... »

ثم يتحدث عن عنوان الديوان عصفير بلا أجنحة :

« ... عصفير خلقت لتطير وتحلق ، وتدوخ اللحظات فى تحليقها ، شاء لها القدر أن تقص أجنحتها ، وتنزف دمها على شوك الألم والحرمان هدرًا وبلا نهاية ... لتعقد على قصيدة حمراء على فم التاريخ الانسانى المعذب ... »

وشاء لها القدر أن تدرى الزوابع أعشاشها وتنتف ريشها الذى خلق ليجتمع ويكون جناحا فما كان .. عصفير خلقت لتغنى على الينايع الزرقاء بانطلاق أزرق شاء لها القدر أن تضيق ، وتتحرق بلا سماء وبدون أرض وراء أسلاك الصمت والضياع !

لهذه العصفير أغنى وأتألم وأثور ولأجلها أصرخ فى وجه الشمس كى تحيك من خيوط أشعتها ريشا لها لتنتطق غدا من جديد ! ... ولغد هذه العصفير أقدم قصائدى ... »

هذه هى الروح العامة لديوان محمود درويش الأول « عصفير بلا أجنحة » وهى الروح التى تصورها المقدمة وتجسدها أشعار الديوان نفسه .. انها روح الشاعر فى خطوته الأولى .. فى رومانسيته الحادة .. فى « مراهقته » الفنية والفكرية والعاطفية .

ولعل أكبر أهمية لهذا الديوان الأول أنه يكشف لنا عن الخطوة الواسعة التى خطاها محمود درويش من هذا الديوان الى ديوانه الثانى « أوراق الزيتون » ففى هذا الديوان الثانى درجة عالية من النضج الفنى والوجدانى ، ولعل هذا الديوان الثانى يكون هو البداية الفنية الصحيحة لمحمود درويش ، والروح الغالبة على هذا الديوان هى الروح الغنائية ، التى يعبر فيها محمود درويش عن نفسه وتجاربه تعبيرًا مباشرًا ، سواء كان

ذلك في شعره الجديد ، أو في شعره الذى يلتزم فيه الشكل القديم .
ولعل هذا الصوت الغنائى ، الذى يعبر تعبيراً مباشراً بل وخطائياً
وصاخباً في بعض الأحيان يبدو لنا بوضوح في هذه القصيدة الأولى من
قصائد « أوراق الزيتون » واسم هذه القصيدة « بطاقة هوية » ويقول
فيها :

سجل !
أنا عربى
ورقم بطاقتى خمسون ألف !
وأطفالى ثمانية
وتاسعهم ... سيأتى بعد صيف !
فهل تغضب ؟!
سجل
أنا عربى
وأعمل مع رفاق الكدح في محجر
أسل لهم رغيف الخبز
والأثواب والدفتر
من الصخر ...
ولا أتوسل الصدقات من بابك
ولا أصغر
أمام بلاط أعتابك
فهل تغضب ؟
سجل
أنا عربى !

وتمضى القصيدة بهذه الصورة المباشرة الخطائية الصارخة التى تذكرنا
بالهتاف في المظاهرات ، وتذكرنا أيضاً بالشعر العربى القديم وخاصة شعر

« الفخر » : في صوته المرتفع وموسيقاه الصاخبة وخطابته العالية ...
وكلما قرأت قصيدة « بطاقة هوية » لمحمود درويش تذكرت - على وجه
الخصوص - قصيدة الشاعر الجاهلي « عمرو بن كلثوم » المشهورة التي
يقول فيها :

ألا لا يجهل أحد علينا
فنجهل فوق جل الجاهلينا
أو يقول :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبابر ساجدينا
أو يقول :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينا

والتشابه هنا بين قصيدة محمود درويش وقصيدة عمرو بن كلثوم هو
طبعاً تشابه في الروح الخطائية المباشرة والصوت المرتفع الصارخ ، أى أنه
تشابه في الموقف الفنى والوجداني وليس في الموقف الفكرى . فموقف
محمود درويش في قصيدته ليس فيه أى نزعة من نزعات التعالى والقبلية
المتعصبة التي نجدها عند عمرو بن كلثوم ... ان موقف محمود درويش
هو موقف الدفاع عن النفس ضد الاضطهاد الذي تصبه اسرائيل على
الانسان العربى في الأرض المحتلة حيث تحاول أن تقلل من مستوى العربى
وتثبت أنه انسان متخلف ... بلا قيمة ولا أهمية .

هذه هي المرحلة الأولى في شعر محمود درويش بعد طفولته الفنية
.. انها مرحلة التأثر بالشعر العربى القديم وخصائصه الفنية المختلفة ،
على أن هذه المرحلة تطورت بعد ذلك الى مرحلة ثانية ، هي المرحلة
التي خضع محمود درويش فيها للتأثير شعراء المهجر وشعراء المدرسة
الرومانسية الناضجة من أمثال على محمود طه وإبراهيم ناجى . وشعراء

المهجر والشعراء الرومانسيون يمثلون مدرسة واحدة واتجاهاً متشابهاً في الشعر العربي المعاصر . وقد استفاد محمود درويش من هذه المدرسة الرومانسية ما جعل شعره أكثر رقة وأقل مباشرة وأغنى بالعدوية والأحلام مما كنا نجده في المرحلة السابقة حيث الخطابة والصوت الصاخب المرتفع . ومحمود درويش يسمى هذه المرحلة في حياته الفنية باسم مرحلة « الثوري الخالم » فهو يعبر عن ثورته على الأوضاع التي يعانيها العربي في الأرض المحتلة ، سواء كانت هذه الأوضاع معنوية أو مادية ، ولكن تعبيره كان عاماً ، أشبه بالحلم الغامض المبهم ، وذلك هو شأن الشعراء الرومانسيين الذين كان يقرأ لهم ويتأثر بهم في تلك المرحلة من حياته الفنية ، فهو يرفض الواقع الذي يعيش فيه ، ويتحدث عن واقع يحلم به ، ولكنه لا يفصح عن عناصر الواقع الذي يرفضه ولا عن عناصر الواقع الجديد الذي يتمناه ... انه يحلم ويعبر عن أحلامه في قصائد غنائية رقيقة وفيها قدر من التعبير المباشر أيضاً ، ولعل هذه الأبيات تكشف لنا عن ذلك العنصر الغنائي الثوري الخالم عند محمود درويش في هذه المرحلة حيث يقول في قصيدة له بعنوان « عن انسان » :

يا دامي العينين والكفين

ان الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل

نيرون مات ، ولم تمت روما

بعينها تقاتل

وجوب سنبله تجف

ستملاً الوادي سنابل

ولعلنا أيضاً نجد هذه الروح الرومانسية الغنائية الخالمة في هذه القصيدة التي يسميها الشاعر باسم « نشيد ما » وهي قصيدة وطنية ولكنها تكتسب

بغلالة رقيقة من «الغزل» ... فالحببية التى يخاطبها الشاعر هنا هى وطنه ،
وتلك صورة تملأ شعره فى كل مراحلہ المختلفة فهو يهوى ذلك التوحيد
والمزج بين صورة الحبيبة وصورة الوطن ... يقول محمود درويش فى هذه
القصيدة :

عسل شفاهك واليدان
كأسا خمور
للآخرين

الدوح مرحة ، وحرش السنديان
مشط صغير
للآخرين
وحرير صدرك ، والندى ، والأقحوان
فرش وثير
للآخرين

وأنا على أسوارك السوداء ساهد
عطش الرمال أنا .. وأعصاب المواقد
من يوصد الأبواب دونى
أى طاغ ؟.. أى مارد
سأحب شهدك
رغم أن الشهد يسكب فى كؤوس الآخرين
يا نحلة

ماقبلت الا شفاه الياسمين !
فالصور هنا هى الصور الشعرية التى تملأ خيال الشعراء الرومانسيين
الحالمين .. فالصدر الحريرى، والندى والأقحوان والسهد ، والشهد .. كلها

صور تتردد في أشعار الرومانسيين وتسيطر على وجدانهم ، وقد سيطرت على محمود درويش أيضا في هذه المرحلة من حياته الفنية .

والواقع أن ديوان « أوراق الزيتون » لا يتوقف عند حدود « الغنائية » المباشرة السهلة البسيطة ، فالشاعر يتقدم في بعض قصائد هذا الديوان الى مستوى أرفع من التصوير الفني والوجداني لتجاربه ، فيقلل من نزعة التعبير المباشر ويحاول أن يقدم صورا ومواقف ونماذج انسانية مختلفة يوحى اليها من خلالها بما يريد أن يقول ، كل ذلك دون أن يلجأ الى الرمز الغامض البعيد عن الوضوح ، كذلك فانه في عدد كبير من قصائد « أوراق الزيتون » يضع حدا لتدفقه العاطفي حتى يمنع عن شعره ماعرفناه عنه في مرحلة الطفولة الفنية من استطراد ومبالغات انه هنا يختار صوره الفنية ويختار التعبير عن انفعالاته العميقة فقط دون انفعالاته السريعة والسطحية والمليئة بالضجيج والصخب ، وهذا مقطع من قصيدة له بعنوان « رسالة من المنفى » ، يعبر فيه عن مأساة « الفلسطينيين المشردين » ، ورغم وضوح فكرة القصيدة ، الا أن الشاعر هنا يتجنب تماما ذلك اللون من التعبير المباشر ، ويلجأ الى رسم صورة انسانية تجسد لنا علاقات هذا الفلسطيني المشردين بأسرته ، وتكشف مشاعره الحزينة ومواقف حياته اليومية التي تملأ عليه الاحساس بالغربة في كل لحظة وتؤكد لديه هذا الاحساس ، وهذا النوع من التصوير أنضج وأعمق من أى تعبير مباشر ، فنحن هنا أمام صورة انسانية قريبة الى القلب .. كأننا في لقاء وجداني خاص مع انسان يشكو في صدق وبساطة أحزانه وآلام قلبه .. فننصت له وتؤثر به ولا تفارقنا ذكراه حتى بعد أن يرحل ، ويكون تأثيره النفسي عادة أعمق وأبقى من أى انسان صاحب يعرض شكواه في حدة وعنف وصوت عال مرتفع .. ويعرض هذه الشكوى بأسلوب مزخرف مفتعل يهدف فيه الى الاثارة العاطفية بأى صورة من الصور .

يقول محمود درويش في هذا المقطع من قصيدته « رسالة من المنفى »

على لسان ذلك المشرّد الفلسطيني :

الليل - يا أمّاه - ذئب جائع سفاح

يطارد الغريب كيفما مضى

ويفتح الآفاق للأشباح

وغابة الصفصاف لم تزل تعانق الرياح

ماذا جنينا نحن يا أمّاه ؟

حتى نموت مرتين

فمرة نموت في الحياة

ومرة نموت عند الموت

هل تعلمين ما الذى يملأنى بكاء ؟

هوى مرضت ليلة .. وهد جسمى الداء !

هل يذكر المساء

مهاجرا أتى هنا .. ولم يعد الى الوطن ؟

هل يذكر المساء

مهاجرا مات بلا كفن ؟

ياغابة الصفصاف . هل ستذكرين

أن الذى رموه تحت ظلك الحزين

- كأي شيء ميت - انسان ؟

هل تذكرين أننى انسان

وتحفظين جثتى من سطوة الغربان ؟

أمّاه يا أمّاه

لمن كتبت هذه الأوراق

أى يريد ذاهب يحملها ؟

سدت طريق البر والبحار والآفاق ..

وأنت يا أمّاه

ووالدى ، واخوتي ، والأهل ، والرفاق ...

لعلكم أحياء

لعلكم أموات

لعلكم مثلى بلا عنوان

ماقيمة الانسان

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان

ما قيمة الانسان ؟

ولو توقفنا قليلا أمام هذه القصيدة فسوف نجد فيها نموذجا للنضج الشعري الذى حققه محمود درويش فى ديوانه أوراق الزيتون .. ان المشرّد الفلسطيني هنا يخاطب الأم : رمز الحنان والرعاية العاطفية ، والشاعر يضع صورة الأم فى مقابل صور القسوة التى يلقاها ذلك الانسان الفلسطيني ، وهذا التقابل بين صورة الأم وقسوة الواقع هو تقابل فنى دقيق يؤدى هدفه بصورة واضحة : « الليل - يا أمه - ذئب جائع سفاح » .. فالأم فى جانب والليل : ذلك الذئب الجائع السفاح فى جانب آخر ، الحنان المفقود البعيد فى جانب والقسوة الواقعية المريرة التى يعانىها الفلسطيني معاناة يومية فى جانب آخر . انها لمسة صادقة عميقة : أن يتذكر الانسان أمه كلما مسه الشقاء والعذاب والضنى . ولقد كان اختيار الشاعر أن يكون الخطاب موجها الى الأم ، والشكوى موجهة اليها اختيارا سليما وعميقا من الناحية الفنية والوجدانية معا . وهاهو الشاعر يواصل تصويره لمرارة المشرّد فيروى لنا عذابه عندما يمرض فى احدى الليالى ولا يجد من يرعاه . انها صورة بالغة التأثير ، خاصة اذا نظرنا اليها فى اطارها الرئيسى ، وهو أنها صورة من أحزان الابن وغرخته يضعها الشاعر أمام قلب الأم .. كيف يمكن أن تكون أحزان الأم عندما تتصور أن ابنها الغريب مريض وبلا أدنى رعاية ؟ ان قلبها يتمزق .. وقلبنا نحن يتمزق مع هذا القلب الحنون . وتكتمل

الصورة المفجعة عندما يقول لنا الشاعر ان هذه الأحزان التى يكتبها ذلك الانسان الفلسطيني فى رسالته لن تصل الى أمه ، لأن الرسائل الفلسطينية لاتصل من العربية الى الأرض المحتلة .. انها رسائل ممنوعة ومحزنة . فكأن هذا الانسان المشرى يحتل وحده آلامه دون أن يجد حتى تلك السلى فى كتابتها الى أمه فى الأرض البعيدة ... أرض الوطن

واذا تركنا ديوان أوراق الزيتون نجد أن محمود درويش ينتقل بعد ذلك الى مرحلة جديدة هى أنضج مراحل الفنية على الإطلاق وهى تلك التى تمثل على أفضل صورة فى دواوينه الثلاثة الأخيرة : « عاشق من فلسطين » و « آخر الليل » و « العاصير تموت فى الليل » .. فمحمود درويش هنا يزداد ثقافة فنية ، ويزداد قدرة على التعبير ويكشف أفضل مواهبه وأكثرها عمقا وأصالة . انه يصل هنا الى القدرة على « الإيحاء » وهذه القدرة الفنية تحل محل التعبير المباشر الصريح المكشوف ، والإيحاء الفنى أكثر تأثيرا على القلب من التعبير المباشر ، كما أنه أغنى فى قيمته الفنية من هذا التعبير المباشر أيضا .

وفى هذه المرحلة يتأثر محمود درويش تأثرا واضحا بالشعر الجديد وأعلامه من الشعراء العرب المعاصرين كالسياب ، والبياتى وعبد الصبور وحجازى وأدونيس وحوى وغيرهم . وفى هذه المرحلة الجديدة من فن محمود درويش نلتقى بعدد من الخصائص الفنية البارزة .

أولى هذه الخصائص أن محمود لم يعد الا فى القليل النادر يعبر عن تجاربه تعبيرا مباشرا ، بل انه هنا يلجأ الى الرمز ، والأساطير ، والقصة الشعرية للتعبير عن تجاربه المختلفة . على أن محمود درويش رغم لجوئه الى الرموز والأساطير والقصص الشعرية فى بناء قصائده فانه لم يفقد وضوحه الفنى ، ذلك لأنه شاعر مرتبط بالجماهير العربية فى الأرض المحتلة وهو يريد لشعره أن يصل الى هذه الجماهير ويساهم فى التعبير عنها ،

ولا يمكن أن يصل الشعر الغامض الى الجماهير ، ولا يمكن أن يؤثر عليها ومن هنا حرص محمود على الوضوح في اطار رموزه المختلفة ، وحرص على أن تكون رموزه بعيدة كل البعد عن التعقيد الفني الذي قد يجعل من القصيدة في النهاية متعة للدارسين والباحثين وهواة كشف الألغاز وتفسيرها والاختلاف حولها ، أما الجمهور الكبير فلا يجد في مثل هذا التعقيد أى غداء فنى ، ومحمود درويش واع كل الوعى لهذه القضية ولذلك فهو يقول « الرمز عندى ، كما أراه ، ليس مبهما . ان من الممكن اكتشافه بسرعة ، هو أولا وأخيرا بديل للتعبير المباشر »

على أن هناك سببا آخر يشير اليه محمود درويش ويقف وراء لجوئه الى الرمز في شعره ، وذلك هو محاولة التعبير عن تجاربه بعيدا عن سطوة الرقابة السياسية الاسرائيلية ، ان الرمز كما يقول محمود درويش نفسه يعتبر هنا نوعا من التحايل الفني في تصوير الواقع وتخطي الرقابة السياسية الاسرائيلية .

على أن محمود درويش رغم حرصه على درجة من الوضوح الفني في اطار رموزه المختلفة قد لجأ أحيانا الى نوع من الغموض الصوفي يظهر بوضوح في عدد من قصائد الديوان الأخير : العصافير تموت في الجليل . وسنعود في الفصل القادم الى مناقشة هذا النوع من أنواع الغموض في شعر محمود الأخير .

على أن محمود درويش لم يهرب - في جميع الأحوال - من موضوعه الرئيس الذي يملأ عليه وجدانه وشعره ، بحيث نستطيع أن نقول دون أن نخشى الخطأ : ان كل شعر محمود درويش يتصل بموضوع أساسى واحد هو وطنه وجرحه فلسطين .

والرموز المختلفة التى لجأ اليها محمود درويش تساعد الفنان الشاب على الوصول بشعره الى درجة عالية من التأثير الوجداني والفنى .. دون أن تجعل من شعره عالما معتما قاتما بعيدا عن الفهم . ونستطيع أن نقف

أمام قصيدة محمود درويش « القتل رقم ٤٨ » وهى جزء من قصيدته الطويلة « أزهار الدم » المنشورة فى ديوان « آخر الليل » وهى القصيدة التى كتبها عن مجزرة « كفر قاسم » - التى أشرنا إليها فى فصل سابق - حيث قام الجنود الاسرائيليون بقتل ما يقرب من خمسين عربيا من قرية « كفر قاسم » فى ساعات قليلة .. وهذا القتل رقم ٤٨ هو أحد القتلى العرب الذين سقطوا فى تلك المجزرة .. يقول محمود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد .. وقمر .

وهو ملقى ميتا ، فوق حجر

وجدوا علبة كبريت ، وتصريح سفر

وعلى ساعده الغض نقوش

قبلته أمه .. وبكت عاما عليه

بعد عام ، نبت العوسج فى عينيه

واشتد الظلام

عندما شب أخوه

ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة

حبسوه .. لم يكن يحمل تصريح سفر

انه يحمل فى الشارع صندوق عفونة

وصناديق آخر

آه أطفال بلادى

هكذا مات القمر

فالرموز هنا ليست معقدة ولا مغلقة أمام الفهم .. عندما يصور الشاعر لنا هذا القتل وفى صدره « قنديل ورد .. وقمر » فهو يقول لنا : انه كان انسانا طيبا يحمل عطر الحب فى قلبه ويحمل المشاعر النبيلة ولا يطوى نفسه على أحقاد سوداء أو أفكار شريرة .. وعندما يقول الشاعر فى آخر

القصيدة « آه أطفال بلادي ، هكذا مات القمر » فهو يقول لنا بلغة الصور الفنية « ... لقد وقعت المأساة وتمت » فليس موت القمر ، رمز النور والجمال والتفاؤل والاشراق ، الا تجسيدها لوقوع المأساة في حياة المواطنين العرب الذين تعرضوا لمجزرة كفر قاسم ، وهم أنفسهم نموذج لغيرهم من المواطنين العرب في بقية الأرض المحتلة .

على أن هذه الرموز في النهاية هي أبسط درجات الرمز ، لأنها رموز تعتمد على بعض الصور الفنية الجزئية مثل « موت القمر » أو « قنديل النور في صدر القتيل » أو ما إلى ذلك ، ولكن الرمز الفني بصورته العميقة حقا هو ذلك الذي يعتمد على الصورة الشاملة التي يقوم عليها بناء هذه القصيدة نفسها .. فتصوير القتيل على أنه إنسان طيب بسيط .. عامل مكافح ، يكتمل لدينا من داخل القصيدة فهو « .. ملقى ، ميتا فوق حجر » وقد وجدوا معه « علبة كبريت وتصريح سفر » و « على ساعده الغض نقوش » .. بهذه الصور الجزئية الموجزة يقدم لنا الشاعر لوحة كاملة مؤثرة لذلك الشهيد الذي سقط ضحية العدوان وهو لا يملك شيئا .. لا يملك ثروة ولا سلاحا وانما « علبة كبريت وتصريح سفر » ! وتلك صورة انسانية رائعة استطاع محمود درويش أن يرسمها لنا بعمق فني ، واستطاع أن يجعل منها صورة مشحونة بالعاطفة والقدرة على التأثير .

ثم يقدم لنا الشاعر بعد ذلك صورة أخرى : « أخو » القتيل « الذي مضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة » فجسسه لأنه لم يكن يحمل معه « تصريح سفر » ! ..

يا للتناقض : كان أخوه الأكبر يحمل تصريح سفر فقتلوه ! أما الذي لا يحمل تصريح سفر فمصييره الحبس ! .. وتلك كلها جزئيات تصل بنا في نهاية الأمر الى الصورة الكلية الشاملة .. صورة الاضطهاد الاسرائيلي الخالي من أى لمحة انسانية بالنسبة للمواطنين العرب .

هذا هو ما نلتقى به في المرحلة الفنية الأخيرة لمحمود درويش: الرمز الشفاف الخالي من التعقيد ، ثم التجسيد الانساني للتجربة ، فبدلاً من أن يحدثنا محمود درويش حديثاً مباشراً وعاماً عن الشهداء فهو يرسم لنا صورة انسانية عميقة « للقتيل رقم ٤٨ » .

من ناحية أخرى نجد أن محمود درويش في مرحلته الفنية الجديدة كثيراً ما يعتمد على « الحوار » ، ونحن نجد في شعره في كثير من الأحيان « صوتين » يسيطران على القصيدة لا صوتاً واحداً . وهذان الصوتان يكشفان دائماً عن « مقدرة مسرحية » عند محمود درويش فلو أتاحت له الظروف أن يكتب مسرحيات شعرية لقدم شيئاً له قيمة ولا شك ، ومحمود درويش نفسه يقول « اننى مشبع بالرغبة في كتابة مسرحية شعرية » .. والحق أنه يملك كثيراً من عناصر الفن المسرحي الجيد .

ومن أبرز القصائد التي تقدم لنا هذين الصوتين في شعر محمود درويش قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر » ثم الجزء الثاني من هذه القصيدة وعنوانه « ملاحظة على الأغنية » ففي هذه القصيدة صوتان : صوت صبي صغير يضور أحواله وأحوال أهله في غضب بل وفي يأس . ثم صوت آخر يرد عليه ، ونحن لانعرف بالتحديد من صاحب الصوت الثاني ، هل هو صوت الأب ، أو صوت الشاعر .. أو هو صوت مجهول المصدر ، ولكن هذا الصوت الثاني على أى حال هو صوت الأمل ، صوت المستقبل .. وهو رد على الصوت الأول ، صوت اليأس

يقول الصوت الأول ، صوت الصبي اليأس الحزين :

هل لكل الناس في كل مكان

أذرع تطلع خبزاً وأماناً

ونشيداً وطنياً ؟

فلماذا يا أبى نأكل غصن السنديان

ونعنى ، خلصة ، شعراً شجياً ؟

يا أبى ، نحن بخير وأمان
 بين أحضان الصليب الأحمر !
 وفي هذا الحديث ، نبرة يأس وسخرية واحساس عميق بالمرارة .. ثم
 يواصل الصبى بعد ذلك حديثه فيقول :
 وأنا أحلم بالحلوى وحبات الزبيب
 فى دكاكين الصليب الأحمر
 حرموني من أراجيح النهار
 عجنوا بالوحدل خبزي .. ورموشى بالغبار
 أخذوا منى حصانى الخشبي
 جعلوني أحمل الأثقال عن ظهر أبى !
 هذا هو صوت المرارة واليأس ، ولكن القصيدة تحمل إلينا صوتا آخر.
 هو صوت الأمل الذى يرد على الصوت الأول ويعترض عليه :
 أخذوا منك الحصان الخشبي
 أخذوا ، لا بأس ، ظل الكوكب

يا صبى !
 يازهرة البركان ، يانبض يدي
 اننى أبصر فى عينيك ميلاد الغد

أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
 فتحوا جرحا .. ليعطوك صباح
 هدموا بيتا لكى تبني وطن !
 حسن هذا ... حسن

نحن أدرى بالشياطين التى تجعل من طفل نيبا
 قل مع القائل .. لم أسألك عبثا هينا
 يا الهى ! اعطنى ظهرا قويا !

وهذان الصوتان في شعر محمود درويش نلتقى بهما في كثير من قصائده الجديدة .. انهما صوتان يتحاوران . وهما على الأغلب يمثلان ذلك الصراع الذى يدور فى نفس العربى المقيم فى داخل الأرض المحتلة : صوت التساؤل والشك واليأس وصوت الأمل واليقين بالنصر . ومحمود درويش يحمل ائينا من مواهبه الفنية ووجدانه الخصب ما يجعلنا نتعاطف بكل قوة مع الصوت الثانى .. صوت الأمل واليقين بالنصر .

ونجد نموذجا آخر لهذين الصوتين فى قصيدة « نشيد الرجال » فى ديوان « عاشق من فلسطين » ويقوم ببناء القصيدة كله على هذين الصوتين ، صوت التساؤل والحزن ، وصوت التفاؤل والتمرد والغضب وفى هذه القصيدة يجرى الشاعر حوارا مع المسيح ومحمد وجبقوق أحد أنبياء اليهود وكل هذه الشخصيات الدينية تمثل الدعوة الى الكفاح ومواجهة الألم والتمرد أما صوت الشاعر فهو يمثل صوت الانسان الحائر الذى يبحث عن طريق للمستقبل

... وفى هذا النشيد أيضا نجد مقطعا بعنوان « نشيد بنات طروادة » حيث يصور لنا الشاعر أحزان مدينة مهزومة ، ثم يعلق على هذا النشيد .. نشيد الهزيمة بدعوة الى النضال والثورة والنصر .

يقول « نشيد بنات طروادة » ، وطروادة هى رمز للمدينة المهزومة ، وللوطن المحتل ، ولأرض المغتصبة :

وداعا يا ليالى الطهر

يا أسوار طروادة

خرجنا من مخايبنا

الى أعراس غازينا

لنرقص فوق موت رجال طروادة

سبايا نحن ، نعطيهم بكارتنا

وما شاؤوا

لأنهم أشداء
 ونرقد في مضاجع قاتلى أبطال طروادة
 وداعا يا ليالى الطهر والأحلام
 يا ذكري أحبتنا
 سبائا نحن منذ اليوم
 من آثار طروادة
 وبعد هذا النشيد الحزين ، يرتفع صوت النشيد الآخر ، نشيد الثورة
 والتمرد بعنوان تعليق على النشيد :
 بلى ... أصغيت للنغم
 فلا تخضع لجناز الردى
 قيتارك المشدود
 من قاع المحيط لجهة القمم
 لئلا تجهض الأزهار والكبريت
 فوق قم
 سيزهر مرة طلعا وقنديلا
 وشعرا يصهر الفولاذ
 يرصف شارع النغم

 نعم أصغيت للنغم
 ولكنى ، تحريرت السنا فى الدمع
 لا ديمومة الظلم
 لنحرق ريشة الماضى
 ونعزف لحنا الرائد
 فمن عزمى
 ومن عزمك

ومن لحمى

ومن لحمك

نعبد شارع المستقبل الصاعد

وهكذا نجد هذين الصوتين يترددان كثيرا فى شعر محمود درويش
ليكشفنا لنا عن الصراع الذى يدور فى أعماقه وأعماق شعبه : بين التفاؤل
والتشاؤم ، بين اليأس والأمل فى المستقبل ، بين الاستسلام والتمرد
والثورة .. ودائما يرتفع صوت التفاؤل والثورة .. ودائما يعزف لحن
الأمل فى المستقبل . فى التحرر من الطغيان والظلم .

ومن ملامح هذه المرحلة الجديدة فى شعر محمود درويش أنه يعتد
أحيانا على الأغاني الشعبية ويسمد منها بعض العناصر الفنية فى بناء
قصيدته . فهو يبدأ قصيدته « موال » بمقطع من أغنية شعبية فلسطينية
تقول :

يما مويل الهوى

يما ... مويليا

ضرب الخناجر ولا

حكم الندل فيا

ثم يستمر محمود درويش بعد ذلك فى قصيدته مستفيدا من ذلك المقطع
من مقاطع الأغنية الشعبية استفادة فنية وفكرية معا ، ففي هذا المقطع الشعبى
تعبير عن « الكرامة والاحتمال والصبر » والقصيدة كلها تدور حول هذه
المعاني ، والشاعر يوحى إلينا أنه يستمد قوته وأمله وتفاؤله من تراث
عريق .. هو تراث شعبه فى الكفاح والمقاومة واحتمال المصاعب .

على أن محمود درويش لا يكثر من الاعتماد على التراث الشعبى والشعر
الشعبى عموما ، فقليل ما يستمد من هذا التراث عناصر فنية تساعد فى بناء
قصيدته . على عكس ما نجد عند زميله الشاعر سميح القاسم الذى يعتمد
على التراث الشعبى كثيرا .

ولكن محمود درويش يهتم بشيء آخر هو تسجيل صور الحياة الشعبية اليومية في شعره والاستفادة من هذه الصور استفادة عميقة في بناء قصائده وتقريبها من الوجدان الشعبى .. وتأكيد ما يؤمن به الشاعر من أنه يخدم بفنه قضية شعبية هى قضية العرب فى الأرض المحتلة .. وهم هؤلاء العرب الذين يعيشون حياة صعبة ويكافحون فى ظل ظروفهم القاسية كفاحا مريرا ، فهو يقول فى قصيدة « اعتذار » مصورا بعض أحلامه :

حلمت بعرس الطفولة
بعينين واسعتين حلمت
حلمت بذات الجديدة
حلمت بزيتونة لا تباع
ببعض قروش قليلة
وفى قصيدة قمر الشتاء يقول :

سألم جثتك الشهيدة
وأذيتها بالملح والكبريت
ثم أعبها
كالشاي .. كالخمر الرديئة .. كالقصيدة
ويقول فى قصيدة « مطر » :
الشارع الخلفى يجرفه المطر
من أين تعبر يا عجوز ؟
جمدت يدك على العصا
حتى الحجر

يصطك .. والشفة المعجوز
تشتى دعاء أبلها .. ماذا دهاه ؟
مازال يحمد ربه
ويموت من تحت المطر

وفي قصيدة « عنوان جديد » يقول :

تغير عنوان بيتي
وموعد أكلتي
ومقدار تبغى تغير
ولون ثيابي ووجهي وشكلي
وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى وأكبر
ورائحة الأرض : عطر
وطعم الطبيعة سكر !

فكما نرى فى النماذج السابقة ، نجد محمود يستخدم الكثير من الصور الشعبية .. صور الحياة اليومية .. فالزيتونة ، التى تباع بقروش قليلة ، والشاي والكبريت ، والتبغ ، والخمر الرديئة ، وعصا العجوز ودعاؤه . كل هذه صور من الحياة الشعبية اليومية ، يستخدمها محمود درويش كثيرا فى بناء قصائده المختلفة .

ان محمود يكثر من استخدام صور الحياة اليومية فى شعره ، وقد شاع استخدام هذه الصور فى الشعر الجديد .. ولكن محمود درويش لا يستخدم هذه الصور من باب التقليد لأسلوب فنى رائع ، بل انه يستخدم هذه الصور تعبيرا عن وجدانه الشعبى العميق وحساسيته الفنية للحياة اليومية وقدرته على التقاط الشعر الكامن فى هذه الحياة .

ومن الملامح الفنية لشخصية محمود درويش أنه يلجأ أحيانا الى ما يسمى « بالتداعى الحر » ... فهو ينطلق من صورة معينة ثم يستسلم لهذه الصورة فتقوده الى صور أخرى تنبع منها وتتصل بها .. يقول فى إحدى قصائده :

وكنت حديقتي ، وأنا غريب الدار

أدق الباب يا قلبي
على قلبي

يقوم الباب والشباك والأسمنت والأحجار !
فصورة الدار تستدعى وراءها صورة الباب ، ثم تستدعى صور الشباك
والأسمنت والأحجار . ولعل هذا « التداعى » يبدو أكثر وضوحا في
قصيدته عاشق من فلسطين ، فالصور تستدعى بعضها البعض ، ويسجلها
الشاعر كما تتوارد على خاطره ، وكما « تتوالد » : صورة بعد صورة .
يقول محمود في « عاشق من فلسطين » :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت
حملتك في دقاتى القديمة
نار أشعارى

فالصور المتلاحقة في هذا المقطع من القصيدة تعتمد اعتمادا واضحا
على التداعى ، « فالميلاد » يستدعى « الموت » و « الكلمات » تستدعى
الصمت ... ثم تتوالى الصور : العينان والوشم ، الأحلام والهم .. المنديل
والقدمان والجسم .. انها كلها صور متلاحقة تدل على ميل نفسى وفنى
الى الاعتماد على هذا « التداعى الحر » في بناء القصيدة ، حيث تولد
الصور الفنية وراء بعضها من خلال تيار وجدانى متدفق وعنيف ...
والتيار الوجدانى فى المقطع السابق من قصيدة عاشق من فلسطين هو
ولاشك ذلك اليقين العميق بأن كل ما حاوله الاحتلال الاسرائيلى من

ضغط وارهاب قد فشل تماما في الغاء صفة « الفلسطينية » عن حبيبه
التي هي في نفس الوقت أرضه ووطنه ... ولاشك أن هذا النوع من
التداعى الحر .. يكشف عن تدفق وجدانى عند الشاعر ولكنه يعرض
الشاعر لعيوب فنية أخرى سوف تتعرض لها في فصل آخر من فصول
الكتاب .

ومن ملامح محمود درويش الفنية والفكرية أيضا تعبيره المتكرر عن
حاجته وحاجتنا جميعا الى شعر جديد ، يتخلص من كل الأخطاء والعيوب
القديمة التى كنا ننكرها على شعرائنا ونرفضها منهم ... فهو يريد شعرا
مرتبطا كل الارتباط بالانسان وهموم الانسان وأحلام الانسان لا شعرا
تكون وظيفته هى الامتاع والترف والجمال الخارجى المجرد من أى وظيفة
انسانية ، ففى قصيدة له عنوانها « عن الشعر » يؤكد هذا المعنى الذى
يرفض أى وظيفة للفن تبحث عن الجمال الخارجى .. جمال الألفاظ والصور
الفنية ، لا جمال الوجدان وجمال الانسان ، يقول محمود فى هذه القصيدة :

أمس غنينا لنجم فوق غيمة
ولبدر قرب نجمة
وانغمسنا فى البكاء

أمس عائبنا الدوالى والقمر
والليالى ... والقدر
وتوددنا النساء

دقت الساعة والخيام يسكر
وعلى وقع أغانيه المخدر

قد ظللنا بؤساء

يا رفاقى الشعراء

نحن فى دنيا جديدة

مات ما فات ، فمن يكتب قصيدة

فى زمان الريح والذرة ،
يخلق أنبياء !

ثم يقول فى نفس القصيدة :
قصائدنا بلا لون
بلا طعم .. بلا صوت

إذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت
وان لم يفهم البسطا معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن ... للصمت !!

فهو يدعو بوضوح الى وظيفة انسانية للشعر ... تجعل جماله الفنى فى
خدمة الانسان وقضاياه الكبيرة وتجاربه الحساسة .. ولا تقف عند
حدود الجمال الخارجى والتترف والرفاهية الوجدانية .

وهو يحدد رسالته كشاعر فى مجتمعه المكافح تحديدا بديعا وعميقا
فى قصيدة له بعنوان « امرؤ القيس » .. يقارن فيها بين امرئ القيس
كشاعر قديم له رسالته الخاصة وبين الشاعر الجديد الذى يجعل منه
محمود درويش مثلا أعلى ويؤمن به وبرسالته .. يقول محمود فى هذه
القصيدة :

ليس لى قصر ، وما عرش أبى
غير فأس خشبية
لا أغنى مثلما غنيت تحت الكوكب
للخيول العربية
وتنادينى : تعال
ليس لى حان ، ولا عشر حسان
قدحى خال كجيبى والنساء
فى زمانى لا تحب الشعراء

اننى أدفع عن رأسى بطش الصولجان

وتنادينى : تعال

لقد اختلف العصر بين امرىء القيس ومحمود درويش .. والرسالة
اختلفت ووظيفة الفن مختلفة أيضا ... ولقد كان امرؤ القيس يقف على
الاطلال القديمة وقفة العاشق .. ولكن محمود درويش يقف على الاطلال
وقفة المناضل الوطنى الذى تهدمت دياره بيد الطغيان وتحولت الى ذكريات
وبقايا حياة .. ان الشاعر المناضل يشم فى هذه الاطلال على أرض فلسطين
أشياء كثيرة رائعة .. يشم فيها رائحة أرضه وحقوقه .. وهو لذلك يقول
لامرىء القيس :

وقفة الأطلال يا شاعرنا

رمدتنى ، فتلفت اليك

وتحسست يديك :

أعطنى من زادك الباقي ، لعلنى

أقطع الليل على أطلال دارى

ورماد النار فى موقد أهلى .

والخوابى ... والجرار !

لأناديك : تعال

لا تسلىنى :

كيف يضجى الكوخ قصرا

ونعيما ، حين يهدم ؟

لا تسلىنى ! ... أنت أدرى !

كل ما عندى اله ... حين أحرم !

هذه هى رسالة الشاعر الجديد كما يؤمن بها محمود درويش ... انها
رسالة الدفاع عن الديار التى حولها الطغيان الى اطلال .. وهى رسالة
الفنان الذى يؤمن بالانسان ويؤمن بأن كل شىء هو من أجل الانسان

... وأن الجمال والفن هما أيضا من أجل الانسان .

هذه بعض الملامح الفنية الرئيسية في شعر محمود درويش ... على أن محمود درويش هو في النهاية شاعر حساس يعيش في « حلم كبير » هو حلم « انتصار قضيته » المظلومة ، وهذا الحلم يفرض نفسه على صورة الفنية وعلى طريقته في التعبير ، فبالرغم من أنه شاعر يعبر عن قضية واقعية هي قضية العرب في الأرض المحتلة ، ويعبر عن هذه القضية على أساس عقيدته الاشتراكية الانسانية التي تدافع عن العاملين المنتجين في المجتمع والتي تطلب العدل لهؤلاء أولا وأخيرا .. رغم هذا كله فان محمود درويش كثيرا ما يترك الواقع ويرتفع فوقه بجناحيه ، ذلك لأن الواقع الذي يعيش فيه هو واقع مرير ، ولو استسلم الشاعر للتفكير الواقعي العادي لما وجد أملا ولا طريقا للخلاص ... ولكن محمود درويش يدرك بقلبه ، وبطريقة شبه صوفية أن قضية شعبه هي قضية عادلة ، وأن هذه القضية سوف تنتصر ... حتى لو لم تكن هناك الآن علامات قريبة أو ميسورة تدل على هذا النصر المنتظر ..

على أن في شعر محمود درويش بعض العيوب والأخطاء الفنية المختلفة ، وهذا ماسوف تتعرض له في فصل آخر من هذا الكتاب

الخموض والتصوف

يستحق أحدث ديوان أصدره محمود درويش في يونيو ١٩٧٠ أن تتوقف أمامه بعض الشيء ، فهذا الديوان يجسد لنا آخر مرحلة توصلت اليها شاعرية محمود درويش ، فبين سنة ١٩٦٠ حيث صدر الديوان الأول للشاعر وهو ديوان « عصافير بلا أجنحة » الى سنة ١٩٧٠ حيث صدر الديوان الأخير له وهو « العصافير تموت في الجليل » رحلة فنية خصبة عمرها المئادى عشر سنوات وعمرها الفني أكثر بكثير من عشر سنوات . فقد مر محمود درويش في خلال هذه الرحلة بدرجات متعددة من النمو والتطور .. بدأ في طفولته الفنية يكتب الشعر بصوت صارخ وتعبير مباشر وصور مزخرفة وألفاظ براقية ... كنا نشعر في تلك المرحلة بكل ألامعيب الطفولة في شعر محمود درويش .. انه — في شعره الأول — كالأطفال يدب بأقدامه ليشعرنا أنه موجود ... وهو يلبس الثياب المزركشة ويميل الى الألوان الزائقة ، انه هنا كالأطفال يريد كل ما يبهل الأنظار ويشد انتباه العابرين . ولكن محمود يتطور من طفولته تلك ليعيش في جو رومانسى حالم أكثر رقة وعذوبة وشفافية ، ثم يتطور من مرحلة الرومانسية الى الرمز الذى لا يسرف فى الغموض والتعقيد ، وتمتلىء قصيدته بنضج التكوين والتفكير ويتعدى عن الصخب والتعبير المباشر وعن كل ما يتصل بفن الطفولة أو فن المراهقة . وتبرز فى أشعاره مواقف انسانية خصبة ونماذج من البشر تدخل قلوبنا لتملأنا ايماناً بقضاياها التى هى فى آخر الأمر قضية واحدة ... قضية الانسان المظلوم والعدل الضائع والأرض المسروقة فى فلسطين .

فاذا وصلنا بعد هذه الرحلة الى ديوان « العصافير تموت فى الجليل » فاننا نلتقى بأرقى درجات الشعر عند محمود درويش . وقد حرص الشاعر

في هذا الديوان أيضا على أن تكون « العصفير » في عنوانه . كانت عصفير ديوانه الأول بلا أجنحة ، فهي لا تقوى على الطيران ، أما عصفيره الجديدة فانها تموت في الجليل ، والجليل هنا - جزء من فلسطين ولكنها أيضا رمز للكل ... لفلسطين المحنلة .

ماذا نجد في هذا الديوان ؟ ... ان أهم ما نلتقى به في هذه المجموعة من القصائد هو التركيز الشعري الدقيق ، لم يعد الشاعر هنا يسمح للكلمات باغرائه ، انه يختار وينتقى بدقة ، حتى تصبح الكلمات القليلة مليئة بالشعر الكثير ، ولنقف مثلا أمام هذا المقطع من قصيدة « غريب في مدينة بعيدة » حيث يقول الشاعر :

عندما كنت صغيرا

وجميلا

كانت الوردة دارى

والينابيع بطارى

صارت الوردة جرحا

والينابيع ظمأ

اننا لا نجد هنا أى استطراد أو محاولة للتزييق والزخرفة ... انه مقطع شعري ملىء بالتركيز الدقيق ، فالشاعر يحكى لنا حزنه وحزن شعبه في كلمات قليلة ولكنها غنية بالايحاء الشعري ... العالم الجميل الذى كان يعيش فيه طفولته تحول الى فردوس ضائع .. الورود فيه جراح ، والينابيع ظمأ . كانت الأشياء الصغيرة كبيرة فى الماضى وغنية وخصبة ، فالوردة دار وعالم ودنيا بأكملها ، والينبوع الصغير بحر . ففى الحياة السعيدة الحرة المطمئنة تكبر الأشياء وتتسع الدنيا وتصبح الأوراق أشجارا ، والهمسة سيمفونية ، وقطرات الماء أنهارا متدفقة . ولكن الألم والمرارة يقتلان كل شئ ويترجمانه الى لغة أخرى مختلفة فالورود الكثيرة تتحول الى أشواك جارحة والمياه المتدفقة تعنى ألوانا من الظمأ القاتل ...

ان قصة محمود درويش وشعبه مكثفة ومركزة أشد التركيز في هذا المقطع الشعري المكون من كلمات قليلة .

وفي قصيدة « أغنية لم يلحنها ميكس تيودوراكس » ... ذلك الموسيقار اليوناني الذي اعتقلته السلطات العسكرية في أثينا ... في هذه القصيدة يصور لنا الشاعر اختناق أثينا في ظل الحكم العسكري الاستبدادي :

في كل أمسية نخبيء في أثينا

قمرا واغنية ، ونؤوى باسمينا

قالت لنا الشرفات :

لا منديله يأتي

ولا أشواقه تأتي

ولا الطرقات تحترف الحينا

نامي ! هنا البوليس منتشر

هنا البوليس ، كالزيتون ، منتشر

طليقا في أثينا

... ..

الحب ممنوع

هنا الشرطي والقدر العتيق

تتكسر الأصنام ان أعلنت حبك

للعيون السود ،

قطاع الطريق

يتربصون بكل عاشقة

أثينا ... يا أثينا ... أين مولاتي ؟

— على السكين ترقص

جسمها أرض قديمة

ولحزنها وجهان :

وجه يابس يرتد للماضى
 ووجه خاض فى ليل الجريمة
 والحب ممنوع
 هنا الشرطى . واليونان عاشقة يتيمه
 غدها وموعدها شرع ضاع فى الماضى
 وحاضرها وليمة
 لعصابة تأتى ... وقطاع الطريق !

هنا شاعرية تعرف معنى التركيز الدقيق ، وتكثيف الایحاءات الفكرية والوجدانية الكبيرة العميقة فى كلمات قليلة وصور دقيقة راقية . ان المدينة المختنقة هنا ، والتي ليست هى أثينا وحدها ، بل هى رمز لكل أرض مجروحة ... هذه المدينة بأحزانها وهمومها تطل علينا بوضوح وقوة من خلال الصور التى يملأ بها الشاعر قصيدته ، يكفى أن نقرأ مطلع القصيدة حتى تتصور الرعب الكبير الذى يقبض على روح المدينة ويملاها بالحزن والقهر .. « فى كل أمسية ، نخبىء فى أثينا قمرا وأغنية . ونؤوى ياسميننا .. فكل شىء جميل هو متهم من بين المتهمين فى أثينا : القمر والأغانى والياسمين . وإذا كان كل هذا الجمال خائفا ومقهورا فى تلك المدينة ... اذن فالمدينة كلها مقهورة بكل من يعيش فوقها من البشر . والصورة تتضح لنا وتضىء أمامنا بخطوط وظلال أخرى دقيقة عميقة : « .. قطاع الطريق يتربصون بكل عاشقة » و « الحب ممنوع . هنا الشرطى .. واليونان عاشقة يتيمه » . كل هذه الصور تغنيننا عن مئات الكلمات والصور وتغنيننا عن أى استطراد أو أى شرح آخر للاضطهاد السياسى فى اليونان أو فى أى أرض محاصرة مظلومة . ان العشاق فى العادة يهمسون ، وهم يحملون على وجوههم قلق الهوى وهم العاطفة ... ولكن هذه المظاهر كلها تبدو عند محترقى الاستبداد السياسى نوعا من التآمر والتمرد ، فكل هامس متآمر ، وكل مهموم خارج على النظام ولذلك فهم ضد العشق ... ضد الحب . انهم

لا يعرفون العاطفة ، ولذلك فهم يتربصون بكل انسان قلق مهموم ...
ومادام قطاع الطريق هؤلاء يتربصون بكل عاشقة فان كل شىء فى المدينة
سئى وردىء وخارج من الحياة والجمال والاشراق والبهجة .. وتلك هى
أثينا ، أو فلسطين ، أو أنجولا أو أى وطن آخر مغلوب على أمره .

وعندما يريد الشاعر فى قصيدة أخرى أن يصور يوم الانتصار الذى
ينتظره ومنتظره معه شعبه وتنتظره المدينة المقهورة والحبيبة الحزينة ..
عندما يصور لنا هذا اليوم فانه يقول فى كلمات قليلة مليئة بالايحاء والتركيز
والنبض الانسانى :

عندما نرجع كالريح

الى منزلنا

حدقى فى جبهتى

تجدى الورد نخيلا

والينايع عرق

تجدينى مثلما كنت

صغيرا

وجميلا

فالمنزل هنا هو الوطن ، والعودة الى المنزل هى يوم الانتصار والتمرد
على الحزن والقهر ، والعودة كالريح تعنى العودة بالثورة والعنف لا العودة
بالابتهالات والآمال والأمانى والتوسلات ، والورد الذى يتحول الى نخيل
هو الجمال الذى يتحول الى ظل وطعام للفقراء العائدين ، وينايع العرق
هى كل قطرة تسقى الأرض أو تسقى الظامئين .. وهى قطرة ماء لم تهبط
على الناس كما تهبط المصادفات والمفاجآت بل جاءت بالعمل والتعب
والجراح .. وفى هذا اليوم المنصور « تجدينى مثلما كنت صغيرا وجميلا »
... ففى يوم النصر على القهر يعود الانسان الى براءته وطفولته وتعود
الدنيا الى وسامتها وعذوبتها وتبدو الأشياء كلها فى جمال الطفولة وبكارتها

الحلوة النيلة .

انها كلمات قليلة وصور مركزة ... ولكن ما أغناها بالشعر والايحاء
الوجداني العميق .

هذا التركيز الشديد الذى تمتلىء به قصائد ديوان « العصفير تموت
فى الجليل » هو الذى يعطى لهذا الديوان درجة عالية من الغنى الشعرى
والخصوبة الفنية . ففى كلمات قليلة وصور دقيقة يحملنا الفنان الى عالم
شعرى واسع خصب ملئ بالرؤى والأحلام والهموم والمعارك والمشاعر
الانسانية الأصيلة .

على أن هذا التركيز ليس هو وحده الذى يعطى لشاعرية محمود
درويش فى ديوانه الأخير قيمته وأهميته ونضجه الكبير ، فهناك أيضا نوع
خاص من « الغموض » فى هذا الديوان ... انه ليس الغموض السابق
الذى نجده عند محمود درويش فى مرحلته الرمزية والذى نجد
خير نموذج له فى ديوانه « آخر الليل » .. كلا ، هنا درجة أعلى من الغموض
... الضوء هنا أكثر خفوتا ، والعالم هنا خال من « الأدلاء » الذين يكشفون
لنا الطريق .. كل من يدخل هذا العالم عليه أن يكتشفه بنفسه ، وليس
هناك فرصة للاكتشاف عن طريق الحواس ... فالعين لا تكشف الطريق ،
ولا القدمان تمشيان فى منعطفات معروفة ، كل شئ هنا يعتمد على
الاحساس الوجداني ، على الحدس والبصيرة ... ولا بد للانسان لنكى
يفهم هذا العالم ويتجاوب معه ويقرأ لغته وإشارات ورموزه ، أن يكون
تقيا متجردا الى حد كبير من المنطق العادى ، والصور المادية العادية ...
على الانسان هنا أن يرى كل شئ ولو كان الظلام دامسا ، وعليه أن
يصل الى هدفه بلا دليل ، وعليه أن يفهم لغة الصمت ، وأن يتجهج وينطلق
بمشاعره الى حالة من حالات التجلى الكامل ... ولن يتم له شئ من ذلك
الا بقسوة تدريبيه لنفسه على النقاء والصفاء .

هذا هو عالم محمود درويش فى « العصفير تموت فى الجليل » ...

وهذا ما يقودنا الى معنى آخر ، هو أن محمود فى هذا الديوان لا يقف عند حدود الشاعر الثائر الذى عرفناه من قبل ... انه هنا : صوفى ، يعيش فى عالم التصوف ، وتترأى له أحلام المتصوفين وخيالاتهم الغامضة الرائعة التى لا يراها الا من صفت بصيرتهم وتطهرت وتخلصت من حدود الحواس العادية .. حاسة اللمس والبصر والسمع والتفكير المنطقى العادى ... هنا المادة غير مرئية والأصوات غير مسموعة ، والنور قابض فى قلب الظلام ، والبهجة الكاملة تنطلق من قلب الهم والحزن والمرارة ... فمن يقوى على هذا العالم غير المتصوفين ؟!

وهذه الصوفية عند محمود درويش ليس معناها التجرد من قضيته ، بل انه متصوف يحمل قضيته على كتفيه .. انه متصوف من أجل قضيته وفى ميدان هذه القضية . ان المتصوفين الدينيين يصلون الى حالات الوجد بعد أن يحسوا احساسا كاملا بأن المنطق العادى لا يكفى لتفسير العالم عندهم ، وبأن الحواس العادية لا تكفى لتبرير الوجود والأشياء ... انهم لا يقبلون ادراك عظمة الكون والخالق بالعقل ، ولا يستطيعون استيعاب التعقيد الذى تمتلئ به هذه الدنيا من خلال الحواس . ولذلك فهم ينطلقون من الأسر .. فلا يلتزمون بالحواس العادية ولا بالمنطق العادى ويبدأون فى ربط أنفسهم بحالة من حالات « الوصال الوجدانى » العميق مع كل شىء خفى فى هذه الدنيا ... ويحسون بعد أن تحرروا أنهم فهموا أكثر وعرفوا أكثر ووصلوا الى يقين لم يصلوا اليه فى دنيا العقل العادى والحواس العادية .

تلك هى نفسها الحالة الصوفية التى يعبر عنها محمود درويش ، بل ويعيشها فى ديوانه « العسايف تموت فى الجليل » ... انها صوفية تعتمد على منطق مشابه لصوفية المتدينين ، فالواقع الذى يعيشه الشاعر فيه كثير من الصعوبات والعقبات ، وربما لو استسلم الشاعر للمنطق العادى ، فاته سنوف ينتهى الى اليأس والاستسلام ... كيف يعود شعبه

الفلسطينى الى أرضه بعد أن خرج وتشرد وتمزق ؟ كيف تنتهى اسرائيل بعد أن حققت لنفسها كل هذه القوة ؟ .. كيف .. كيف .. كيف .. الخ هذه « الكيفيات » الكثيرة العديدة . ولكن الحياة لا تمضى بهذه الصورة فهناك شىء أكبر من المنطق وأعمق منه . وسوف يجد السياسيون والمفكرون تسميات عديدة هنا ... سوف يقول البعض ان هناك شيئاً أكبر وأبعد من الوقائع هو منطق التاريخ وحركة التاريخ . ولكن الشاعر يترك المنطق العادى ويتجاوز الظواهر الخارجية والتسميات المختلفة الى نوع من « الصوفية الثورية » ... فهو يعيش بهذا الايمان العامر بأن قضيته منتصرة لأنها عادلة ، وهو لا يعبأ الا ببرهان واحد هو « عدل قضيته » .

هذا الغموض الصوفى عند محمود درويش فى ديوانه الجديد تتفجر من خلاله ينباع رائعة للشعر ، وفى قصيدة « ضباب على المرأة » نلتقى بموقف من هذه المواقف الصوفية العميقة العذبة ، ولا نكاد نعثر فى هذه القصيدة على صورة تخضع للمنطق العادى ، انها صور مبشرة متناثرة ممزقة حائرة محيرة يجمعها جو واحد هو الجو الصوفى الغامض ، وتربط بين هذه الصور جميعاً روح هذا الصوفى الذى يعيش فى حالة من حالات « الوجد » وما يمنحه هذا الوجد للصوفى من عذاب وسعادة فى وقت واحد . وكل مقطع من مقاطع هذه القصيدة ينتهى بكلمة واحدة هى « ... وآه » ... وهذه التأوهات تملأ القصيدة بروح شفافة رقيقة من الشكوى والأنين والحنين ... وهى مشاعر تقترن بصعود الشاعر الى مستوى أعلى من الادراك الروحى والوجدانى للتجربة التى يعبر عنها .

يقول محمود فى هذه القصيدة الصوفية :

نعرف الآن جميع الأمكنة

نقتنى آثار موتانا

ولا نسمعهم

ونزيح الأزمنة

عن سرير الليلة الأولى ، وآه ..
 في حصار الدم والشمس
 يصير الانتظار
 لغة مهزومة

أُمى تنادينى ، ولا أبصرها تحت الغبار
 ويموت الماء في الغيم ، وآه ...

وفي مقطع آخر من هذه القصيدة يقول الصوفي الشاعر :
 بيتك الآن له عشر نوافذ
 وأنا أبحث عن باب
 ولا باب لبيتك
 والرياح ازدحمت مثل الصداقات التي
 تكثر في موسم موتك
 وأنا أبحث عن باب ، وآه ...

فالمصور هنا وفي كل أجزاء القصيدة لا تجمعها الا هذه الرؤية الصوفية
 للخلاص من المحنة ، وللحياة في الواقع الملىء بالآلام والجراح ... نآه
 المجروح الصامد تتكرر بعد كل مقطع والصور تزدحم على وجدانه من
 هنا وهناك ، وهي صور خالية من الوضوح ، تولد كلها من عالم شعري
 غامض له منطقته الخاص . ولكن الاحساس العام الذي نخرج به هو
 الاحساس الوجداني الصوفي ... احساس الاغتراب في العالم الواقعي ،
 والانتساب الى عالم آخر هو حلم الشاعر بواقع جديد يسوده العدل
 والطمأنينة .. ولكنه ليس ميسورا في اليد وليس ممكنا من خلال الحواس
 العادية ... فليولد اذن هذا العالم الجديد من دنيا التصوف الثوري الذي
 لا يعبأ بالحدود أو القيود ولا يقيم وزنا لوقائع الزمان والمكان .
 والصوفي مستبشر دائما ومتيقن مما يراه حتى لو كانت رؤاه غائبة
 عن الآخرين ، والصوفي أيضا لا يعبأ بما يعترى الجسد من عوارض مادية

حتى ولو كان الموت نفسه هو أحد هذه العوارض ... فالوجود الحقيقي
أبقى من كل العوارض المادية ... ان روح الأشياء والكائنات باقية ...
والموت انتقال من حال الى حال وهو حلول من شيء فى شيء آخر ...

وفى قصيدة بعنوان « آه ... عبد الله » يحدثنا الشاعر عن حياة شهيد
من الأرض المحتلة ... وحياة الشهيد ليست فى حياته ولكنها فى موته ،
فهو بعد أن مات عاش ، وبعد أن اختفى ظهر وتكلم ونطق بأقوال لا تفنى
ولا تزول :

قال عبد الله للجلاد :

جسمى كلمات ودوى

ضاع فيه الرعد

والبرق على السكين ،

والوالى قوى

هكذا الدنيا ...

وأنت الآن يا جلاد أقوى

ولد الله ...

وكان الشرطى

عادة لا يخرج الموتى الى النزهة

لكن صديقى

كان مفتونا بها ،

كل مساء

يتدلى جسمه كالغصن ، من كل الشقوق

وأنا أفتح شباكى

لكى يدخل عبد الله

كى يجمعنى بالأنبياء

هذه كلها رؤى متصوف شاعر ، فالملت يتنزه ، والشهيد عبد الله يجمع

شاعرنا بالأنبياء ، لأن الشهيد يرتقى من منزلة البشر العاديين الى منزلة أصحاب الرسالات ، وهو يدخل من الشباك كالعطر أو كالنسيم ، لأنه متحرر من قيود المادة وأشكالها ... والواقع فيه شرطى ووال ... وفيه الله أيضا . انها كلها صور لا يضبطها منطق العقل العادى ، ولكنها صور يلهمها : الوجد والتصوف والانطلاق من الرؤى التى تجاوزت حدود الكثافة المادية الى عالم الشفافية حيث يرى المتصوف كل ما يختفى فى هذا العالم من كنوز .

تلك هى روح الديوان الأخير لمحمود درويش : « العصفير تموت فى الجليل » .. وهى روح شاعريته فى مرحلتها الجديدة ، انها روح التركيز البالغ الدقيق والعموض الشفاف والصوفية التى ترى مآثره العيون والتى تتجاوز عالم الظاهر الى عالم الباطن والخفاء والصفاء والسر والكشوفات الروحانية الخصبه .

مع
الطبيعة

منحت الطبيعة فلسطين جمالا لا شك فيه ، وهناك بيت مشهور للشاعر
على محمود طه لعله لا ينطبق على بيئة طبيعية كما ينطبق على البيئة
الفلسطينية ، وفي هذا البيت يقول الشاعر :

لا تقل أخصب الثرى

فهنا أورك الحجر ***

فالبحر في فلسطين ليس حجرا عقيما لا ينبت ولا ينجب بل هو حجر
أخضر مثمر ، تنبت فيه أشجار الزيتون ، وتورق على قمم جباله أشجار
أخرى تتلألأ باللون الأخضر الساحر ، أما الأراضي الرملية في فلسطين ،
ففيها تنبت أشجار البرتقال والليمون ، حيث يمتلئ الهواء الفلسطيني
بعطر رائع يملأ القرى ويتسلل الى المدن *** وهكذا **** فقد أعطت
الطبيعة هذه البلاد كثيرا من لمساتها المليئة بالجمال والسحر والاشراق *

وفي ظل الطبيعة الفلسطينية ينطلق خيال الانسان الى عالم من الشعر
النقى الصافي ، ولذلك لم يكن من الغريب أن تكون هذه الأرض بالذات
مهذا لكثير من الشعراء والحكماء والأنبياء ، فالطبيعة الجميلة المتنوعة
تملأ القلب بالعواطف الكبيرة وتدفع العقل الى تأملات غنية خصبة ***
ومن بين أحضان الطبيعة الفلسطينية خرجت مزامير داود ، وهى نوع من
الشعر الذى تمتزج فيه العاطفة الحارة بالحكمة العاقلة ، وعلى أرض
فلسطين أيضا ولدت تأملات سليمان الحكيم فى الكون والانسان ، وعلى
نفس الارض ظهر نشيد الانشاد الذى سجلته التوراة ، ونشيد الانشاد هو
أروع قصيدة غزل عرفتها الآداب الانسانية القديمة ، ويرى كثير من الباحثين
أن هذه القصيدة الفريدة هى فى ظاهرها غزل بينما هى فى باطنها تصوف عميق

وشعر دينى أصيل . وعلى الأرض الفلسطينية أيضا ولد المسيح وولدت كلماته المليئة بالعدوثة والصفاء والروح الانسانية العميقة الشفافة .. فكأن الله قد جعل فلسطين بيئة طبيعية تنبت الليمون والبرتقال والزيتون كما تنبت الشعر والحكمة والجراح والأحزان الكبيرة .

وأى شاعر حساس يولد فى الأرض الفلسطينية لابد أن يتنبه بقلبه وعقله معا للطبيعة ، ولا يمكن لمثل هذا الشاعر أن يتجاهل البحر والرمل والصخور الخضراء والليالى القمرية الساحرة وحفيف الأوراق وعطر البرتقال والليمون *** لا يمكن للشاعر الموهوب الا أن يصغى الى هذه السيمفونية ويتأثر بها والا كان هناك نقص واضح وفادح فى ذوقه واحساسه بالحياة .

وشاعرنا محمود درويش ، ابن قرية البروة الفلسطينية هو شاعر حساس متفتح القلب والعقل ، وهو الى جانب ذلك شاعر محب لوطنه حبا صوفيا عميقا ، والمحبة العاشق هو أول القادرين على الاحساس بجمال حبيبه ، واكتشاف هذا الجمال . ولذلك فنحن نجد عند محمود درويش احساسا عميقا بالطبيعة الفلسطينية التى تنعكس على شعره بقوة ووضوح .

ولا شك أن نشأة محمود درويش قد عمقت احساسه بالطبيعة ، وعلاقته الوجدانية معها ، ذلك لأنه ولد فى قرية فلسطينية ، وعاش فترة طويلة من صباه فى هذه القرية ، والذين يعيشون فى القرية يحسون بالطبيعة أكثر من أهل المدينة ، حيث تلعب الطبيعة فى المدينة دورا ثانويا فى حياة الانسان ، وخاصة مع انتشار وسائل الحياة الحديثة التى تجعل من المدينة العصرية كيانا صناعيا لا طبيعيا ، فحيث يجد انسان القرية متعة تحت ظلال الأشجار وفى النسمات التى تهب منطلقة لا تعوفها عمارات شاهقة ولا زحام معقد ، نجد أن أهل المدينة يبحثون عن الأماكن المكيفة الهواء بأساليب صناعية ، ويتوارى القمر فى سماء المدينة أمام الأنوار والأضواء الصناعية ، ولكن القمر فى القرية يلعب دور البطولة ، ولذلك فأغلب الشعراء الذين

يعبرون عن الطبيعة ويصوروها في أشعارهم هم من أبناء الريف ، الذين عاشوا طويلا مع الطبيعة فتسربت الى نفوسهم واستطاعت أن تتمكن منهم كل التمكن .

على أن محمود درويش لم يقدم إلينا في شعره وصفا مجردا للطبيعة ، فهو من هذه الناحية بعيد تمام البعد عن « شعر الطبيعة » بهذا المعنى . فهناك شعراء كثيرون جعلوا الطبيعة موضوعا لهم ، يصوروها ، ويكتشفون أسرارها ، ويعبرون عن جمالها . ان الطبيعة في شعر هؤلاء هي غاية في ذاتها . ولكن محمود درويش لم يتخذ من الطبيعة في شعره موضوعا مستقلا ، ولم يجعل منها غاية جمالية يستغلها في فنه الشعري : مصورا لها مفتونا بها معبرا عما فيها من عناصر متناسقة أو غير متناسقة ، فالموضوع الأول والأكبر عند محمود درويش ، هو تجربته الانسانية الوطنية ، ومن خلال هذه التجربة تتحدد نظرته الى سائر الموضوعات الأخرى . وعلى رأس هذه الموضوعات التي يستغلها محمود درويش استغلالا فنيا كبيرا للتعبير عن تجربته تنقف الطبيعة في المقدمة . ان كل شعر محمود درويش تقريبا ينبع أولا وأخيرا من تجربته كفلسطيني عربي عاشق لوطنه متأثر الى حد بالغ العمق والحارة والحدة بمأساة هذا الوطن . لقد نطق محمود درويش بالشعر عندما أحس بالمأساة الفلسطينية ولمسها بوجدانه وعقله معا . هزته المأساة هزا عنيفا وملأت عليه يقظته ورؤى نومه ، وهاله ما فيها من عنف وقسوة ، فأصبحت مشاعره تغلى برفض ماجرى من ناحية وبالاصرار على تحقيق العدل الكامل بالنسبة لهذه القضية المظلومة في نفس الوقت .

هذه هي نفسية محمود درويش التي يصدر عنها كل إنتاجه الفني الغزير الحصب .

فالرؤية الوجدانية الأساسية عند محمود درويش هي رؤيته لمأساة وطنه وهي الرؤية التي تسيطر عليه سيطرة كاملة ، والتي يرى من خلالها

كل الموضوعات الأخرى وعلى رأسها « الطبيعة » + فهو يستخدم الطبيعة في شعره ليعبر من خلالها عن شيء أبعد منها هو رؤيته الخاصة لمأساة الوطن والانسان ، وهي الرؤية التي تسيطر عليه تمام السيطرة .

ومن النشأة الأولى لمحمود درويش في إحدى القرى الفلسطينية ، ومن الرؤية التي تسيطر على وجدانه جاءت أول ظاهرة تلتقي بها في كل مايكتبه عن الطبيعة + فالطبيعة في شعر محمود درويش ليست هي الجمال المجرد ، فهناك ارتباط دائم بين جمال الطبيعة وبين حاجة الانسان ومطالبه . فالفلاحون لا يفضلون « الورد » على « القمح » . ولا شك ان الباحثين عن الجمال المجرد سوف يفضلون الورد الواحدة بعطرها وجمالها على آلاف السنابل . ولكن القروي الذي يعيش في قلب الطبيعة ، ويدرك احتياجات الانسان في قريته ، انما يبحث عن معنى آخر للجمال ... هناك تكون السنبلة أجمل من الورد . لأن السنبلة تمدّه بحبة القمح التي يعيش منها ويواصل بفضلها حياته . ويبدو صوت الساقية أعذب من خرير أى مياه أخرى ، لأن صوت الساقية يرتبط بعملية كبيرة هي نمو الزرع وازدهار الثمار + يقول محمود درويش في قصيدة له عنوانها « عن

الصمود » :

انا نحب الورد

لكننا نحب القمح أكثر

ونحب عطر الورد

لكن السنابل منه أطهر

ان الشاعر يعبر في هذه الأبيات تعبيرا صريحا عن معنى الطبيعة في نظره ، فمعناها الأساسى يرتبط بعلاقتها مع الانسان ، أى ان الجانب الانسانى هو الذى يعنيه أولا وقبل كل شيء . ففى عالمه — ك فلسطينى — حيث الانسان العربى ضائع ومهدد بالآلا يجد لقمة خبز لأولاده ، تكون السنابل أكثر جمالا وسحرا وطهرا من أجمل ورود الأرض . ان سنبلة

القمح هي التي تملك أن تمنح الأطفال والرجال والنساء قدرة على الاستمرار في الحياة والتغلب على أحزانهم وفجائعهم الكثيرة ، انها تملك القدرة على أن تمسح الدموع والأحزان وتحمل الفرح والابتسام الى القلوب . ان المعنى الانساني لسنبلة القمح في مثل هذه الظروف القاهرة العصبية التي يعيش فيها العربي في فلسطين المحتلة هو الذي يعطيها قيمتها وجمالها وروعها في نظر الشاعر . ولنتصور قلب أم أو قلب أب وأمامهما طفل يتضور جوعا .. أى سعادة في الدنيا أعلى وأعرق من تلك السعادة التي تحملها الى قلوبهما سنبلة القمح ؟.. ان هذه السنبلة بالنسبة اليهما هي كل الجمال وكل السعادة . انها أروع ما في الحياة .

وهناك شيء آخر يرتبط بسنبلة القمح ويزيد في معناها الانساني ، فهذه السنبلة قد نمت ونضجت بعد أن وقف الانسان وراءها يكدح ويكافح ويمنحها من جهده وعرقه . فالسنبلة الواحدة تحمل معها قصة كفاح انساني حقيقي . ومن هنا يرى محمود درويش صورة الانسان وكفاحه في هذه السنبلة البسيطة . ذلك لأن الذي يعنى هذا الشاعر هو انسان بلاده ، وما أصابه من محنة كبيرة وأسى جارف مرير . فالشاعر يحمل مأساة هذا الانسان في قلبه ، ولا تهزه ظاهرة من ظواهر الطبيعة الا اذا كان لها علاقة بهذا الانسان ، سواء كانت هذه العلاقة هي احتياج الانسان الى هذه الظاهرة الطبيعية ، أو كانت تشير الى جهد الانسان الكامن وراء هذه الظاهرة الطبيعية . ومن هنا كان تفضيل الشاعر لسنبلة القمح على الورد وعطر الورد .

وليست المسألة هي أن الشاعر هنا يحمل نظرة « نفعية » ينظر بها الى الطبيعة ، بمعنى أنه لا يجب من ظواهر الطبيعة الا ما هو مفيد ونافع .. كلا .. ليست القضية هي تفضيل « المنفعة » على « الجمال » فالقضية على حقيقتها هي تفضيل النظرة الانسانية على النظرة المجردة . ومحمود درويش لا يقبل النظرة المجردة ، ولا يحتملها .. لأنه انساني تهمة التجارب

الانسانية في نظريته الى كل ظواهر الحياة . أهم مايعنيه ويستولى على
عواطفه واهتمامه هو الانسان ، وانسان بلاده المجروح الكادح المحزون
تالى وجه الخصوص .

يقول محمود درويش في نفس القصيدة التى تحدث فيها عن الورد
والقمح وهى قصيدة « عن الصمود » ، وفي هذه الفقرة بالذات يخاطب
الناس في بلاده :

فاحموا سنابلكم من الأعصار
بالقدم المسمر !

هاتوا السياج من الصدور
من الصدور فكيف يكسر ؟ ؟
النار تلتهم الحقول الضارعات
وأنت تسهر !

اقبض على عنق السنابل
مثلما عانقت خنجر
الأرض والفلاح والاصرار
قل لى : كيف تقهر
هذى الأقانيم الثلاثة
كيف تقهر ؟

وهكذا يرى الشاعر أن مصير وطنه ، ومصير الانسان في هذا الوطن
مرتبط أشد الارتباط بالدفاع عن السنابل ، وفي معانقتها كأنها خنجر
يخنى به الانسان نفسه من التحديات التى يوجهها اليه عدو شديد القسوة
والوحشية .

ويؤكد محمود درويش على ايمانه أولا وقبل كل شىء « بالعنصر
الانسانى » في الطبيعة وذلك في قصيدة أخرى بعنوان « الورد والقاموس »
وهى احدى قصائد ديوانه الرابع « آخر الليل » ، وقد كتب هذه القصيدة

بعد هزيمة ٥ يونيو التي لم تدفع به الى اليأس كما حدث لكثير من المثقفين العرب ، بل دفعته الى مزيد من الايمان بقضيته :
وليكن ..

لا بد لى أن أرفض الورد الذى
يأتى من القاموس
أو ديوان شعر .

ينبت الورد على ساعد فلاح
وفى قبضة عامل

ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر ...

وفى هذه الأبيات يؤكد محمود درويش أنه يرفض ذلك الشعر المزيف ،
الذى يهتم بجمال الطبيعة اهتماما شكليا دون أن يعرف حقيقة ما يعاينه
الانسان .

فالشاعر الذى يستمد الصور الجميلة من القواميس والكتب والخيالات
المجردة انما يكذب على الفن والناس ، ذلك لأن الجمال الحقيقى انما يعيش
مع كفاح الانسان ونضاله ، فالورد الحقيقى انما ينبت على ساعد الفلاح
أو فى قبضة عامل أو على جرح مقاتل أو على جبهة صخرة .. والشاعر
هنا يرفض الجمال الخارجى الزائف المقتل ، الذى لا يهتم بالحقيقة
الانسانية الأصيلة ، والشاعر هنا أيضا يهاجم هؤلاء الذين يحاولون خلق صور
مزركشة مزخرفة للحياة الحقيقية المليئة بالمعاناة ، فان مثل هذه الصور تزوير
فى تزوير ، والورد الذى تقدمه الينا هذه الصور لا يعطينا عطرا وانما
يعطينا سما زعافا لا جمال فيه ولا صدق ولا حياة .

وعندما يقول الشاعر « انه يرفض الورد الذى يأتى من القاموس » ،
فانما يقصد بذلك أنه يرفض الاعتماد على البلاغة القائمة على الخيال

والمستمدة من الكتب ، لأنه يؤمن بالفن الذى ينبع من الحياة ومن الواقع ،
من تجربة الانسان .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « موال » من ديوانه « آخر النيل » يؤكد ،
محمود درويش على العنصر الانسانى فى الطبيعة حيث يقول :

إذا خسرت الصديقة
فقدت طعم السنابل
وان فقدت الحديقة
ضاع حلم الحقيقة !

فوجود الانسان هو الذى يعطى للطبيعة قيمتها ومعناها وضعها ، وإذا
اختفى الانسان اختفى معنى الطبيعة عند الشاعر ، وربما كان العكس
صحيحا أيضا ، فلقاء الطبيعة والانسان هو الذى يخلق الحركة والحياة
والتوهج . ولا بد أن نلاحظ فى هذه الأبيات الأخيرة ذلك التعبير الجديد
الذى يقدمه الشاعر وهو تعبير « حلم الحقيقة » ، وليس هذا التعبير
تصغيرا للحقيقة أو تقليلا من شأنها ، ولكن الشاعر يرى فى الحقيقة قوة
مسيطرة عليه .. وكثيرا ما يعبر محمود درويش فى شعره — كما أشرنا
من قبل — عن سيطرة حلم كبير على حياته النفسية ، وهو حلم غير عابر ،
انه حلم لا يفارقه أبدا ، وهو يعيش فى هذا الحلم دائما ولا ينفصل عنه ،
والحلم هو حلم الحرية والخلاص من أزمة شعبه وأرضه والقضاء على التمزق
الذى يعاينه الوطن ويعاينه الأهل فى نفس الوقت . وهكذا .. عندما
تتحول الحقيقة الى حلم ثابت قوى فانها تكبر بذلك وتسيطر على روح
الشاعر ونفسيته سيطرة كاملة .

ولعلنا نزداد احساسا بالمعنى الانسانى الذى يراه محمود درويش فى
الطبيعة عندما نقرأ هذا البيت فى قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب
الأحمر » :

عندما تفرغ أكياس الطحين

يصبح البدر رغيفا في عيوني
 ثم يقول الشاعر في نفس القصيدة :
 يا أبى ! هل غابة الزيتون
 تحمينا اذا جاء المطر ؟
 وهل الأشجار تغنينا عن النار ؟
 وهل ضوء القمر
 سيذيب الثلج ، أو يحرق أشباح الليالى ؟

في هذه الأبيات كلها تأكيد لاحتساس الشاعر بضرورة الربط بين الطبيعة والانسان . فالقمر يتحول الى رغيف خبز عندما يكون الانسان جائعا . ولا جدوى من غابة الزيتون اذا لم تحم الانسان من المطر ، ولا جدوى من الأشجار اذا لم توفر للانسان نارا في برد الشتاء . ولا جدوى من ضوء القمر ، اذا كان الانسان يعيش حياة تعيسة لا يجد فيها احتياجاته ولا يتخلص فيها من مصاعب حياته المادية والمعنوية .

وهكذا فالشاعر يربط ربطا قويا وأساسيا بين الطبيعة والانسان ، ويرى أن الانسان هو الأصل ، وأن العنصر الانساني في الطبيعة هو الذى يعطيها قيمتها ومعناها .. ولا قيمة للطبيعة عند محمود درويش بعيدا عن الانسان . فهو ليس من عشاق الطبيعة المجردة ، ولا من عشاق الجمال المجرد .. انه من عشاق الانسان والجمال الانساني .

هذا هو المعنى الأساسى الأول الذى يملأ شعر محمود درويش في نظره الى الطبيعة .

ولكننا نجد للطبيعة معانى أخرى متعددة في قصائد هذا الشاعر ، وكلها ولاشك مرتبطة بتجربته الانسانية والوطنية التى تتمثل في مأساة فلسطين فنحن نجد عند الشاعر الى جانب اهتمامه بانعكاسات المأساة الانسانية في الطبيعة شعورا عميقا بأن الطبيعة ثابتة لا تتغير أو تزول ، وهذا الثبات في الطبيعة هو الحقيقة الأساسية رغم كل مظاهر التغير في التفاصيل الصغيرة،

فالبهار تتعرض للمد والجزر ، ولكنها لا تزول من الوجود ، والريبع يتلوه الصيف والخريف والشتاء ، ولكن الربيع لا بد أن يعود ، والأشجار والازهار والسنابل يمكن اقتلاعها ، ولكنها تتجدد عن طريق بذور قليلة بسيطة . وهذا الثبات في الطبيعة وراء التغيرات الجزئية والشكلية يخلق علاقة وثيقة بينها وبين الشاعر . فالشعب في نظر محمود درويش ، مهما تعرض للأزمات والمصاعب فانه لا يمكن أن يتلاشى أو يزول ، وقد يتعرض الشعب لمذابح كثيرة ولكن هذه المذابح لا يمكن أن تقضى عليه ، فالبذرة الصغيرة تملك في أعماقها قوة كبيرة ، وكذلك فان الشعب يمكن له أن يسترد حيويته وقوته حتى ولو لم يبق منه الا عدد قليل ومحدود من أبنائه ان الطبيعة تعطي مثالا كبيرا للقدرة على التجدد والاستمرار مهما كانت العواصف .. يقول محمود درويش في قصيدة بعنوان « عن انسان » وهي القصيدة التي أشرنا اليها في فصل سابق :

يادامى العنين ، والكفن !

ان الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل !

نيرون مات ولم تمت روما

بعينها تقاتل

وجيوب سنبله تجف

ستملاً الوادى سنابل !

والبيت الأخير بالذات هو الذى يجسد معنى الثبات عن طريق التجدد في الطبيعة ، وهو المعنى الذى يلتفت اليه محمود درويش ، ويحس أن له مقايلا في الحياة البشرية ، فالانسان أيضا ثابت في اطار من التجدد مثل الطبيعة تماما . والسنبله التي تجف ، يمكن لحبوبها أن تملأ الوادى سنابل وكذلك الشعب الذى يصيبه ما أصاب شعب فلسطين من متاعب ومصاعب

ومأس كثيرة .. هذا الشعب يستطيع أن يتجدد ويبدأ الوادى ، ولو أنهم يبق منه الا عشرات الأفراد الذين أصابهم التعب كما تصاب حبات القمح الصغيرة .. التى تعود فتبدأ الوادى سنابل .

ويرتبط بمعنى الثبات فى الطبيعة عن طريق التجدد والتغيرات الجزئية التى لا تقضى على ظواهر الطبيعة الرئيسية معنى آخر هو أن الطبيعة لا تعرف الموت . فالحبة عندما ندفنها فى الأرض لا تموت وانما تثمر . والشجرة التى تتعري أغصانها من الأوراق فى الخريف تعود بعد ذلك الى الاخضرار فى الربيع ، والماء يتحول الى بخار ثم ينزل مطرا من جديد . فالطبيعة - اذن - لا تعرف الموت أبدا . وكل محاولة لقتل الطبيعة تنتهى الى الفشل . والشاعر - كعادته - يربط بين هذا المعنى الذى يستمد من الطبيعة وبين شعبه ووطنه ، ففيهما قوة الطبيعة ، انهما لا يموتان أبدا ، ومهما تعرضا لمظاهر الموت الخارجية فانهما لا بد عائدان الى الحياة من جديد . هكذا يؤمن الشاعر ايمانا لا يتردد . وهو يجد فى الطبيعة ما يؤكد له هذا المعنى دائما حيث يقول :

الموت والميلاد فى وطنى المؤله توأمان

ذلك لأن الموت تتبعه الحياة على الفور . فهناك بعث دائم متجدد للشعب مهما كانت المصاعب والظروف القاهرة ... يقول محمود درويش فى قصيدته « رد الفعل » :

سددوا على النور فى زلزلة
فتوهجت فى القلب شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتى
فما على الجدران مرج سنابل

وهكذا فكلما ضاق الحناق عليه تجدد وازداد اشتعالا وتوهجا ، فالضغط لا يقتله وانما يحييه ، والمصاعب لا تسد عليه الطريق ، وانما تفتح أمامه سبلا واسعة عريضة . ونجد هذا المعنى الكبير الذى يستمد محمود

درويش من ظواهر الطبيعة يتكرر في كثير من قصائده . ففي قصيدته
« الأغنية والسلطان » يقول :

أخبروا السلطان
ان البرق لا يجبس في عود ذرة
للأغاني منطق الشمس
وتاريخ الجداول
ولها طبع الزلازل
والأغاني ، كجذور الشجرة
فاذا ماتت بأرض
أزهت في كل أرض
كانت الأغنية الزرقاء فكرة
حاول السلطان أن يطمسها
فعدت ميلاد جمرة !
كانت الأغنية الحمراء جمرة
حاول السلطان أن يجبسها
فاذا بالنار .. ثورة !

وهكذا فان الضغوط والعقبات لا توقف حركة الحياة بل تفجرها وتزيدها
اشتعالا وقوة . وهذا هو القانون الذي يسيطر على الطبيعة ، وهو بالتالي
القانون الذي يسيطر على حياة الشعب كما يتصورها الشاعر وكما يؤمن
بها ... وهو قانون لا يعرف الموت ولا يعترف به ، بل هو قانون يقول بأن
الحياة أقوى من جميع العقبات التي تتعرض لها .. ولنقرأ أيضا هذا
النموذج من قصيدة للشاعر بعنوان « ولادة » :

يا أمي
جاوزت العشرين
فدعى الهم ولأمي

ان قصفت عاصفة
 فى تشرين
 ثالثهم
 فجذور التين
 راسخة فى الصخر .. وفى الطين
 تعطيك غصونا أخرى
 وغصون !

انه فى هذه الأبيات يقول لأمه : لقد بلغت العشرين فلا تخافى على ...
 وحتى لو أصابنى مكروه قضى على حياتى فأنت قادرة على العطاء ، مثلك
 مثل الطبيعة ، والجذور الراسخة تعطى على الدوام غصونا جديدة .. ولعل
 أمه هنا هى وطنه ، فهو كثيرا مايمزج بين صورة الأم وصورة الوطن .
 وبهذا المعنى فنحن أمام رؤية لا تعترف بالموت ولا تخشاه ، وتحس أن
 حياة الوطن مثل حياة الطبيعة : باقية ودائمة ، ولا يمكن للموت أن يقضى
 على الوطن القادر على التجدد ، كما لا يمكن للموت أن يقضى على مظاهر
 الطبيعة القادرة على التجدد .

ومحمود درويش الى جانب ذلك كله يصور لنا الطبيعة وهى تعكس
 الحالات النفسية التى يمر بها ، فالطبيعة تأخذ منه كما تعطيه .. لقد أعطته
 ايمانا بالتجدد والقدرة على مغالبة الموت ، وهو يعطيها هنا ما فى نفسه ،
 ففى حالة حزنه نرى الطبيعة حزينة ، وهذه صورة لحزن الطبيعة مع حزن
 الشاعر يقدمها لنا فى قصيدته « ثلاث صور » :
 كان القمر

كعهده — منذ ولدنا — جامدا
 الحزن فى جبينه مرقق
 روافدا .. روافدا
 قرب سياج خربة

حر حزينا ... باردا

ففى هذه الصورة « يسقط » الشاعر حزنه على صورة القمر وهذا النوع من « الاسقاط » شائع فى الشعر ، بل وفى كل ألوان الفن ، فما دامت الطبيعة عنصرا يستخدمه الفنان فى بناء عمله الفنى ، فهو يعطيه لون نفسه ، فإذا كان حزينا فهو يعطيها لونا قاتما وإذا كان مليئا بالسعادة والفرح فهو يعطيها لونا مشرقا زاهيا . وكما رأينا الشاعر فى القصيدة السابقة يعكس ألوان نفسه الحزينة على الطبيعة ، فهو يعطينا فى قصيدة أخرى ألوانا زاهية متفائلة مشرقة ، وذلك عند ما يحس بالفرح والسعادة ، فهو يقول فى قصيدته « عنوان جديد » :

وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى وأكبر
ورائحة الأرض عطر
وطعم الطبيعة سكر
كأنى على سطح بيتى القديم
ونجم جديد
بعينى تسم

فالحظة الأولى التى كان فيها القمر جامدا حزينا ، تنساب منه روافد قائمة تعيسة ، كانت لحظة أسى ويأس ، بينما نجد القمر يكبر ويزداد حلاوة وجمالا ، وتبدو الأرض والطبيعة مثل نفسية الشاعر فى هذه اللحظة المبتهجة المشرقة . فالطبيعة اذن تحمل أحاسيس الشاعر وتجسدها لنا ، وتشاركه فى حالاته النفسية المختلفة فان كان حزينا شاركته الحزن ، وان كان سعيدا شاركته السعادة .

وهذا الاستخدام للطبيعة هو استخدام عادى ، يتكرر كثيرا فى نماذج الشعر الانسانى ، وليس لمحمود درويش فيه تميز خاص على غيره من

الفنانين ، وان كان محمود يحتفظ لنفسه باستقلاله الفنى فى اختيار صوره وتحديد هذه الصور .. حيث يبدو تصويره للقمر فى حالة الحزن وحالة الفرح تصويرا جميلا مليئا بالحياة الفنية الواضحة .: فى الصورة الأولى يبدو القمر « جامدا » و « باردا » و « الحزن فى جبينه مرقق .. روافدا .. روافدا » وهى كلها صور حساسة تستمد عناصرها من عاطفة الحزن وما توحى به هذه العاطفة من احياءات مختلفة ، بينما نجد القمر فى الصورة الثانية « صار أحلى وأكبر » .. وهى صورة مستمدة من عاطفة الفرح ، التى تكبر معها الأشياء وتزدهر وتصبح أكثر جمالا وروعة . وفى هذه الصورة الأخيرة بالذات لمسة من « الطفولة » المشرقة واحساسها بالأشياء فى حالة الفرح والسعادة ، فالقمر « صار أحلى وأكبر » و « .. طعم الطبيعة سكر » و « رائحة الأرض عطر » ... هذا نوع جميل أصيل من الفرح ، انه فرحة الأطفال والشعراء ، فرحة النفس البسيطة التى لا تخفى مشاعرها ولا تضى عليها أى لون من التعقيد .. بل تصرخ بالبهجة ، كما تصرخ بالأسى فى لحظات الحزن والضيق ، وهى هنا شأنها شأن الاحساس الطفولى بالحياة تقيس جمال الأشياء بحجمها المادى الكبير .. فالأطفال كثير ما يقولون عن الشيء الجميل فى نظرهم : انه كبير .

والعودة الى الطفولة وأحاسيسها البسيطة المشرقة الصريحة. هى نبع من أصفى ينابيع الشعر ، وهو نبع يعرفه محمود درويش جيدا ، ويشرب منه دائما ويسقى منه أشعاره .. وهو عندما يعود الى أحاسيس الطفولة ورؤاها ودنياها البسيطة انما يعود بانسانيته الى البراءة والصدق والطهر الكامل والانطلاق والحماس للطبيعة والانسان والحياة . وكبار الشعراء هم الذين يعرفون كيف يشربون من نبع الطفولة الصافى البرىء الملىء بالطهر والنقاء .

واذا تركنا هذا « الاستخدام الذاتى » للطبيعة فى شعر محمود درويش ، فاننا نجد أمامنا صورة أخرى للطبيعة ، فعندما يريد الشاعر أن يصور لنا

« الحرية » كما يفهمها ويحس بها ، فانه لا يجد خيرا من صورة الطبيعة
وازدهارها كمعادل فنى للحرية ، فنى قصيدة له عن جبال « الأوراس »
في الجزائر يقول :

يا كبرياء الجرح ! لومتنا
لحاربت المقابر
فملاحم الدم في ترابك
مالها فينا أو آخر
حتى يعود القمح للفلاح
يرقص في البساتين
ويغرد العصفور حين يشاء
في عرس الأزاهر
والشمس تشرق كل يوم
في المواعيد البوأك

ان الشاعر يؤكد هنا أن « الحرية » معناها ازدهار الطبيعة ، فالحرية
هى عرس الطبيعة ، وانتصار الجزائر انما يتجسد في رقص القمح ، وتغريد
العصافير واشراق الشمس ، على أن الشاعر لا ينسى وهو يصور لنا هذه
انصورة أن « عرس الطبيعة » مرتبط أشد الارتباط بالانسان ، ففي قلب
هذا العرس الذى يرسمه الشاعر للطبيعة يقف « الفلاح » ، ذلك الكائن
الذى تستمد الطبيعة منه معناها وتكتسى بأثواب الفرح والحزن حسب
ما يحس به هذا الانسان حبيب الطبيعة وخدامها وعاشقها من مشاعر
مختلفة .

وهكذا نجد أن « عرس الطبيعة » يرتبط أشد الارتباط بالمعاني
الانسانية العامة ، وأهمها معنى الحرية التى يسعى اليها كل شعب مقيد
مأسور ، والتى كافح من أجلها ثوار الجزائر ، وكافح من أجلها اليوم
ثوار فلسطين .

وفي شعر محمود درويش تتكرر كثيرا صورة « الريح » و « العاصفة » وهاتان الصورتان هما ولا شك تعبير عن نفسية الشاعر ، وهى ليست نفسية هادئة مستريحة ، بل هى نفسية ثائرة ، تحس بالألم العميق للمصير الذى تعرض له شعب فلسطين وتعرضت له أرض فلسطين ، والرؤى التى يراها مثل هذا الشاعر الممتلىء بالعواطف الحارة العنيفة لا يسكن أن تكون نسيمًا هادئًا ، ولا أزهارًا باسمة ، وانما لابد لهذه الرؤى أن تكون من لون مشاعره . ولذلك فهو كثيرا ما يرى الطبيعة رياحا وعواصف . كالرياح والعواصف التى هبت على شعبه وأرضه ، وكالرياح والعواصف التى مازالت تهب ، والتى يجب أن تهب فى المستقبل لتعيد الحقوق العادلة الى أصحابها . ولن يتم ذلك بدون ربح وعاصفة . ان رؤية الشاعر للرياح والعواصف ، وتكراره لهاتين الصورتين فى شعره انما يدل دلالة قوية على ما فى نفسه من لهيب ، وما فى وجدانه من حدة واندفاع . ولا يكاد يوجد شاعر عربى معاصر وقف عند الرياح والعواصف واستخدمها فى شعره مثلما فعل محمود درويش . بل من المؤكد أنه الشاعر الوحيد الذى استخدم هاتين الصورتين بكثرة لا تتكرر عند شاعر عربى آخر . انه يتحدث عن الطبيعة فى ثورتها وغنفها وغضبها أكثر مما يتحدث عنها فى هدوئها ووداعتها . لأن ثورة الطبيعة هى صورة من ثورة نفسه وغضبها على ما يراه من ظلم وتعسف لا حدود لهما فى الواقع الانسانى الذى يعيشه شعب فلسطين . ولا يكاد محمود درويش يسمح لنفسه أن تهدأ وتستقر ، فهو يدعو جيبته فى قصيدة له بعنوان « لا تتركينى » الى أن تساهم فى استمرار انفعاله العنيف الحار :

لا تتركينى

حرا بحزننى

واجبسينى

بيد تصب الشمس

فوق كوى سجونى
وتعودى أن تحرقينى
ان كنت لى
شغفا بأحجارى بزيتونى
بشباكى .. بطينى

انه يطلب من حبيبته أن تشعل فيه على الدوام عواطفه وأن تدفعه الى أقصى درجات الانفعال ، فالقضية التى يؤمن بها تحتاج الى كل هذه الحرارة ، وكل هذا الانفعال الكبير . ومثل هذه النفسية اذا تعلقت ببعض ظواهر الطبيعة فانها تتعلق بالظواهر العنيفة على وجه الخصوص .. تتعلق بالرياح والعواصف ، لانها نفس مليئة بما يشبه الرياح والعواصف .

على أن الرياح والعواصف لهما مغزى غير مابينهما وبين نفس الشاعر من تشابه ، فالرياح والعواصف يقتلعان ما أمامهما من الاغصان الضعيفة والأوراق الهشة ، والشاعر يريد أن يقتلع كل مايوحى اليه بالضعف ، فالقضية التى يدافع عنها تحتاج الى القوة والعنف ، بعد أن عانت طويلا من الضعف والتخاذل . ان الرياح والعواصف لاتبقى أمامها الا كل ماهو أصيل وراسخ ، وهذا مايؤمن به الشاعر ومايحرص عليه كل الحرص ، ففى قصيدته « وعود من العاصفة » يقول :

وليكن ...

لا بد لى أن أرفض الموت
وأن أحرق دمع الأغنيات الراحلة
وأعزى شجر الزيتون
من كل العصون الزائفة
فاذا كنت أغنى للفرح
خلف أجفان العيون الخائفة
فلأن العاصفة
وعدتنى بنبيذ

وبأنخاب جديدة

وبأقواس قزح

ولأن العاصفة

كنست صوت العصفير البليدة

والغصون المستعارة

عن جذوع الشجرات الواقعة

وهكذا ، فالشاعر يريد شيئاً من الرياح والعواصف ، تلك التي انعقدت بينه وبينها أواصر علاقة وطيدة ، بحيث استطاع أن يأخذ منها وعودا كثيرة ... انه ينتظر من هذه الرياح والعواصف أن تقضى على أى كائن زائف ، أو بليد ، أو مستعار ، أو ضعيف ، فالرياح والعواصف لن تبقى أمامها الا على ماهو قوى وصلب وقادر على الوقوف والصمود . وعندما يتعرض الشاعر مع بنى وطنه لمحنة كبيرة ، فهو يحس بصورة الرياح والعواصف وهى تولد أمامه وتتفجر بقوة فى نفسه وشعره ... يقول فى قصيدة « رد الفعل » :

ماكنت أعرف أن تحت جلودنا

ميلاد عاصفة

وعرس جداول

وهو يخاطب وطنه الذى تجسد أمامه فى « ذات العيون السود »
فيقول فى قصيدته « خارج من الاسطورة » :

اننى أقرأ فى عينيك ميلاد النهار

اننى أقرأ أسرار العواصف

وهو يقول فى قصيدة أخرى مخاطبا طفلا من بلاده :

أخذوا بابا ... ليعطوك رياح

فتحوا جرحا ... ليعطوك صباح ...

وفى قصيدة عن قرية « كفر قاسم » يقول :

افتحى الأبواب يا قريننا
 افتحها للرياح الأربع
 ودعى خمسين جرحا يتوهج
 وفي قصيدة « السجين والقمر » يقول :
 الريح منزلنا
 وصوت حببتي قُبَلْ
 وفي قصيدة « الأغنية والسلطان » :
 كان صوت الدم
 مغموسا بلون العاصفة
 وحصى الميدان أفواه جروح راعفه
 وأنا أضحك مفتونا بميلاد الرياح
 عندما قاومنى السلطان
 أمسكت بمفتاح الصباح
 وتلمست طريقى بقناديل الجراح
 آه كم كنت مصيبا
 عندما كرس قلبى
 لنداء العاصفة

وهكذا تملأ الرياح والعواصف شعر محمود درويش ، انهما أكثر ظواهر الطبيعة اثارة لوجدانه ، وفيهما تتجسد مشاعره الحقيقية فى رؤيته لواقع بلاده ومستقبلها ، فلن تتحرك قضيته خطوة الى الأمام بدون أن تعقد علاقات أصيلة مع العواصف والرياح ، وبدون أن تأخذ عهدا على هذه العواصف والرياح ، وبدون أن تهب فى كل مجالات حياتها العملية والنفسية بنفس القوة التى تهب بها الرياح والعواصف ، لتقتلع الأعشاب السامة التى زرعها العدو الاسرائيلى فى الأرض الفلسطينية ، ولتقتلع ماقد يملأ النفس العربية من تردد أو ارتباك .. ان الشاعر يتحالف مع قوة

الطبيعة ، ولا يتحالف مع ضعفها ، انه يريد أن يركب أقوى سفن الطبيعة ليصل الى غايته البعيدة ... وليس هناك أقوى من الريح والعاصفة . وقد يكون في كلمة العاصفة هنا بالذات « عندما كرست قلبي لنداء العاصفة » اشارة بعيدة خفيفة الى الفدائيين الذين يرتبطون بتنظيم « العاصفة » العسكرى الذى يقف في طليعة الفدائيين الفلسطينيين في هذه المرحلة ، خاصة ، وأن قصيدة « الأغنية والسلطان » قد كتبت بعد يونيو ١٩٦٧ ، وبعد أن اشتدت حركة المقاومة ... على أن المعنى العام الأساسى للعاصفة في شعر محمود درويش هو المعنى المستمد من الطبيعة .

بقيت ملاحظتان أخيرتان على موقف محمود درويش من الطبيعة ، أما الملاحظة الأولى فهي أنه كثيرا ما يتحدث عن « الزيتون » في شعره وقليل ما يتحدث عن « البرتقال » . وهناك فكرة شائعة عن فلسطين هي أنها أرض « البرتقال » . وكثيرا ما تتكرر هذه الفكرة في الأدب العربى الذى يتناول مأساة فلسطين ويتحدث عنها ، سواء كان هذا الأدب مكتوبا بأقلام فلسطينية أو صادرا عن أدباء من مختلف البيئات العربية الأخرى .

ولكن محمود درويش في شعره لا يلتزم بهذه الفكرة الشائعة عن أرض البرتقال ، ولا يكاد البرتقال يتردد في قصائده الا في حالات قليلة نادرة ، ولا شك ان الشاعر أو الفنان الأصيل وحده هو الذى يعبر دائما عن رؤية خاصة غير تقليدية ولا متكررة ، وهذا هو ما تجده عند محمود درويش ، فهو لا يكرر غيره ، لا عن تعمد وافتعال ولكن عن صدق وأصالة ، انه يستوحى تجربته الخاصة التى قد تختلف مع غيره كل الاختلاف ، ولذلك فإن الأرض عنده تبدو وكأنها أرض الزيتون لا أرض البرتقال ، وإذا بحثنا عن تفسير آخر غير استقلال الشاعر واستقلال شخصيته الفنية ، فإنا سنجد عدة أسباب حددت رؤية الشاعر بهذه الصورة . فمحمود درويش من قرية « البروة » وهذه القرية بالذات توجد في منطقة تنتشر فيها أشجار الزيتون بكثرة ، بل تكاد أشجار الزيتون أن تكون هي الزراعة

الرئيسية في تلك المنطقة ، ولذلك امتلأ وجدان الشاعر بالتعلق بشجرة الزيتون فأحبها وصادقها بعد أن عاشها طويلا وأحس بها احساسا وجدانيا عميقا . ومنطقة « البروة » بالذات هي أغنى مناطق فلسطين بأشجار الزيتون ، كما أن الزيتون الذي ينبت في هذه المنطقة هو أفضل وأنقى وأقدم أنواع الزيتون في فلسطين كلها . اذن فالزيتون له شخصية قوية تفرض نفسها على أبناء هذه المنطقة . وله في المنطقة وجود حي ملموس أحس به الشاعر منذ طفولته وارتبطت حياته وحياة أهل قريته بهذا الزيتون منذ البداية . ومن هنا كان من الصدق والواقعية والتعبير الوجداني السليم أن يحتل الزيتون مكانة أساسية في شعر محمود درويش قبل غيره من مظاهر الطبيعة في فلسطين .

وهناك معنى آخر يساند اختيار محمود درويش للزيتون ومحبته نه والاهتمام به في شعره ، فالزيتون من الأشجار القليلة التي تحمل بالنسبة للوجدان الانساني بعض المعاني انرمزية الكبيرة ، فالزيتون شجرة ترمز للسلام بالنسبة لكل انسان على هذه الأرض ، وهي لا ترمز للسلام المناقض للحرب فقط وانما ترمز للسلام المرتبط بالحياة المعادي للخراب ، المتصل بالازدهار والاختصار في الطبيعة والانسان . ان شجرة الزيتون هي رمز للحياة الخضراء المتألقة المنتجة في كل ميدان . ومادام الزيتون يحمل كل هذه الرموز والمعاني العميقة فهو أقرب الى روح الفن ووجدان الفنان من أشجار البرتقال التي لا تحمل أى معنى من هذه المعاني على الإطلاق .

ومن ناحية أخرى فان أشجار الزيتون هي « أشجار الفقراء » يزرعها هؤلاء الفقراء ويملكونها في كثير من الأحيان ، وليس معنى هذا أن الأغنياء لا يملكون شيئاً من الزيتون ، فالغنى عادة يستطيع أن يشارك الفقراء فيما يملكون ، بينما لا يستطيع الفقراء مشاركة الأغنياء في كل شيء . ولكن علاقة الفقراء بالزيتون تعود الى امكان امتلاك رقعة صغيرة من الأرض

مزروعة بالزيتون ، لأن أشجاره وافرة الثمار ، صغيرة الحجم ، تعتمد على المطر ، ولكن البرتقال يحتاج الى مناطق واسعة هي تلك التي تسمى باسم « البيارات » ولا بد لمن يملكها أن يكون على شيء من الثراء . أما الزيتون فمن الممكن لأي مواطن عادي فقير أن يملك بضع شجيرات يعيش عليها ومن أجلها دون حاجة الى « البيارات » .

ومحمود درويش هو واحد من هؤلاء المواطنين الفقراء أنفسهم ، عاش تجاربهم وأحلامهم وأحزانهم ، وهو في شعره انما يعبر عنهم تعبيرا فنيا وانسانيا عميقا . ولذلك فلقد كان من الطبيعي أن تكون الصورة الواضحة في شعره ووجدانه هي صورة شجرة « الزيتون » ، شجرة الفقراء ، شجرة السلام ، شجرة الحضرة والازدهار في الأرض وفي حياة الانسان ، شجرة الرسوخ والثبات والعمر الطويل ، ذلك لأن الزيتون له في الأرض جذور قوية كما يمتد العمر بأشجاره طويلا مع السنوات العديدة المتتالية أما البرتقال فلم يلتفت اليه الشاعر كثيرا لخلوه من معظم المعاني التي ترتبط بأشجار الزيتون .

ولقد كان الديوان الثاني لمحمود درويش هو « أوراق الزيتون » . أما الزيتون فما أكثر ما نلقاه في قصائده ودواوينه .

ولست بحاجة الى تقديم نماذج شعرية كثيرة تثبت اهتمام محمود درويش بشجرة الزيتون فما أكثر ما تظهر صورة الزيتون في أشعاره ... ففي قصيدة « صدى من الغابة » يقول :

من غابة الزيتون

جاء الصدى

وكنت مصلوبا على النار

أقول للغربان : لاتنهشى

فربما أرجع للدار

وفي قصيدة « مطر » يقول :

يا نوح
هبنى غصن زيتون
ووالدتي ... حمامة
وفي قصيدة له عنوانها عن « الصمود » :
لو يذكر الزيتون غارسه
لصار الزيت دما !

وهكذا نجد أن صورة الزيتون أكثر انتشارا في شعر محمود درويش
من البرتقال ..
انها صورة أقرب من أى صورة أخرى مرتبطة بأرض فلسطين وتربتها
المغتصبة .

الملاحظة الثانية والأخيرة تتصل بموقف محمود درويش من القمر ...
ان صورة القمر تتردد كثيرا في شعر محمود ، ولكنها ليست الصورة
المألوفة التى نعرفها في الأدب العربى بل وفي معظم الآداب الانسانية ...
فالقمر هو عادة رمز للجمال والوسامة والسحر ، وقد أصبح تشبيهه
الجميل بأنه مثل القمر أمرا شائعا لا عند الأدباء والشعراء وأهل الفن
وحدهم ولكن عند الناس العاديين أيضا ... فهناك اتفاق على أن القمر
هو المثل الأعلى للجمال فى عيون البشر .

ولكن محمود درويش فى معظم شعره يقدم لنا صورة متناقضة تماما
مع هذه الصورة ... فهو لا يحب القمر ولا يعترف له بالسحر والجمال ...
فى قصيدة له بعنوان « خائف من القمر » يقول :

خبثينى . أتى القمر
ليت مرأتنا حجر
ألف سر سرى
وصدرك عار
وعيون على الشجر

لا تغطي كواكبا
ترشح الملح والحدرد
خبثيني ... من القمر

والشاعر هنا يقول لنا انه يخاف من القمر ، لأن القمر يكشف أسراراً وعواطف ينبغي أن تخفى وتظل بعيدة عن العيون المعادية ، وهذه الفكرة تكشف لنا عن روح الشاعر بل والانسان الذى يعيش فى الأرض المحنلة مليئاً بالخاوف والهموم ، تحاصره الشكوك من كل جانب واتجاه ... انه يعيش فى مجتمع معاد له كل العداء وهو المجتمع الاسرائيلى حيث لا يستطيع بسهولة أن يكشف أفكاره ولا مشاعره وعواطفه المختلفة ... ومن هنا كان القمر عنصراً مساعداً للعدو وليس عنصراً مساعداً للانسان الخاضع للحصار والمطاردة .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « أبى » يقول محمود :

غض طرفاً عن القمر
وانحنى يحفن التراب
وصلى ...
لسماء بلا مطر
ونهانى عن السفر

فالأب هنا لا ينظر للقمر ولا يتأثر به ، لأن القمر رمز للأحلام ، والأب لا يحلم ، والقمر رمز للخيالات الساحرة ، والأب يعيش فى الواقع ويحرص على التمسك بالأرض والتراب الذى يعيش فوقه ... فالتراب أهم من القمر . أو من أى مظهر آخر من مظاهر الجمال والخيال والأحلام فى نظر هذا الأب الذى يشعر بالتهديد المستمر لفقدان الوطن .

وفى قصيدة ثالثة بعنوان « قمر الشتاء » يقول محمود درويش :

سألم جثتك الشهيدة
وأذيتها بالملح والكبريت

ثم أعبها
كالشاي
كالخمر الرديئة
كالقصيدة
في سوق شعر خائب
وأقول للشعراء :
يا شعراء أمتنا المجيدة
أنا قاتل القمر الذي
كنتم عبيده !!
ويقول في آخر القصيدة :
لم أقتل سوى نذل جبان
بالأمس عاهدني
وحين أتيت في الصبح .. خان !

ولعل هذه القصيدة بالذات هي أكثر القصائد وضوحا وتحديدا في رؤيته الخاصة للقمر .. فهو قد قتل القمر .. وقال للشعراء « .. أنا قاتل القمر الذي كنتم عبيده » ... فالقمر الذي كان موضوعا للغزل والعشق عند الشعراء أصبح عدوا لدودا عند محمود درويش ... وهو عدو يستحق القتل . لماذا ؟ « لم أقتل سوى نذل جبان . بالأمس عاهدني وحين أتيت في الصبح .. خان ! » . فالقمر الذي كان يسطع في سماء قرية الشاعر وعلى أرض فلسطين كلها ليكشف مافيها من جمال ، قد أصبح الآن يسطع على عالم آخر « ليضيء » مافيها من ظلم واغتصاب ، انه عالم المجتمع الاسرائيلي الذي قام على أنقاض المجتمع الفلسطيني . وهذا مايصوره الشاعر بأنه خيانة ... وكأن القمر قد ساهم في الكشف عن ذلك العالم الجديد القبيح ، عالم اسرائيل ، عالم الظلم الذي يجرح أحلام الشاعر وعواطفه وذاكرات طفولته .

ولعل محمود درويش يشير هنا أيضا الى أن القمر كان موضوعا للغناء عند الشعراء الآخرين أما بالنسبة له ولغيره من شعراء المقاومة فإن الغناء الحقيقي ينبغى أن يدور حول الانسان وتجاربه المختلفة وجهوده من أجل التحرر والكرامة .

هذه صورة القمر عند محمود درويش ، وهى صورة خاصة ومسنقلة ومختلفة عن الصورة المألوفة لدى معظم الشعراء والفنانين ... انها صورة تكشف عن تمرد محمود درويش على الفن التقليدى والجمال التقليدى ، وتكشف عن حنينه الى جمال جديد ينبع من الوجدان الانسانى أولا وقبل كل شىء ..

الحب والمرأة

حبنا أن يضغظ الكف على الكف ، ونمشي
واذا جعنا تقاسمنا الرغيف
في ليالى البرد أحملك برمشي
وبأشعار على الشمس تطوف ا
محمود درويش

محمود درويش شاعر عاطفى بالمعنى العميق لهذه الكلمة ، وهو شاعر تنبع موهبته من محبة الحياة وعشق الجمال فى الطبيعة والانسان ، وليس شاعرا تنبع موهبته من « الكراهية » أو « النقمة » أو « اليأس » ... ان شعر محمود درويش شعر غنى بالعاطفة الانسانية فى كثير من قصائده ، بل فى كثير من أبياته ، والحقيقة أن محمود درويش من أغنى شعراء العاطفة فى تاريخ الشعر العربى كله .. وهو يعبر عن العاطفة .. عاطفة الحب ، تعبيراً جديداً ومتنوعاً ومبتكراً فى صورته وخيالاته المختلفة ... انه عاشق من الدرجة الأولى اذا صح التعبير ... يملأ العشق قلبه بالعواطف الحسنة الحارة ، وهى عواطف تفيض من هذا القلب على كل قضية أخرى تتصل بحياة الشاعر أو بفكره

على أن العاطفة فى شعر محمود درويش ليست عاطفة مجردة ، لأنها ترتبط كل الارتباط بالقضية التى يعيش معها فى كل لحظة من حياته وهى قضية وطنه ، كما أن هذه العاطفة تتأثر كل التأثر بالجو الخائق النعيس الذى تعيش فيه الأقلية العربية داخل الأرض المحتلة ، فالحب فى شعر محمود درويش هو زهرة يحيط بها كثير من الشوك .

يقول محمود درويش لحبيته فى قصيدة عنوانها « قصائد عن حب قديم » :

تشهيت الطفولة فيك
مذ طارت عصافير الربيع
تجرد الشجر
وصوتك كان ، يا ما كان ،

يأتيني من الآبار أحيانا
وأحيانا ينقطه لى المطر
نقيا هكذا كالنار
كالأشجار .. كالأشعار ينهمر
ويقول فى نفس القصيدة :
ونعبر فى الطريق ...
مكبلين ...

كأننا أسرى
يدى ، لم أدر ، أم يدك احتست وجعا
من الأخرى

هذه بعض الصور الفنية التى يعبر بها محمود درويش عن عاطفته ..
انها صورة جديدة وغنية بدقتها وصدقها ... فعندما يريد أن يصور لنا أن
صوت حبيبته يسيطر على كيانه كله فهو يقول :
وصوتك كان يا ما كان
يأتيني من الآبار أحيانا
وأحيانا ينقطه المطر

فصوتها يأتيه من كل مكان وهو صوت يمتزج بكل مظاهر الطبيعة
فكأنه جزء من هذه الطبيعة وعنصر من عناصرها
وعندما يريد الشاعر أن يصور لحظة من لحظات حبه ، لا ينسى أنه هو
وحبيبته يعيشان فى ظروف قاسية ولذلك فهو يمشى مع حبيبته فى
« الطريق مكبلين » .. « كأننا أسرى » ... « يدى لم أدر ، أم يدك احتست
وجعا ... من الأخرى » ... انها صورة جديدة وغريبة وصادقة حقاً
لعاشقين يعيشان فى ظروف من القهر .. مثل تلك الظروف التى يعيش فيها
العرب فى الأرض المحتلة

اننا سرعان ما نجد فى الشعر العاطفى لمحمود درويش صورة عميقة
لمأساته وقضيته ، فهو لا يجرّد العاطفة أبداً أو ينزل بها عن قضيته ...

انه شاعر قضية ، شاعر مأساة ، شاعر « جرح لايساوم » ، ولذلك فالحب عنده مرتبط كل الارتباط بوطنه وقضيته ، وهذا الارتباط لا يقلل من الحب ، بل يجعله عميقا ومؤثرا الى أبعد حد ، فهو في النهاية حب محروم ، وهو حب محرم أيضا ، فليس في حياة الأرض المحتلة فرصة طبيعية لحب طبيعي ناجح ، فكل انسان عربى في هذه الأرض معرض للاضطهاد والموت في أى لحظة ... فالحب هنا عصفور مطارذ بألف بندقية ، فهو ينتقل مضطربا من غصن الى غصن يبحث عن مأمن قد لا يجده على الاطلاق .
ولعل أكثر القلوب احتياجا الى الحب ، ومعرفة لقيمه ودوره في حياة الانسان هى قلوب هؤلاء المحرومين المعرضين للاضطهاد . الحب بالنسبة لهذه الحياة الصعبة القاسية هو مصدر الأمل الوحيد ، ونافذة الهواء الوحيدة ، وشعاع الشمس الذى يسلأ الحياة بالحرارة والدفع .
في حوار بين الشاعر وبين حبيته يقول لنا محمود درويش في قصيدة
أشرنا اليها من قبل :

عندما كنت صغيرا وجميلا
كانت الوردة دارى
والينايع بحارى
(صارت الوردة جرحا
والينايع دماء)
— هل تغيرت كثيرا ؟
— ماتغيرت كثيرا
عندما نرجع ، كالريح ، الى منزلنا
حدقى في جبهتى
تجدى الورد نخيلا
والينايع عرق
تجدينى مثلما كنت
صغيرا وجميلا

فاذا كانت حبيبته تبحث عن صورة مشرقة جميلة له ... فلن تجدها
الا بعد أن يعود الى منزله ، رمزا لعودة كل فلسطينى عربى الى أرضه
المغتصبة .. فالحب الناجح المطمئن مرتبط بعودة الأرض وانتصار الانسان العربى
وهو يرى أن نجاحه فى حبه مرتبط كل الارتباط بنجاحه فى فضاله
واستمراره فى هذا النضال من أجل قضيته ، فلو انحنى وسلم لأعدائه
فان حبه سوف يموت وينتهى ولا يعود جديرا بأي شىء من عطايا الحب
وهداياه ، لأن هذا الحب مرتبط بموقفه من أرضه وشعبه وآهله :

يدالك فوق جينى
تاجان من كبرياء
اذا انحنيت انحنى
تل وضاعت سماء
ولا أعود جديرا
بقبلة أو دعاء
والباب يوصد دونى

ومحمود درويش كثيرا ما يمزج بين « الحبيبة » و « الوطن » ويجعل
منهما شيئا واحدا .. كثيرا ما يتحدث عن الحبيبة ثم يقوده الحديث الى
فلسطين وجرحها وأحلامها أيضا . لقد وصل محمود درويش فى تعبيره
الفنى عن تجربته العاطفية الى درجة عالية من الاحساس العميق بأن كل
لحظة حب يحس بها نحو فتاته هى فى نفس الوقت لحظة عاطفة من أجل
الأرض المجروحة . لأن الحبيبة دائما تذكره بالوطن ... بل ان الحبيبة
هى الوطن فى نفس الوقت :

ما الذى يجعل الوطن
بين عينيك أجملا ؟
والأساطير والزمن
تتمناك منزلا ؟

... ..

أنت عندي أم الوطن
 أم أنا الرمز فيكما ؟
 فهو هنا يمزج مزجا فنيا جميلا بينه وبين الحبيبة وبين الوطن ... الكل
 في واحد لا ينقسم ولا يتجزأ
 وفي قصيدته المشهورة « عاشق من فلسطين » والتي أشرنا إليها من
 قبل يقول محمود درويش عن حبيبته :

فلسطينية العينين والوشم
 فلسطينية الاسم
 فلسطينية الأحلام والهيم
 فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
 فلسطينية الكلمات والصمت
 فلسطينية الصوت
 فلسطينية الميلاد والموت

فالشاعر هنا يؤكد على كلمة « فلسطينية » لأنه يجد فيها أجمل معاني
 الحب والعاطفة الانسانية . ذلك نذّر حبه لفتاته ، مترج امتزاجا كاملا بحبه
 لوطنه وإيمانه به ، وأصبح كل ما يحس به من جمال متركزا في أنها
 « فلسطينية » ... ففي هذه الصفة يجتمع كل السحر الحقيقي الأصيل .
 وفي نفس هذه القصيدة ، قصيدة عاشق من فلسطين يرسم لنا صورة
 لحبيبته ، تخرج تماما عن نطاق التصوير الفني للحبيبة العادية لتصبح
 صورة للوطن كله :

رأيتك عند باب الكهف ... عند الغار
 معلقة على جبل الغسيل ثياب أيتامك
 رأيتك في المواقد ... في الشوارع
 في الزرائب في دم الشمس ...
 رأيتك في أغاني اليتيم والبؤس
 رأيتك ملء ملح البحر والرمل

وكنت جميلة كالأرض ... كالأطفال .. كالفل

وأقسم :

من رموش العين سوف أخيط منديلا

وأنقش فوقه شعرا لعينيك

واسما حين أسقيه فؤادا ذاب ترتيلا

يمد عرائش الايك

سأكتب جملة أحلى من الشهداء والقبل :

« فلسطينية كانت ولم تزل »

فالحبيبة هنا هي الوطن ، والوطن هو الحبيبة .. والصور الفنية الجديدة التي يرسمها الشاعر في هذه القصيدة صور رائعة ومثيرة .. فهو يرى الحبيبة وهي تعلق على جبل الغسيل ثياب أيتامها ... ويراه في الشوارع والزرائب وفي دم الشمس .. ويراه في أغاني اليتيم والبؤس وفي ملح البحر ... وتلك كلها صور توحى إلينا بمدى ما يحسه الشاعر من امتزاج الحبيبة والوطن بكل مظاهر الحياة وخاصة تلك الحياة القاسية المكافحة التي يتكون إطارها من « البؤس واليتيم والزرائب وثياب الأيتام » ومع ذلك فهو يغنى للحبيبة أو الوطن أجمل أغنية ... لأنها :

فلسطينية كانت ولم تزل !

فما دام الاسرائيليون يريدون القضاء على الصفة « الفلسطينية » للأرض وللحبيبة فلتكن هذه الصفة هي أحلى أغنية وأجمل نشيد على أن الارتباط العميق بين الوطن والحبيبة في شعر محمود درويش * وهو ارتباط يشمل شعر محمود العاطفي كله .. هذا الارتباط يقودنا إلى موقف آخر في شعره العاطفي . فالحب عند محمود درويش هو اشتراك في الحياة الصعبة القاسية التي يعيشها العربي في الأرض المحتلة . ان حب محمود درويش هو حب الفقراء المكافحين ، وليس حب المترفين الذين يجعلون من الحب وردة تسعدهم في وقت الاسترخاء والراحة والرفاهية ، ولذلك فهو يصور لنا حب الفقراء هؤلاء في كثير من قصائده ... فاذا

به حب عميق له شخصيته النبيلة المؤثرة .. وهى فى نفس الوقت
صورة جديدة لذلك الحب الكبير الأصيل الذى يعبر عنه محمود درويش :

حبنا أن يضغط الكف على الكف ، ونمشى
واذا جعنا تقاسمنا الرغيف

ويقول فى قصيدة أخرى :

أحبك حب القوافل واحة عشب وماء
وحب الفقير الرغيف

كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة
وجدنا غريبين يوما

ونبقى رفيقين دوما !

وهو يحس بالحنين العميق الى الحب ، بل يرى ان الحب هو خلاصه
من مأساته ، وهو أمله الكبير فى الخلاص :

من بئر مأساتى ... أنادى مقلتيك

كى تحملا خمر الضياء الى عروقى

ماذا يثير الناس ! لو ألقيت رأسى فى يديك

وطويت خصرى فى الطريق

ويعبر محمود درويش نفسه عن هذا الربط الذى يقصد اليه بين الحب
وقضيته الوطنية والانسانية فيقول فى حديثه الى الأستاذ محمد دكروب
فى مجلة الطريق اللبنانية :

« انتى أكتب فى هذه الفترة عن الحب الذى يولد وسط قضية ، فيحمل
ملاحمها وهمومها ويصبح جزءا لا يتجزأ منها . أريد أن أكسر الخائط الذى
يفصل بين العاشقين وبين الشارع فالعاشقان ليسا عاشقين فقط ، ولكنهما
ضحية واحدة وأمل واحد وكفاح واحد . لقد تحدثنا كثيرا عن التحام
الخاص بالعام ، ولكن هذه الظاهرة أصبحت تأخذ شكلا تلقائيا عندي
خاصة فى الأغاني التى أكتبها الآن . ان طعم العلاقات بين العاشقين يحمل
مذاق الواقع الحشن »

على أن محمود درويش يصور لنا أحيانا وطنه في صورة « امرأة »
مسئولة عن مصيرها ... أساءت التصرف وسمحت للآخرين ... لغير أهلها:
الحقيقتين بأن يمتصوها ويسيتوا إليها :
أتحبها ؟

أحببت قبلك
وارتجفت على جدائلها الظليلة
كانت جميلة
لكنها رقصت على قبري ، وأيامي الطويلة
وتخاصرت والآخرين ... بحلبة الرقص الطويلة
وأنا وأنت نعاتب التاريخ
والعلم الذي فقد الرجولة
من نحن ؟

دع نرق الشوارع
يرتوى من ذل رايتنا القليلة
فعلام لا تغضب ؟

وشفاها للراقصين الآخرين
ونهدها يحلب
أنا حملنا الحزن أعواما وما طلع الصباح
والحزن نار تخمد الأيام شهوتها
وتوقظها الرياح

والرياح عندك ، كيف تلجمها
ومالك من سلاح ...
الا لقاء الريح والنيران
في وطن مباح ؟!

هذه صورة نادرة ، وقليل ما تتكرر في شعر محمود درويش ... صورة

المرأة الالهية المسئولة عن مصيرها ، والتي استسلمت لاغتصاب الآخرين ،
والمرأة هنا رمز للوطن ... ومحمود درويش في معظم شعره لا يرمز للوطن
الا بصورة غالية كريمة عزيزة .. باستثناء ما نراه في هذه القصيدة ، حيث
تبدو المرأة - رمز الوطن - خاطئة مقصرة متساهلة في أمر مصيرها وحياتها

هناك صورة أخرى للمرأة في شعر محمود درويش ترمز لاسرائيل :

كفالك يا صديقتي ... ذئبان جائعان
مضى بقايا دمننا ، وبعدنا الطوفان
وان سغبت مرة .. لا تتركى الجثمان
وان سئمت بعدها ، فعندك الديدان
انا خلقنا غلطة .. في غفلة من الزمان
وأنت يا صديقتي العجوز .. يا صديقتي المراهقة
كوني على أشلائنا كالزنبقات العابقة

ثم يقول في نهاية هذه القصيدة - وهي قصيدة ضعيفة على أى حال
في تركيبها وصياغتها الفنية وليست في مستوى شعر محمود درويش الجيد :

يا ويل من تنفست رئاته الهواء

من رئة مسروقة ا

يا ويل من شرا به دماء

ومن بنى حديقة ... ترا بها أشلاء

ياويله من وردھا المسموم

ومعظم النماذج الشعرية السابقة مستمدة من ديوان « أوراق الزيتون »
وديوان « عاشق من فلسطين » . ولكن أجمل وأبقى ما غناه محمود درويش
للحب انما نجده في ديوانه « آخر الليل » . لسوف نجد محمود درويش
في هذا الديوان الذى يرتقى فيه الى درجة عالية من القدرة الفنية ، يربط
أيضا بين الحب والوطن ولكن بصورة أجمل واعمق .. فهو يقول مثلا :
الأرض ، أم انت عندي

أم أتنما توأمان
من مد للشمس زندي ؟
الأرض ، أم مقلتان ؟
سيان ، سيان ... عندي
أو يقول :

وطنى جبينك فاسمعيني

لا تتركيني
خلف السياج
كعشبة برية
كيامة مهجورة
لا تتركيني

*** **

وتعودي أن تحرقيني ،

ان كنت لى ،

شغفا بأحجارى بزيثونى

بشباكى ... بطيني

وطنى جبينك ، فاسمعيني

لا تتركيني !

وفى قصيدته عن مذبحه كفر قاسم ، يصور لنا محمود درويش ، عاشقا
يعود الى حبيبته بعد أن قتله اليهود فى المذبحة ... انه يعود من الموت
ليتحدث الى فتاته ، ويصور لنا الشاعر هنا كيف يموت الحب وتموت
الحياة على يد الاسرائيليين عندما يقول بلسان العاشق المقتول :

لك منى كل شئ

لك ظل لك ضوء

خاتم العرس ، وما شئت

وحاكة زيتون وتين
وساتيك كما في كل ليلة
أدخل الشباك في الحلم ، وأرمى لك فلة
لا تلمنى ان تأخرت قليلا
انهم قد أوقفوني
غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت يا حبيبي
إن خمسين ضحية
جعلتها في الغروب
بركة حمراء ... خمسين ضحية
يا حبيبي ... لا تلمنى
قتلوني ... قتلوني
قتلوني

انها صورة رائعة للحب المقتول ... والحب هنا رمز للحياة المقتولة
والوطن المقتول .. ولكن الحبيب يعود رغم الموت الى حبيبته ، وكذلك
تعود الحياة ، ويعود الوطن
وفي قصيدة عنوانها « الموعد » يصور لنا محمود درويش « الحب في
بلاده » تصويرا انسانيا في غاية العمق والروعة والقدرة على التأثير ..
فماذا يكون الحب في وطن مجروح معرض لألوان العذاب والألم ، وكيف
يمكن أن تكون صورة الحب في قلب مواطن عربي يعيش في هذه الأرض
المحتلة : فلسطين ، وهو مهدد بأن يفقد حياته في كل لحظة ، مهدد بأن
يفقد حبيبته ، مهدد بأن يفقد خبزه وخبز أسرته .. انه حب حزين وهوى
ملىء بالعذاب .. يقول محمود في تصويره الرائع للحب في الوطن الجريح :

وطنى حبنا هلاك والأغاني مجرحة
كلما جاءنى نذاك هجر القلب مطرحة

وتلاقى على رباك بالجروح . المفتحة
لا تلمنى ففى ثراك أصبح الحب .. مذبحة.

وفى احدى قصائد ديوان « آخر الليل » يثير محمود درويش قضية هامة ، فهو لا يجد ما يمنعه ، كفنان صاحب نزعة انسانية عميقة ، من التعبير عن الحب كعلاقة انسانية تربط بين شاب عربى وفتاة يهودية ... ان هذا الحب من الناحية الانسانية ممكن ولا شك ، لأن العربى الانسان يفرق تفرقة كاملة بين « اليهودية » و « الصهيونية » ... بين العلاقة الانسانية العامة والعلاقة المريعة التى فرضتها الصهيونية على العرب . وفى هذه القصيدة الرائعة لمحمود درويش وهى قصيدة « ريتا والبندقية » ، يتحدث الشاعر عن حب بين شاب عربى وفتاة يهودية .. ثم يحدثنا أن هذا الحب كان يمكن أن ينجح ويتحول الى علاقة انسانية أصيلة . ولكن الذى يعوق هذه العلاقة ويعطلها ليس قلب العاشق العربى ولا قلب العاشقة اليهودية .. ان العائق هو الصهيونية .. هو المدفع الصهيونى .. هو البندقية الصهيونية ، لأن الصهيونية ضد الحب ... ضد التقاء القلب بالقلب ، وهى بسبب ذلك كله ضد الحياة ، وضد الجمال ، وضد كل مظهر من مظاهر الانسانية ... ان القوة المعادية للحب هى قوة معادية لكل شئ مثمر بالنسبة للحياة والانسان ، وهذه القوة المعادية للحب هى الصهيونية.

الفتاة اليهودية فى هذه القصيدة اسمها ريتا ، و « ريتا » بالذات اسم يتكرر كثيرا فى الشعر العاطفى لمحمود درويش .. ان « ريتا » هى « ليلي » محمود درويش وموضع عشقه وهواه ... أما العاشق العربى فيتكلم فى قصيدة محمود درويش بلسان الشاعر :

بين ريتا وعيونى بندقية

والذى يعرف ريتا ، ينحنى

ويصلى

لاله فى العيون العسلية
 .. وأنا أذكر كيف التصقت
 بى ، وغطت ساعدى أحلى صغيرة
 وأنا أذكر ريتا
 مثلما يذكر عصفور غديره
 آه .. ريتا
 بيننا مليون عصفور وصورة
 ومواعيد كثيرة

 آه ... ريتا
 أى شىء رد عن عينيك عيني
 سوى اغفاءتين
 وغيوم عسلية
 قبل هذى البندقية !

وهكذا يسقط الحب تحت سطوة العدوان الصهيونى الذى ترمز اليه
 « البندقية » فى هذه القصيدة .. وليست قصة الحب بين عاشق وعاشقة
 هى وحدها التى أفسدتها هذه البندقية .. فهذا الحب هو أيضا رمز
 للحياة والسلام الذى يمكن أن يملأ أرض فلسطين ويجمع بين المسلمين
 والمسيحيين واليهود .. بين العاشق العربى .. وريتا العاشقة اليهودية ..
 لولا العنصرية والنازية الجديدة .. لولا الصهيونية التى تقوم على العدوان
 والتوسع والكرهية العميقة للعرب .

ويلاحظ بعض نقاد محمود درويش أننا لانستطيع أن نخرج من شعره
 العاطفى بصورة امرأة معينة لانساها وانما نذكرها دائما مرتبطة بالشعر
 العاطفى لمحمود .. وهذه الملاحظة صحيحة وتبريرها ولاشك أن « المرأة »
 مرتبطة فى شعر محمود درويش بقضية كبيرة .. أى أن التجربة العاطفية

الخاصة ممتزجة كل الامتزاج بتجربة انسانية أعم وأشمل ، ولذلك فقد ذابت الملامح « الذاتية » للعاطفة عند محمود في العاطفة الكبيرة .. عاطفة الحب للأرض المغتصبة والوطن المجروح .

بقيت هناك ملاحظات أخيرة على التجربة العاطفية في شعر محمود درويش : الملاحظة الأولى هي أن محمود يعبر دائما عن عواطف قوية غير مريضة ولا ملتوية ولا ذليلة . فالعاطفة عنده كبرياء ورجولة وكرامة للقلب العاشق والوجدان المحب ، وقد سجل الشاعر توفيق زياد في دراسته له عن محمود درويش هذه الملاحظة نفسها حيث قال : « ان محمود في حبه لا يعرف الذل ولا التزلف » . وهذه ملاحظة واضحة وأساسية في شعر محمود العاطفي .. انه ليس عاشقا مريضا ، ولا عاشقا من أصحاب الدموع الغزيرة والشكوى المتواصلة المريرة .. بل هو عاشق صادق بسيط مرفوع الجبين حتى في أشد لحظات أساءه العاطفي .

والملاحظة الثانية هي أن شعر محمود درويش العاطفي كثيرا ما يمتزج امتزاجا عميقا بالطبيعة ، ذلك لأنه عاشق يعيش في العراء ، يعيش في الشوارع .. فليس للحب في الأرض المجروحة المغتصبة عش يأويه أو بيت يضم العاشقين بين جناحين دافئين ... فالهوى في هذه الأرض حزين ، يمشى في الطرقات ولا يعرف الاستقرار ، ومن هنا يمتزج هذا الهوى بالمطر والنسيم والنجوم ، وتتشترك كل مظاهر الطبيعة في مباركة هذا الهوى الحزين . « وصوتك كان ياما كان يأتيني من الآبار أحيانا ، وأحيانا ينقطه لى المطر ، نقيا هكذا كالنار .. كالأشجار .. كالأشعار ينهمر » . فالحب مختلف هنا - كالزهور البرية - بالأمطار والآبار والأشجار . وفي قصيدته « قصائد عن حب قديم » نجد نموذجا آخر لهذا الحب الممتزج بالطبيعة امتزاجا عميقا ، حيث يلتمس في الطبيعة دفئا ويبحث عن رداء يحميه من العرى والضياع .. انه نموذج شعري رائع ، منسوج بدقة وعمق وأناقة :

ترجل مرة كوكب

وسار على أناملها ولم يتعب

وحين زشفت ، عن شفتيك .. ماء التوت
أقبل عندها يشرب
وشاركنا وسادتنا ، وقهوتنا
وحين ذهبت لم يذهب !

ان النجم يشارك العاشقين حياتهما ، ويبقى بعد لحظات الهوى دون أن
يرحل .. فهو ذكرى للحب الحزين المغترب .. ومشاركته فى الحب نوع من
رعاية الطبيعة وحنانها على العاشقين .. ان النجم هنا « مندوب » من
الطبيعة لتأكيد هذه العاطفة وتأييدها وحمايتها من متاعب الأيام .
والملاحظة الثالثة والأخيرة هى أن محمود درويش يلتفت كثيرا الى
« العيون » .. انها تلعب دورا كبيرا فى قصائده العاطفية ، وهو يتوقف
أمامها كثيرا ، ويخاطبها ويستمع اليها ويستوحى منها قطرات من العاطنة
المخلصة العميقة النقية . ففى قصيدته « عاشق من فلسطين » يقول :

خذنى تحت عينيك ..
وفى نفس القصيدة يقول عن حبيته :
فلسطينية العينين والوشم
وفى « قصائد عن حب قديم » يقول :

وفى عينيك يا قمرى القديم
يشدنى أصلى
الى اغفاء زرقاء
تحت الشمس ... والنخل
بعيدا عن دجى المنفى
قريبا من حمى أهلى

وهكذا فالشاعر العاشق يشعر بالحرية كلما نظر الى عيني حبيته ...
لأنهما بالنسبة له وطن وطمأنينة وعش جميل يختبئ فيه عصفور قلبه من
عواصف الأيام وأحزان الزمان .

المسيح
يصلب
في
القرن العشرين

في شعر محمود درويش نلتقى برمز يتردد كثيرا في قصائده هو رمز « الصليب » ... ذلك لأن الشاعر العربي الذي يعيش في الأرض المحتلة يحس أنه مصلوب هو وشعبه وأرضه . والصليب رمز يرتبط بفلسطين القديمة ارتباطا كاملا ، فلقد أعد اليهود على هذه الأرض منذ ألفين من السنين تقريبا صليبا ليقتلوا فوقه المسيح ، وكان المسيح يمثل الدعوة الى العدل وتجديد المجتمع اليهودي على أساس من المبادئ الانسانية الرفيعة ، ولكن اليهود حاربوه وقرروا قتله ، وبقيت قصة الصليب منذ ذلك الحين رمزا للفداء والتضحية من أجل خلاص الانسان ... وما حدث لفلسطين في العصر الحديث يشبه الى حد كبير قصة « الصليب » ، فلتد تنزقت فلسطين على يد الصهيونية ... صلبها اليهود وأسالوا الدماء من جسدها ... وأصبحت مأساتها نموذجا غير عادى لأفطع قصة تعرض لها شعب من الشعوب خلال التاريخ الانساني المعاصر . ولو جاء المسيح ليعيش فوق أرض فلسطين في القرن العشرين، ودعا دعوته الى الانسانية والمثل العليا الكريمة التي كان يدعو اليها ، لكان من الضروري أن يعمل اليهود الصهيوينيون على قتله وصلبه لأنهم أقاموا دولتهم على أساس معاد تماما لكل القيم الانسانية التي دعا اليها المسيح ... لقد ذبحوا البشر وأشعلوا العداء بين الناس وأقاموا دولتهم على أساس من الظلم والتعسف والاعتصاب ... وكل هذه المبادئ التي أقيمت فوقها دولة اسرائيل تناقض تمام المناقضة تلك المبادئ التي عاش المسيح من أجلها وعانى الآلام والمصاعب في سبيل انتشارها .

ومن هنا شاع رمز الصليب في شعر محمود درويش ، خاصة وأنه كما

يكشف شعره كثير القراءة للكتب الدينية .. ففي شعره كثير من الاشارات التي تدل على اهتمامه بالثقافة الدينية اهتماما واعيا ذكيا . ورمز الصليب في شعر محمود درويش يشير الى الجو النفسى الذى يعيش فيه الشاعر ، ويشير أيضا وبقوة الى المأساة الفلسطينية ... فالشاعر يحس أنه يعيش في جو من الاضطهاد والمطاردة من العدو الاسرائيلى ، وفلسطين نفسها ممزقة ومصلوبة على يد هذا العدو نفسه . ومن هنا امتلأ شعر محمود درويش بصورة الصليب ورمز الصليب ، ويكثر هذا الرمز على وجه الخصوص في ديوانه الثانى « عاشق من فلسطين » ... فلقد ترددت صورة الصليب في هذا الديوان بكثرة ملحوظة .

وفي قصيدة من قصائد هذا الديوان عنوانها « صدى من الغابة » يقول محمود « وقد أشرت الى هذه القصيدة في فصل سابق » :

من غابة الزيتون جاء الصدى

وكنت مصلوبا على النار

أقول للغربان : لا تنهشى

فربما تشتى السما ... ربما

أنزل يوما عن صليبي ... ترى

كيف أعود حافيا عارى

فالشاعر هنا مصلوب مثل وطنه فلسطين ، ومثل جميع القيم التي يمثلها المسيح وغيره من الأنبياء والشوار والمصلحين ، ولكن الأمل لا يفارق الشاعر في النصر وفي الخلاص من هذا الصليب .. في الخلاص من هذه المحنة « .. ربما تشتى السما .. ربما تطفىء هذا الحشب الضارى » .. ولنلاحظ أن الصليب هنا صليب من النار ، وهى صورة تضاعف معنى العذاب وتؤكد ، وفي قصيدة أخرى بعنوان « قال المغنى » يقول محمود درويش مستخدما صورة الصليب أيضا :

المغنى على صليب الألم

جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء ... سوى الندم :
هكذا مت واقفا
واقفا مت كالشجر
هكذا يصبح الصليب
منبرا ... أو عصا نغم
ومساميره ... وتر
هكذا ينزل المطر
هكذا يكبر الشجر

وفي هذه القصيدة يتحول الصليب الى منبر لاعلان القضية العادلة
والتعبير عنها ، وتتحول مساميره الى أوتار يغنى من خلالها لقضيته النبيلة..
ومن خلال هذا الاحتمال للعذاب ينتصر العدل وينزل المطر ويكبر
الشجر .

وفي قصيدة أخرى بعنوان « شهيد الأغنية » يقول محمود درويش :
ماكنت أول حامل اكليل شوك
لأقول : ابكى !
فعسى صليبي سهوة ،
والشوك فوق جبينى المنقوش
بالدم والندى ... اكليل غار
وعساي آخر من يقول :
أنا تشهيت الردى !

فصورة الصليب تتكرر كثيرا في شعر محمود درويش ... ولا شك أن
محمود هو واحد من أصدق الذين استخدموا هذه الصورة في شعرنا
المعاصر ، فهي صورة تتكرر كثيرا عند الشعراء المعاصرين ، ولكننا نحس

أحبانا انها نقل وتقليد لبعض الشعراء الغربيين مثل « اليوت » ، وليست صورة نابعة من احساس حقيقى وتجربة حقيقية . أما محمود فيستخدم هذه الصورة فى موضعها ... وأى درجة من الآلام تلوح أمام هذه المأساة آلاما سهلة وبسيطة لأن العذاب الذى تحمله ويتحمله المواطن العربى الفلسطينى هو نوع من عذاب الصليب الذى أعده اليهود يوما لقتل المسيح وتعذيبه . وارتباط الصليب بفلسطين ارتباطا تاريخيا ووجدانيا يبرر من ناحية أخرى استخدام الصليب عند محمود درويش ويبرر اختياره للصليب فى قصائده كرمز لآلامه كعربى ورمز لآلام شعبه فى فلسطين . وهذا ماالتقى به على صورة شديدة التركيز ، شديدة التأثير فى قصيدة لمحمود درويش بعنوان رباعيات .. حيث يقول فى الرباعية الأولى :

وطنى ! لم يعطنى حبى لك

غير أخشاب صليبي

وطنى ، يا وطنى ، ما أجملك !

خذ عيونى ، خذ فؤادى ، خذ .. حبيبي !

فالصليب هو تلك المنحة التى نالها الشاعر والانسان العربى محمود درويش هو ورفاقه من أبناء فلسطين ... انه منحة الحب الصوفى العميق والتى تمنحها الأرض المعصوبة بالظلم والدم لكل عاشق من عشاق ترابها وجراحها وما فيها من عذاب وقهر وأمل عريض فى نفس الوقت .

الدين والشورى

صورة الصليب التى تنتشر فى قصائد محمود درويش رمزا للعذاب الذى يعاينه الانسان فى الأرض المحتلة ... هذه الصورة تتصل بفكرة الدين عند محمود درويش ورفاقه . وقد ظهرت الفكرة الدينية فى البداية عند شعراء المقاومة على شكل ثورة من ثورات الشك والتمرد ، وبلغت ثورة الشك هذه حدا يكاد يعتبره المؤمنون الحادا وكفرا كاملين ، ولعل ثورة الشك هذه قد تأثرت بما يمكن أن نسميه باسم « طفولة الأفكار اليسارية » التى شاعت فى بعض الفترات بين شعراء الأرض المحتلة ، صحيح أن الفكر اليسارى الاشتراكى العالمى قد وصل بعد ذلك الى مرحلة عالية من النضج والاكتمال والتفتح والفهم الصحيح للحضارة والثقافة الدينية ، ولكن مرحلة الطفولة اليسارية كانت تبرر لبعض هؤلاء الشعراء « الثورة على الدين » .. على أن هؤلاء الشعراء أنفسهم قد استطاعوا بعد ذلك أن يصلوا الى فكرة أنضج وأعمق ، وتجاوزوا ثورة الشك ، وربطوا بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الحياة ، بين الدين والكفاح من أجل المستقبل الانسانى .

ولا نكاد نعر على أثر واضح لثورة الشك هذه عند محمود درويش اللهم الا فى بعض قصائده الأولى ، مثل قوله فى قصيدة له بعنوان « الموت فى الغابة » :

نامى !

فعين الله نائمة

عنا .. وأسراب الشحارير

والحقيقة عند كل مؤمن — هى أن عين العدل الالهى لا تنام ، ولكن صوت محمود درويش هنا هو تعبير عن لحظة عابرة من لحظات اليأس

والشك .. وهى ليست لحظة أصيلة فى شعره ولا متكررة !
ونجد ملامح « ثورة الشك » هذه بوضوح أكثر عند زميل محمود
درويش الشاعر الموهوب سميح القاسم ... ولنقف لحظة مع ثورة
الشك لنتلقى بعد ذلك بصورة أخرى للربط العميق بين الدين والثورة
من أجل الحرية والعدل .

يعبر سميح القاسم فى قصيدة عنوانها « رسالة الى الله » عن ثورته على
الدين وشكه فى أن الدين له جدوى ، وذلك لأنه يرى « المتدينين » أبناء
الله ضائعين معذيين فى هذه الحياة .

يقول سميح فى قصيدته :

سيد الكون أبانا

ألف آمنا ، وبعد

من حقول البؤس هذى الكلمات

من سفوح جوعت ، من قمم

نسرها أهوى على الشسوخ فى يأس .. ومات

من بحار لم تعد فيها جزيره

لم يعد فيها سوى أشعة الذكرى المريرة

من جنين كبلت فيه الحياة

كل ما تحمل هذى الكلمات

يا أبانا ، يا أبا ايتامه ملوا الصلاة

يا أبانا نحن ما زلنا نصلى من سنين

يا أبانا نحن ما زلنا بقايا لاجئين

أرضنا

من غسل — يحكى — بها الأنهار

— يحكى — من حليب

أنجبت — يحكى — كبار الأنبياء

وعشقناها

ولكننا اتتهينا في هوانا أشقياء

وحملنا كل آلام الصليب

يا أبانا ، كيف ترضى لبنيك البسطاء

دون ذنب - كل آلام الصليب

يا أبانا نحن بعد اليوم لسنا بسطاء

لن نصلى لك كى تمطر قمحا

لن نداوى بالحجابات وبالرقية جرحا

نحن أنجبنا على الحزن كبار الأنبياء

وخلقنا من أمانينا التى تكبر .. ربا

شق من مأساتنا للفجر دربا

ولكن سميح القاسم ينتهى من ثورة الشك فى نفس القصيدة الى طلب

الغفران فى النهاية ، باعتباره خاطئا فى شكه ، ومدفوعا بسبب عذابه الى

هذا الشك :

عفوك اللهم ، ان كانت حروفي مستفزه

أنا انسان من الطين

أنا الخاطيء مذ كنت

ومولاي المنزه

هذه الثورة .. ثورة الشك فى الدين ، يخلقها الاحساس العاطفى الحاد

لدى الشاعر بأنه ضائع ... وأنه محروم من رعاية الله .. ولكن ثورة الشك

هذه سرعان ما تزول وتتحول الى ايمان عميق وربط كامل بين « الدين

والثورة » ... فسميح القاسم نفسه يقول فى قصيدة أخرى مستفيدا من

قراءاته فى الكتب الدينية المختلفة :

أنا قبل قرون

للم أتعود أن أكره

لكنى مكره

أن أشرع رمحا لا يعيا

في وجه التنين

أن أشهر سيفاً من نار

أشهره في وجه البغل المأفون

أن أصبح « ايليا » في القرن العشرين

وايليا هو « نبي يهودى حارب عبادة الأوثان ، وينسب اليه أنه قتل كهنة بعل » فالشاعر هنا يوحد بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الواقع وتحرير الانسان .

على أن المعنى الذى يرتبط فيه الدين والايمان بالثورة نجدده على أوضح ما يكون عند شاعرنا محمود درويش ، واذا كنا لا نجد في شعر محمود درويش الا مظاهر قليلة لنزعة الشك الدينى ، فاننا نجد عنده نماذج واضحة عميقة في نزعتة الى ربط الدين بالثورة ، وبالتغيير وبالكفاح من أجل المستقبل الانسانى .

ويكشف لنا شعر محمود درويش عن ثقافة واضحة في ميدان الكتب الدينية فلقد قرأ الشاعر هذه الكتب واستخرج منها تفسيرات خاصة ، ومواقف محددة تخدم تلك الفكرة التى يعبر عنها .. وهى أن الدين ليس مجرد طقوس وعبادات فقط ، بل هو في جوهره ثورة من أجل الانسان .. ثورة من أجل العدل والحرية والكرامة .. ويهتم محمود درويش على وجه الخصوص بالكتب الدينية اليهودية ، ولعل دافعه الى ذلك أن يستخرج من هذه الكتب ما يدين الاسرائيليين ... بلغتهم ومن كتبهم المقدسة نفسها ... ولقد توقف محمود درويش أمام نبي من أنبياء اليهود بالذات هو « حبقوق » - بفتح الباء وتشديد القاف - وهو أحد أنبياء اليهود الذين جاء ذكرهم في العهد القديم ككائن على اليهود وعلى اسرائيل ، وقد جاء على لسانه في العهد القديم : « الى متى يارب أستغيث ولا تستجيب ،

أصرخ اليك من الظلم ولا تخلص ، لماذا ترينى الاثم وتشهدنى الاصر
ويجرى قدامى الاغتصاب والظلم ويحدث الخصام ويقوم النزاع » .
ثم يقول حبقوق أيضا :

« ويل لمن يبنى مدينة بالدماء ويؤسس قرية بالاثم » .

وماذا تكون اسرائيل .. اذا لم تكن مدينة مبنية بالدماء وقرية مؤسسة
بالاثم؟! .. ان محمود درويش يستعيد صورة هذا النبي اليهودى دائما ،
فهو نبي تأثر على قومه ، تأثر على سلوك بني اسرائيل ... ولو كان هذا
النبي حيا اليوم بأفكاره التى جاء بها العهد القديم لكان من أعنى أعداء
بني اسرائيل .

يقول محمود درويش فى قصيدة له بعنوان رباعيات :

حبقوق ! عد إلينا .. عد وبشر من جديد

وارو مأساة مدينة

فوق تاج الدم قامت والعبيد

ووراء الدم نار ، وضغينة !

وفى هذا المقطع يشير محمود درويش الى كلمات « حبقوق » السابقة :

« ... ويل لمن يبنى مدينة بالدماء ، ويؤسس قرية بالاثم » .

ونلتقى بصورة « حبقوق » مرة أخرى عند محمود درويش فى قصيدة
له عنوانها « نشيد الرجال » .. ففى هذه القصيدة يدير محمود درويش
حوارا بينه وبين هذا النبي التأثر على آثام اليهود .. يقول محمود درويش
فى هذا الحوار :

— آلو ... هالو !

أوجود هنا حبقوق ؟

— نعم من أنت ؟

— أنا ياسيدى عربى

وكانت لى يد تزرع

ترايا سمدته يدا وعين أبى
 وكانت لى خطى وعباءة
 وعمامة ودفوف
 وكانت لى ...
 — كفى يا ابنى
 على قلبى حكايتم
 على قلبى سكاكين ..

هذا هو الموقف الجديد الذى يستخرجه محمود درويش من قلب ثقافته
 الدينية .. انه يكشف عن الصفحات الثائرة فى التاريخ الدينى الانسانى ..
 ولقد كان حقوق بالذات ثائرا على اليهود ومحتجا عليهم معتقدا أنهم
 يخونون مبادئهم الدينية .. وبينون حياتهم بالدماء والآثام !
 ونجد محمود درويش أيضا وفى نفس قصيدته « نشيد الرجال » يقدم
 الينا صورة للمسيحية كما يفهمها .. انها المسيحية المناضلة من أجل
 مستقبل البشر .. ففى حوار يتخيله الشاعر مع المسيح يقول :

— ألو ... أريد يسوع ؟
 — نعم ... من انت
 — أنا أحكى من اسرائيل
 وفى قدمى مسامير ... واكليل
 فأى سبيل
 اختار يا ابن الله ... أى سبيل ؟
 أأكفر بالخلاص الحلو ، أم أمشى ؟
 ولو أمشى وأحتضر ؟
 — أقول لكم ... أماما أيها البشر

فالمسيح كما يتصوره محمود درويش .. وكما يفسره هو داعية للنضال
 من أجل المستقبل الانسانى .. انه داعية الى شعار « .. أقول لكم .. أماما

أيها البشر .. فليس هناك دعوة للاستسلام والتراجع أمام الظلم
ونفس التصور يقدمه لنا محمود درويش للإسلام .. وهو يقدمه لنا في
حوار يتخيله بينه وبين محمد ، النبي العربي الكريم :

— ألو .. أريد محمد العرب

— نعم ! من أنت ؟

— سجين في بلادى

بلا أرض ... بلا علم .. بلا بيت

رموا أهلى الى المنفى

وجاءوا يشترون النار من صوتى

لأخرج من ظلام السجن ... ما أفعل ؟

وبعد أن يطرح الشاعر هذا السؤال ... ما العمل ؟ يتخيل اجابة النبي
العربي الكريم .. ماذا تكون :

تجد السجن والسجان

فان حلاوة الايمان

تذيب مرارة الحنظل !

وهكذا فان روح الأديان واحدة .. انها روح الثورة والتمرد على الظلم
وعلى كل أعداء الانسان .. وبهذه الصورة النبيلة الثائرة المتمردة يفهم
محمود درويش الدين ... ويربط بينه وبين الثورة برباط نهائى وثيق ...
فالدين ثورة ، ورفض للظلم ، ودعوة للبطولة والنضال ضد أعداء
الانسان .. ان الدين قوة تشعل الثورة والمقاومة ولا تدعو الى التسليم
والرضا بمرارة الواقع المظلم .

إنسانيون
لامتعصبون

يمثل محمود درويش مع شعراء المقاومة في الأرض المحتلة موقفا إنسانيا فريدا ... لقد تعرض هؤلاء الشعراء لاضطهاد مادي ومعنوي بالإنعنف والقسوة ، وتعرض شعبهم العربي الفلسطيني لهذا النوع من الاضطهاد نفسه ، وسالت دماء هذا الشعب في مجازر لم تنته منذ سنة ١٩٤٨ الى اليوم ، ولقد كان هذا كله كفيلا بأن يخلق في نفوسهم نوعا من الحقد المرير ضد اليهود ، كشعب وكعنصر انساني معا . ولو حدث ذلك لنفسية الشعراء والمواطنين العرب لكان ذلك شيئا طبيعيا ، فهو رد فعل منتظر لما يتعرض له العرب من قسوة واضطهاد بصورها لنا الشاعر العربي في الأرض المحتلة تصويرا عميقا مؤثرا الى أبعد حد ، ولو قرأنا أى نموذج من نماذج شعر المقاومة في الأرض المحتلة فسوف نجد هذه الصور المثيرة للاضطهاد الاسرائيلي الموجه الى العرب . ويكفى أن نتذكر أحداث كفر قاسم التي تعرضنا لها في فصل سابق والتي قتل فيها ما يقرب من خمسين عربيا من تلك القرية في ساعات قليلة .. ليلة العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ . وقد انتهت هذه المجزرة - كما أشرنا في الفصل الثاني - بمحاكمة مدبرها وهو ضابط اسرائيلي كبير اسمه «شدومي» .. وتقرر في آخر الأمر تعريمه قرشا واحدا ... عقابا له على اغتباله لخمسين انسانا عربيا في ليلة واحدة !

هذا هو بعض العذاب الذي تعرض له العربي في الأرض المحتلة كما تصوره مذبحة كفر قاسم . ومع ذلك لانجد في جميع النصوص التي وصلت الينا لشعراء المقاومة نصا يوحى بالحقد العنصرى ضد اليهود .

ان نظرة محمود درويش وزملاءه من شعراء المقاومة هي نظرة انسانية

نبيلة وشاملة . نظرة تدعو الى العدل ولا تدعو الى الانتقام والشار والحد . نظرة تدعو الى اعادة الحقوق الضائعة دون أن تنزلق الى مهاوى العنصرية التى اندفعت اليها النازية ذات يوم ، عندما وجد هتلر ، مفكر النازية وزعيمها ، أن اليهود يسيطرون على الاقتصاد الألمانى وعلى غيره من مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية فى ألمانيا ، ولم يكن الحل من وجهة النظر النازية هو تحقيق العدل والمساواة بين الجميع ، بل كان الحل هو استئصال العنصر اليهودى والقضاء عليه أينما كان وكيفما كان ... وقد كتب هتلر فى كتابه « كفاحى » يقول عن اليهود :

« ان قذارتهم المادية ليست شيئا مذكورا بالنسبة الى قذارة نفوسهم ، فقد اكتشفت مع الأيام أنه ما من فعل مغاير للأخلاق وما من جريمة فى حق المجتمع الا لليهود يد فيها . واستطعت أن أقيس مدى تأثير « الشعب المختار » فى تسميم أفكار الشعب الألمانى وتخديره وشل حيويته ، بتتبعى نشاطه فى الصحف وفى ميادين الفنون والأدب والتمثيل ، فقد امتد الأخطبوط اليهودى الى هذه الميادين جميعا وفرض سيطرته عليها ووسمها بطابعه . فمعظم المؤلفين يهود ومثلهم الناشرون والفنانون الخ ... وهذا التغلغل فى كل ميدان من ميادين النشاط التوجيهى يشكل طاعونا خلقيا أدهى من الطاعون الأسود وأشد فتكا ، ذلك أن تسعة أعشار المؤلفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التى تروج للأباحية المطلقة هى من صنع اليهود ... »

هذا نموذج من أفكار هتلر الذى يمثل الموقف النازى فى مواجهته لليهود تمثيلا واضحا ودقيقا . ويتضمن هذا الموقف ضد النازية نوعا من الادانة المطلقة الشاملة لكل يهودى على ظهر الأرض بلا استثناء ، فاليهودى ، لمجرد أنه يهودى يجب التخلص منه وابدائه والقضاء عليه من وجهة النظر النازية .

والغريب أن يكون الوجه الآخر للنازية هو الصهيونية ، كل ذلك بعينه

أن ذاق اليهود ألوانا عنيفة من الاضطهاد على يد النازيين ..
ان الصهيونية تكرر المأساة النازية نفسها ضد العرب ، فالصهيونية
تفرض حركة اباداة واضطهاد واسع على العرب في الأرض المحتلة ،
والصهيونية تحاول ان تتوسع في الأرض العربية على حساب الشعب
العربي بكل الأساليب الملتوية .

والنازية كانت تقوم على اعلاء العنصر الالمانى فوق جميع العناصر
البشرية ، والصهيونية تقوم على نفس الفكرة ولكن بالنسبة لليهود ، انها
تعتمد على فكرة التفوق بالنسبة للعنصر اليهودى على غيره من العناصر
البشرية ، ويكفى أن نشير الى عبارة قالها بن جوريون بعد عدوان ١٩٥٦
على مصر ... ان بن جوريون يرى أن هذا العدوان على العرب هو نصر
عالمى لم يحققه شعب آخر ، فهو يقول : « لم يكن انتصارنا في سيناء
هو النصر الأكبر في تاريخ اسرائيل فقط ، بل انه النصر الأكبر في تاريخ
العالم قاطبة » ... ففي هذه العبارة تجسيد واضح للاحساس بالتفوق
الكامل على العرب وعلى غيرهم من الشعوب ، وهو نفسه الشعور بالتفوق
عند النازيين ، ويصاحب هذا الشعور بالتفوق استعلاء واضح على العرب
يلخصه قول كاتب يهودى في تصريح رسمى له « اننا ننظر الى العرب
باستعلاء ، ولا تأخذ أمورهم مأخذاً جدياً ... ونحن نشعر بالتفوق عليهم
ومن الصعب التصور بأن هذا الشعور سيختفى ذات يوم ... »

ويرسم لنا شاعر من زملاء محمود درويش صورة مباشرة قاسية لموقف
اليهود من العرب في قصيدة له بعنوان « انسان مشنوق » ... هذه
القصيدة هي احدى قصائد سالم حبران الذى يعيش في الأرض المحتلة ...
يقول الشاعر في المقدمة النثرية لقصيدته « عرضت في أسواق اسرائيل
لعبة للأطفال تصور عربيا مشنوقا » ... ثم يقول الشاعر في قصيدته ،
وهي قصيدة بسيطة مباشرة تضع اصبعها على الجرح بلا مواربة أو مداراة :

انسان مشنوق

أحلى لعبه
 أحلى ملهامة للأولاد
 تعرض فى السوق
 كلا ... ليست فى السوق
 فلقد بيعت ... نفدت من أيام
 لانبحت عنها ، وليفهم طفلك
 نفدت من أيام
 يا أرواح الموتى
 فى معتقلات النازيين
 الانسان المشنوق
 ليس يهوديا فى برلين
 الانسان المشنوق
 عربى مثلى من شعبى
 يشنقه اخوتكم
 عفوا ... يشنقه أشباه النازيين
 فى صهيون
 يا أرواح الموتى
 فى معتقلات النازيين
 لو تدرون ! ... لو تدرون !

هذه صورة يقدمها لنا شاعر المقاومة ، سالم جبران ، رفيق محمود درويش وزميله فى الفن والمأساة ... ويحس الشاعر احساسا واضحا بتلك العلاقة الوثيقة بين النازية والصهيونية ... ويعبر عن رؤيته للصلة المشتركة بين المذهبين المتعصبين الخاليين من أى نزعة انسانية سليمة .

ومع ذلك كله فان شاعر المقاومة فى الأرض المحتلة على كثرة مآزاه وقاساه يعبر عن نزعة انسانية حقيقية ، انه يعادى الصهيونية ، ويعادى الظلم

الدى تمثله الفكرة الصهيونية وتشله الدولة الاسرائيلية ، ولكنه لا يحمل
حقدا على اليهودى كيهودى ، ولا يحمل عداا للديانة اليهودية ولا للانسان.
اليهودى ، ولم أعثر فى أى نص فرائته من أدب المقاومة على حديث يكشف
أو حتى يشير من بعيد الى نزعة عنصرية متعصبة عند شعراء المقاومة ،
فهم يكرهون الظلم ويحاربونه سواء كان هذا الظلم من أمريكا أو من
اسرائيل . ان الدعوة للعداء الشامل لليهودية ليست موجودة عند شاعر
المقاومة ، فالعدو عند شاعر المقاومة محدد ومعروف بمنتهى الوضوح ...
انه الاستغلال والاحتلال والصهيونية

يقول محمود درويش فى قصيدة له هى « بطاقة هوية » التى أشرنا
اليها من قبل :

سجل

أنا عربى

سلبت كروم أجدادى

وأرضا كنت أفلحها

أنا وجميع أولادى

ولم تترك لنا ... ولكل أحفادى

سوى هذى الصخور

فهل ستأخذها

حكومتكم ... كما قىلا

اذن !

سجل .. برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحد

ولكنى اذا ماجعت

أكل لحم مغتصبى

حذار .. حذار .. من جوعى

ودن غضبى !

فهذا المنطق الذى يسود قصيدة محمود درويش هو منطق انساني سليم ، ليس هو منطق هتلر الذى يكره اليهود ورائحة اليهود واسم اليهود وعنصر اليهود فى أى مكان أو زمان .. ولكن محمود درويش فى قصيدته يكره الاستغلال ، ويرفض موقف اسرائيل من العرب ومن أرضهم وحقوقهم المغتصبة . انه يكره الاستغلال مهما كان مصدره . ثم يعلن أنه كعربي لا يكره الناس ، وانما يكره المغتصبين ... لأنهم مغتصبون لا لأنهم يهود .

لم تخرج اذن عواطف شاعر المقاومة عن الحدود الانسانية على الاطلاق ... لم تخرج الى الحقد والثأر والكراهية الشاملة للعنصر اليهودي مثلما نجد فى موقف هتلر ... انها روح انسانية تقف عند حدود المقاومة والتصدى للعدو .

بل اننا نجد فى قصيدة رائعة أخرى لمحمود درويش عنوانها « جندي يحلم بالزنايق البيضاء » حديثا نبيلاً ومثيراً عن جندي يهودي . فالشاعر يصور هذا الجندي اليهودي انساناً له أحلام عادية كأى انسان طبيعي ولكنه ضحية من ضحايا العنصرية الصهيونية التى جرت والكثيرين غيره من اليهود العاديين الى موقف سيء وخاطيء أدى به الى أن يتحول الى جزار للعرب كما كان النازيون جزارين لليهود ... لقد تمزقت نفسية هذا الجندي وتلوثت بسموم الروح العسكرية الاسرائيلية ففقد انسانيته الكامنة فى أعماقه .. يقول محمود درويش على لسان هذا الجندي اليهودي :

اننى أحلم بالزنايق البيضاء

بشارع مغرد ومنزل مضاء

أريد قلباً طيباً ، لا حشوً بندقية

أريد يوماً مشمساً ، لا لحظة انتصار

مجنونة .. فاشية

أريد طفلا باسم يضحك للنهار

لا قطعة في الآلة الحربية

جئت لأحيا مطلع الشمس

لا مغربها

واننى أرفض أن أموت

أن أحارب النساء والصغار

كى أحرس الكروم والآبار

لأثرياء النفط والمصانع الحربية

وهكذا يستبعد محمود درويش الشاعر العربى الانسان كل عدا بينه وبين هذا المواطن اليهودى العادى ؛ ليصل الى مشاعره الانسانية العميقة ، ويكشف محمود درويش فى قصيدته عن الجانب الانسانى فى هذا الجندى اليهودى الذى شوهته العجلة الحربية وحولته الى سفاح بينما هو فى الحقيقة يحمل قلبا انسانيا وأحلاما انسانية ، ويود لو لم يكن حارسا « للكروم والآبار من أجل أثرياء النفط والمصانع الحربية » .. ويشير محمود درويش الى أن اسرائيل تخدم بوضوح الأثرياء والرأسماليين الغربيين الذين يتاجرون بالمصير الانسانى ولا يهمهم سوى أن تزيد ثروتهم وتزدهر ولو كان ذلك على حساب اشعال الحروب واسالة دماء الملايين ويكشف محمود درويش فى هذه القصيدة الرائعة نفسها عن التشويه الذى أصاب نفسية هذا الجندى اليهودى ، حيث يصوره لنا الشاعر وقد جلس معه جلسة مصارحة ومكاشفة وجدانية صادقة

يصور لنا محمود درويش فى مقطع من قصيدته كيف اسنطاعت الروح العدوانية أن تسيطر على نفسية هذا الجندى ... فعندما وجه اليه الشاعر سؤالا عن عدد قتلاه قال هذا الجندى :

- يصعب أن أعدهم
 لكننى نلت وساما واحدا
 سألته ، معذبا نفسى ، اذن
 صف لى قتيلا واحدا ...
 أصلح من جلسته ، وداعب الجريدة المطوية
 وقال لى كأنه يسمعنى أغنية :
 كخيمة هوى على الحصى
 وعائق الكواكب المحطمة
 كان على جبينه الواسع تاج دم
 وصدره بدون أوسمة
 لأنه لم يحسن القتال
 يبدو انه مزارع أو عامل أو بائع جوال
 كخيمة هوى على الحصى ... ومات
 كانت ذراعاه
 ممدودتين مثل جدولين يابسين
 وعندما فتشت فى جيوبه
 عن اسمه ، وجدت صورتين
 واحدة ... لزوجته
 واحدة ... لطفلته
 سألته : حزنت ؟
 أجابنى مقاطعا : يا صاحبى محمود
 الحزن طير أبيض
 لا يقرب الميدان . والجنود
 يرتكبون الاثم ثم يحزنون
 كنت هناك آلة تنفث نارا وردى
 وتجعل الفضاء طيرا أسودا !

لقد أصاب التشويه المسموم نفسية هذا الجندي اليهودي ... فلم يعد يعرف الحزن ... ولم يعد يتأثر بمنظر الدم .. ولكن هذا كله يخفى تحته استعدادا انسانيا آخر ، فمن الممكن ولأشك أن يتحول هذا الجندي انى انسان عادى ، يحلم أحلاما عادية .. بعيدة عن القتل والدماء ، وطريق إعادة هذا الجندي الى انسانيته هو انتزاع السموم الصهيونية من نفسه ، وابعاده عن التعصب وذلك بالطبع لن يتم الا بتقويض جميع المبادئ الصهيونية العنصرية التى تقوم عليها دولة اسرائيل . فهذا الجندي اليهودي لا تربطه بفلسطين روابط عميقة ... فلا هو من هذه البلاد ، ولا هى أرض أهله وأجداده ... وكما يقول محمود درويش فى نفس هذه القصيدة على لسان الجندي اليهودي فى حديثه عن علاقته بفلسطين :

وكل مايربطنى بالأرض من أواصر

مقالة نارية ... أو محاضرة

قد علمونى أن أحب حبها ،

ولم أحس أن قلبها قلبى

ولم أشم العشب والجذور والغصون ...

وقد أثارت هذه القصيدة من قصائد محمود درويش اعتراض بعض النقاد ، فهاجمها الأستاذ يوسف الخطيب واعتبرها نوعا من التصوير الزائف للنفسية اليهودية ، وذلك فى مقدمته « لديوان الأرض المحتلة » الذى جمع فيه مجموعة ضخمة من قصائد شعراء المقاومة ... يعلق يوسف الخطيب على هذه القصيدة فيقول :

« أى نمط انساني ، عجيب حقا ، ذلك الذى جاء من بولندية ، أو رومانيا ، أو اتحاد جنوب افريقيا ، من أجل أن يبحث عن زنايق بيضاء فى الجولان ، أو فى الغور الأردني أو فى سيناء ... ان هذا الانسان ،

سواء كان في هيئة عامل أو في هيئة مزارع ، أو في هيئة جندي يحلم بالزنابق البيضاء ، لا يكاد يختلف شيئاً عن أيما ضابط هتلري قام بواجبه العسكري على أكمل وجه في ساحة القتال ، أو في أحد أفران الغاز ثم عاد إلى نفسه ليسكر ويكي ، ويتأمل صورة زوجته وطفله الرضيع اللذين تركهما في برلين »

ورغم قيمة اعتراض يوسف الخطيب وذكائه ، فأننى لا أوافق عليه ، فالنزعة الانسانية التي يعبر عنها محمود درويش في شعره تبرر مثل هذه القصيدة وتجعل منها عملاً فنياً وفكرياً ممتازاً ... وموقف محمود درويش هنا يناقض تماماً الموقف النازي والموقف الصهيوني ... انه موقف عربي انساني يريد القضاء على الظلم والعدوان ولا يريد أن يخوض في دماء اليهود ، كبشر ، أو كأصحاب ديانة ... فليس بينه وبين اليهود مشكلة ، ولكن المشكلة كل المشكلة بينه وبين الصهيونية التي اغتالت مصالح العرب وضللت نسبة كبيرة من اليهود العاديين أنفسهم

وفي قصيدة محمود درويش الى جانب ما تكشفه من عناصر انسانية في شخصية الجندي اليهودي كشف للتشويه الذي أصاب هذه العناصر الانسانية وأخفاها ، وحول هذا الانسان اليهودي البسيط الى سفاح ... فليس في قصيدة محمود درويش اذن سذاجة فنية أو فكرية تدفعه الى أن يثير في نفوسنا تعاطفاً مع الجندي اليهودي .. كلا.. ان الشاعر هنا يكشف لنا ذلك الجندي اليهودي بجانيه : الانساني وغير الانساني معا ... ليقول لنا في النهاية بإيحاء فني عميق ... ان الجانب الانساني ضاع تحت ضغط الجانب الآخر ، غير الانساني .. وان هذا الجندي كان من الممكن أن يصبح زوجاً وأباً طيباً وعاملاً من العمال المنتجين ولكن الصهيونية حولته الى مجرم وقاتل وعدو من أعداء الانسان والحياة .

ومن الضروري أن نلتفت الى أن محمود درويش قد استفاد من ثقافته الاشتراكية في تدعيم نظرته الانسانية هذه ، وهي النظرة البعيدة عن أي

عنصرية ترفع الجنس العربى فوق بقية الأجناس والشعوب ، وبعيدة عن
أى تعصب ضد اليهود كجنس أو كديانة ... والاشتراكية ترفض كل مظاهر
العنصرية والتعصب ، انها نظرية تدعو الى الانسانية والعدالة والاخوة
البشرية بكل ما فى هذه القيم من معان رحبة واسعة .

ولا شك أن الثقافة الاشتراكية عند محمود درويش قد قادت الى هذه
النظرة الانسانية الشاملة وساعدته على التزام هذا الموقف البعيد عن أى
تعصب أو حقد عنصرى .

وموقف محمود درويش هو موقف كل شعراء المقاومة فى الأرض
المحتلة ... انهم انسانيون لا متعصبون .. دعوتهم هى الحرية والعدل
وليست هى الانتقام أو العدوان على الآخرين أو التعالى على شعب من
الشعوب .

بدلاً من الحب القاسي

محمود درويش شاعر غزير الانتاج بصورة واضحة ، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة من الغزارة الفنية أن نلتقي بعدد من ظواهر الضعف في قصائده المختلفة ... ان شاعرية محمود درويش أشبه بالحديقة المليئة بالورود ، ولكنها في نفس الوقت لا تخلو من الأشواك والأعشاب والنباتات الطفيلية المختلفة ، و لعل كثرة الانتاج وسرعته في الفترة الأخيرة هما المأخذ الرئيسى على محمود درويش من جانب النقاد المختلفين ، فشاعر في مثل موهبته وأصالته ينبغي عليه أن يرعى هذه الموهبة ويستثمر هذه الأصالة بحرص وحذر واتباه لكل نبضة من نبضات قلبه وفنه ، ان وفرة الانتاج وسرعته سوف يستتبعان حتما نوعا من الضعف يتسرب الى مثل هذا الانتاج ، ولقد كانت هذه ملاحظة عامة ترددت أخيرا حول شعراء الأرض المحتلة جميعا لا حول محمود درويش وحده ... فقد لاحظ الكثيرون أنه منذ سنة ١٩٧٠ والحياة الأدبية تتلقى قصائد الأرض المحتلة بوفرة غير مألوفة ، وأنه من خلال هذه الوفرة الشعرية لا يحتفظ الفن بمستواه الجيد على الدوام .

على أن محمود درويش له كشاعر عيوبه الفنية المحددة التي ينبغي الإشارة إليها في أى بحث بعد أن انتهت مرحلة التعرف الأولى على شعره ، ولعل محمود درويش نفسه يطالبنا بذلك في مقالة مشهورة له بعنوان « انقذونا من هذا الحب القاسى » ..

وفي هذه المقالة ينادى بالنظر الى شعر المقاومة بقدر أكبر من الموضوعية والحياد والتخلي عن العاطفية المسرفة ... يقول محمود درويش في هذه المقالة الهامة عن موقف الناقد خارج الأرض المحتلة من الشعر العربى داخل

اسرائيل . « ان الناقد لا يزال مشغولاً بالفرح الذى يملأه نتيجة اكتشافه هذا الشعر دفعة واحدة ، ولا يزال العطف على الشباب الذين يكتبون الشعر ، فى ظروفهم السياسية الخاصة هو المعيار الأول فى عملية نقد شعرنا ، وقد يكون لهذا الدافع ما يبرره فى فترة ما ، ولكن امتداد هذه الفترة محاط بالمخاطر التى تخلق نتائج ضارة قد تتطور الى ما يشبه الخداع ... خداع القراء العرب ، وخداع شعرائنا أنفسهم ... الذين يواجه بعضهم خطر الاحساس بالكمال . ولذلك فان الضرورة تلح على وضع حركة الشعر فى بلادنا فى مكانها الصحيح . والضرورة تلح ، بادئ ذى بدء ، على معاملة هذا الشعر على أنه شعر ، بالتخفيف من تسليط الضوء على شخصيات الشباب الذين يكتبونه ، ولا نغنى بذلك اسقاط الرابطة بين النماذج الشعرية وبين الظروف التى فرزتها أو التى جرت فيها عملية خلق هذه النماذج ، وانما نغنى أنه آن الألوان لاجراء عملية موازنة ، بالتأكيد على استخدام المعايير الفنية لا السياسية وحدها ، فان الموضوع المطروح على بساط البحث فى آخر المطاف هو الشعر لا الاخلاص ولا النوايا الطيبة » .

« ... وملخص القول أنه آن الألوان لأن توضع حركتنا الشعرية فى مكانها الصحيح بصفتها جزءا صغيرا من حركة الشعر العربى المعاصر عامة . وذلك يستدعى تخلص الناقد العربى من الخضوع التام لدوافع العطف السياسى وحدها على أصحاب هذه الحركة فلا يكفى هذا الشعر أنه يكتب فى اسرائيل ، ان وضع الحركة فى مكانها الصحيح هو خير طريقة لنموها وتطورها لارتداد آفاق أوسع ، خاصة اذا تذكرنا دائما أنها ما زالت فى المراحل الأولى من الطريق الطويل » .

هذا هو ما ينادى به محمود درويش ويدعو اليه ، وهو نداء صادق ودعوة حقيقية ... فماذا نجد - بعد ذلك - فى شعر محمود درويش من أخطاء وعيوب ؟ .. اننا اذا تركنا ديوانه « عصفير بلا أجنحة » ، وهو فى

الجملة ديوان ضعيف سواء في تعبيره الفني أو فيما يضمه من أفكار وتجارب ، فانا نلتقى ببعض ظواهر الضعف في دواوينه الأخرى التي نضج فيها واكتملت له أدواته الفنية والفكرية .

وهذه العيوب والأخطاء نلخصها فيما يلي :

١ - في بعض قصائد محمود درويش نلتقى بنوع من التقريرية التي تشبه أشعار الحكمة المعروفة في الأدب العربي القديم . ومن أمثلة هذه النزعة التقريرية ما نقرأه في قصيدة « أمل » المنشورة في ديوان « أوراق الزيتون » حيث يقول الشاعر :

ما زال في صحنكم بقية من العسل
ردوا الذباب عن صحنكم لتحفظوا العسل

هنا صورة تقريرية مباشرة خالية من الجمال الفني ، وهي تذكرنا بالتعليمات الأخلاقية المدرسية مثل « نم مبكرا واستيقظ مبكرا » و « لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » . ان الشرارة الشعرية منطقتة في مثل هذا اللون من الشعر التقريري الجاف . ونحن نلتقى بهذا اللون من التقريرية هنا وهناك في قصائد محمود درويش المختلفة وأحيانا تختلط هذه التقريرية بالخطابة والموسيقى الشعرية الصاخبة ... فتصبح هتافا أو شعارا من الشعارات مثل قوله في قصيدته « عن الصمود » من ديوانه « أوراق الزيتون » :

الأرض والفلاح ، والأحرار
قل لى : كيف تقهر
هذى الأقانيم الثلاثة ،
كيف تقهر ؟

٢ - يخطئ محمود درويش أحيانا في الأوزان الشعرية رغم حاسنه الموسيقية الجميلة الواضحة ... يقول في قصيدة له بعنوان « عن انسان » :

أخذوا طعامه والملابس والبيارق
ورموه في زلزاة الموتى
وقالوا : أنت سارق

والبيت الأول مكسور وبه خطأ واضح في العروض الشعرى .

٣ - هناك ألوان أخرى من هذه الأخطاء الصغيرة نجدها في شعر محمود درويش ، وخاصة أخطاء اللغة ... فعندما يقول في قصيدته « قشور البرتقال » :

- لا تسكب الصودا بكأسى !

- هل تخاف من الفقاعة ؟

هنا نجد الخطأ في كلمة « الفقاعة » ... فلا بد من تشديد القاف حتى تصبح الكلمة عربية صحيحة ، ولكننا اذا نطقناها بهذه الطريقة الصحيحة انكسر وزن البيت ولذلك فلا بد أن تنطق بضم الفاء وفتح القاف مع الغاء تشديد هذه القاف ... وهذا خطأ ، فليس في اللغة العربية كلمة بهذه الصورة .

وفي قصيدته المشهورة « عاشق من فلسطين » يقول محمود درويش :

سأكتب جملة أعلى من الشهداء والقل :

« فلسطينية كانت ... ولم تزل »

والخطأ هنا في كلمة « الشهداء » ، فالشاعر يقصد كلمة « الشهيد » ومعناها كما تقول المعاجم العربية « غسل النحل ما دام لم يعصر من شمعه » ... و « الشهداء » بضم الشين وتسكين الهاء لا وجود لها في اللغة العربية بهذا المعنى .

٣ - تلك نماذج من الأخطاء الصغيرة في شعر محمود درويش ولكن هناك بعد ذلك مجموعة من الملاحظات الأساسية التي تتصل بجوهر الفن الشعرى .

من هذه الملاحظات أن محمود في شعره الرومانسى العاطفى ، وخاصة في المرحلة الأولى من انتاجه الفنى ، يقدم لنا قصائد تكاد تكون تكرارا في

صورها ولغتها وجوها لما كتبه شعراء الرومانسية القدماء ، فروح التقليد تسيطر على هذه النماذج بحيث تواجهنا من خلالها أرواح شعراء الرومانسية من أمثال ناجى وعلى طه والياس أبو شبكة وغيرهم ، ولا يقتصر الأمر هنا على التقليد العادى ، بل هو تقليد للنماذج الرديئة عند الشعراء الرومانسيين ... ومن هذه النماذج قصيدة « وهم » المنشورة فى « أوراق الزيتون » وفيها يقول :

يا ضحكة العينين ، لا تتجبرى
لا ... لن يصدق قلبى الموهوم
أرجوك ! غطى بالوعود بدايتى
ودعى المصير ... كما المصير يروم
أنا عارف أن الرماد نهايتى
مادمت حول لظى الشفاء ... أحوم
لكننى - وحياة أبخل بسمة
يعتز فيها عمرى المهزوم
راض بأى نهاية ما دام فى
حضن الملاك ضريحى المرحوم

فى هذه القصيدة تقليد واضح للرومانسيين فى نماذجهم الضعيفة ، حيث يعتمد الشاعر على الألفاظ البراقة والصور المزخرفة والمبالغات العاطفية دون أن تكون لديه تجربة وجدانية حقيقية وصادقة ... فالمرأة ملاك ، والشفاء ملتبة كاللظى ، والقلب موهوم ... الخ تلك الصور الرومانسية العامة الخالية من العمق والايحاء الشعرى والرؤية الوجدانية الخاصة

٤ - ملاحظة أخرى تتصل باستخدام محمود للرموز والأساطير ، فهناك طريقتان لهذا النوع من الرمز ، الطريقة الأولى هى استخدام الرمز على أنه نوع من « الاستعارة المحدودة » بحيث يتحول الرمز داخل القصيدة ، الى رمز جزئى لا يشع على القصيدة ككل ... وهذا طبعا استخدام ضعيف

وجزئى للرموز ، أما الاستخدام الآخر فهو أعمق وأثقل شاعرية ، حيث يتجه الفنان الى جعل الرمز محورا لبناء قصيدته كلها ، فعندما نقرأ مثلاً قصيدة بدر شاكر السياب « مدينة بلا مطر » نجد أن الشاعر قد بنى قصيدته الرائعة على رمز أساسى هو رمز مدينة بابل التى تخلى عنها انه الحصب « تموز » ولم يسقط عليها المطر فذبلت المزروعات ومات الناس من الظمأ وانتشرت المحنة ... ان القصيدة كلها مبنية على محنة المدينة المأزومة المحرومة التى تتوسل الى الاله الغاضب ، لتحل النعمة من بين يديه محل اللعنة . والرمز يشمل القصيدة كلها ويشيع فيها كثيراً من النور والفن .

وفى هذا المجال نجد أن محمود درويش من شعرائنا الذين يوفقون كثيراً فى استخدام الرمز بصورته الثانية ... فيبدو الرمز عنده رئيسياً تدور حوله حركة القصيدة كلها ، ومثال ذلك قصيدته عن « أثينا » بعد اعتقال الموسيقار « تيودوراكس » ... فالمدينة التى اعتقل ملحنها تبدو كتيبة مجدية مختنقة بالشقاء والتعاسة ، وتمتلئ القصيدة بعد ذلك بالصور المستمدة من هذه الفكرة ، أو من هذا الرمز الذى هو اعتقال الفنان فى المدينة ... ما دام الفنان معتقلاً فالحب ممنوع والقهر يفرض سلطانه على كل شئ حتى الأغاني والياسمين والقمر .

ولكن محمود درويش يقع فى أحيان أخرى فى الاستخدام المحدود السريع للرموز ، ويكتفى باستخدام الرمز الكبير فى صورة جزئية داخل القصيدة ... ويترك الرمز تماماً بعد بيت أو بيتين ، وتبدو الصور الجزئية فى ذاتها جميلة ... ولكنها - على جمالها - تعتبر درجة أقل من درجات الشعر ... ودرجة أقل من درجات الرمز الشعرى الناجح .

يقول محمود درويش فى قصيدته « فى انتظار العائدين » :

وأنا بن عويلس الذى انتظر البريد

من الشمال

ناداه بحار ولكن لم يسافر
لجم المراكب : وانتحى أعلى الجبال
يا صخرة صلي عليها والدي ، لتصون ثأئر
أنا لن أبيعك باللآلى ... لن أسافر
لن أسافر ... لن أسافر !!

فعوليس هنا هو « أوليس » بطل ملحمة الأوديسة المعروفة ، وهو غائب
عن أرضه بسبب من السحر الذى نزع من هذه الأرض وأبعده عنها ،
وبعد خروج « أوليس » عاشت زوجته « بنيلوب » وواصلت الانتظار ،
رغم الألم والمشقة ومرور الأيام واغراء العاشقتين لها بأن تنساه ، وكان
ابن « أوليس » : « تيلماك » يصحب البحار « منتور » للبحث عن أبيه في
شتى المجاهل ... أما بنيلوب فهي تنتظر : وفيه مخلص لا تنسى بطلها
وزوجها الغائب الحبيب .

والرمز كما استخدمه محمود درويش ينطبق على قضية فلسطين ...
فمحسود هنا وكل عربى في الأرض المحتلة هو ابن « أوليس » : ابن الشعب
المطرود الغائب عن أرضه التى تنتظره وتستعد لعودته رغم بعد الزمن
وشدة القهر والاغراء بالنسيان . والمفروض أن يرحل الابن وراء أبيه
ليبحث عنه ولكن محسود يرفض أن يخرج بحثا عن أبيه ويدعو الى ضرورة
التمسك بالأرض والبقاء فوقها ... ولسوف يعود الأب حتما الى أرضه
وزوجته الحبيبة ويتنصر على الغاصبين .

الآيات جميلة ولا شك ، والفكرة الشعرية نفسها خصبة ... ولكن
محسود درويش أضع خصوبة الرمز الذى كان يمكن أن يعطيه قصيدة
كاملة تستمد وهجها الشعرى من صورة أوليس ومحنته ، لقد اكتفى
محسود درويش بالاستعارة في حدود آيات ثلاثة ... فأضع بذلك فرصة
استخدام الرمز بصورة شاملة كأساس للقصيدة كلها ... أين وفاء بنيلوب
لزوجها الغائب ؟ ولماذا غاب الزوج ورحل ؟ .. لقد كان باستطاعة محسود

بحثنا عن الشعر الأفضل ، وعن الاستخدام الأعمق والأدق للرمز أن يبنى قصيدته أساسا على هذا الرمز ، خاصة وأنه يقدم لنا تطورا في الأسطورة ... فالابن في الأسطورة الأصلية يخرج لبحث عن أبيه ، ولكن الابن كما يصوره محمود درويش يرفض الخروج ، وهذا الابن يذكرنا من ناحية أخرى بابن نوح الذى رفض أن يركب مركب أبيه وينجو من الطوفان ، فبقى فى أعلى جبل بمدينةته وغرق مع هذه المدينة ... وصورة ابن نوح تطل علينا خاصة من هذا البيت « نجم المراكب وانتحى أعلى الجبال » .

هذا الاستخدام الضعيف المحدود للرمز يواجهنا فى عدة قصائد أخرى لمحمود درويش ... انه يكتفى باستخدام الرمز الكبير استخداما عرضيا وجزئيا دون أن يجعل منه محورا وبذرة أساسية للتكوين الشعرى كله . ولو التفت محمود درويش الى هذا العيب فى استخدامه للرموز والأساطير فلسوف يقفز بشاعريته الحصبة قفزات رائعة الى الأمام .

هـ - من عيوب محمود درويش الفنية أيضا أننا فى بعض قصائده نحس بوجوه شعراء آخرين تطل علينا وتكون بالنسبة لنا أبرز من وجه محمود نفسه . ويعود هذا الأمر الى سرعة تأثر محمود بما يقرأ ، والمفروض أن يتخلص الشاعر من كل الأصوات الخارجية حتى يبقى له على الدوام صوته الخاص المستقل .

ففى قصيدة « آه .. عبد الله » من ديوان « العصفير تموت فى الجليل » نحس فى بعض الأبيات صوت صلاح عبد الصبور أكثر مما نحس بصوت محمود درويش ، والقصيدة فى جملتها من أرق وأعذب قصائد محمود درويش ، ولا يعيبها الا ما نشعر به أحيانا من تأثير قصيدة « شفق زهران » لصلاح عبد الصبور على بعض أجزاء القصيدة ، والفكرة العامة فى القصيدتين متشابهة ، « فزهران » هو فلاح مصرى بسيط أعدمه الانجليز فى حادثة دنشواى المعروفة . وعبد الله أيضا هو فلاح عربى قتله الاسرائيليون فى الأرض المحتلة :

يقول محمود درويش بعد شفق عبد الله :
... وتدلّى رأس عبد الله
في عز الظهيرة

ويقول صلاح عبد الصبور بعد شفق زهران :
صنعوا الموت لأحباب الحياة
وتدلّى رأس زهران الوديع
وفي فقرة أخرى من قصيدة محمود درويش يقول :
كان عبد الله حقلاً
لم يرث عن جده الا الظهيرة
وانكماش الظل والسمة
عبد الله لا يعرف الا
لغة الموالي ، والموالي مفتون بليلي
أين ليلي ؟

لم يجدها في الظهيرة
ويقول صلاح عبد الصبور في شفق زهران :
كان زهران غلاماً
أمه سمراء والأب مولد
وبعينيّه وسامة
وعلى الصدغ حمامه
وعلى الزند أبوزيد سلامه
ممسكاً سيفاً ، وتحت الوشم نبش كالكتابة
اسم قريه

« دنشواي »

شب زهران قويا

ونقيا

نظاً الأرض خفيفاً

وأليفا

كان ضحكا ولوعا بالغناء

وسماع الشعر في ليل الشتاء

الروح في المقطعين متشابهة الى حد بعيد... فعبد الله عند محمود درويش لا يعرف الا لغة الموالي وزهران عند صلاح عبد الصبور « كان ضحكا ولوعا بالغناء » ... على أننا للانصاف اذا كنا نشعر بروح قصيدة صلاح عبد الصبور في بعض مقاطع قصيدة محمود درويش ... فان قصيدة محمود في آخر الأمر تعطينا - ككل - طعما مختلفا مستقلا رغم التأثير الجزئي بقصيدة صلاح ، وهو تأثير ينبغي على شاعر موهوب أصيل مثل محمود درويش أن يتخلص منه .

نموذج آخر لهذا التأثير بصلاح عبد الصبور أيضا أحسست به في هذه الأبيات من قصيدة « الموعد الأول » لمحمود درويش :

سنلتقى غدا

ولفها الطريق

حلقت ذقني مرتين

مسحت نعلي مرتين

أخذت ثوب صاحبي وليرتين

لأشتري حلوى لها وقهوة مع الحليب

هنا لمسة من التأثير بقصيدة « الحزن » لصلاح عبد الصبور :

ورجعت بعد الظهر في جيبي قروش

فشربت شايا في الطريق

ورتقت نعلي

ولعبت بالنرد الموزع بين كفي والصديق

والتأثر هنا تأثير « تعبيرى » لأن تجربة الشاعرين مختلفة كل الاختلاف وان كان الشاعران يستمدان صورهما من الاهتمام بتصوير الحياة اليومية

وهو اهتمام شائع في الشعر الجديد .
ومن نماذج التأثير بالأصوات الشعرية الأخرى ما أحسست به في بعض
مقاطع قصيدة « نشيد الرجال » من تأثر محمود الواضح ببعض قصائد
« السياب » حيث يقول محمود درويش :

ذليل أنت كالأسفلت
ذليل أنت
يا من يحتمي بستارة الصخر
غبي أنت .. كالقمر
وفي مقطع آخر من القصيدة نفسها يقول محمود :
سبايا نحن ، نعطيهم بكارتنا
وما شاءوا
لأنهم أشداء

ونرقد في مضاجع قاتلي أبطال طروادة
في هذه المقاطع أحسست بشيء من أنفاس قصيدة « مدينة بلا مطر »
التي أشرت إليها من قبل وهي قصيدة مشهورة للسياب ... يقول السياب
في هذه القصيدة :

ونحن نهيم كالغرباء من دار الى دار
لنسأل عن هداياها
جياع نحن ... وا أسفاه ؟ فارغتان كفاها
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب

فقول محمود درويش « غبي أنت ... كالقمر » يذكرني على الفور
بقول السياب « باردتان كالذهب » وقول محمود « سبايا نحن ، نعطيهم
بكارتنا .. وما شاءوا » يذكرني بقول السياب « جياع نحن وا أسفاه !
فارغتان كفاها » ... النعم واحد وروح التعبير واحدة ، وان كانت

التجربتان بعد ذلك مختلفتين كل الاختلاف .
وهناك بيت لمحمود درويش في قصيدته « قصائد عن حب قديم »
يقول فيه « وقلبي بارد كالماس » وهذه الصورة قريبة جدا من قول
السياب « باردتان كالذهب » .

على أن تأثر محمود درويش بالسياب يتضح أكثر أمامنا في قصيدة
محمود درويش « تموز والأفعى » ففي هذه القصيدة نفس الفكرة
والعلاج الفني الذي نجده في قصيدة « مدينة بلا مطر » للسياب حيث
تقوم القصيدتان على فكرة واحدة هي فكرة المدينة التي تظلى عنها
اله الخصب « تموز » فأجذبت وأقترت وأخذ نساؤها وأطفالها يتوسلون
الى الاله أن يعيد الخصب الى الأرض ، وتنتهى القصيدة عند السياب
بعودة الخصب ، أما قصيدة محمود درويش ففيها تبقى المدينة مقفرة
مجدبة بعد أن تظلى عنها تموز ... وروح القصيدتين متشابهة تماما وان
كانت قصيدة السياب أكثر عمقا وأرقى في بنائها الفني من قصيدة محمود
درويش .

قد تبدو شبهة التأثير في هذه النماذج كلها محدودة بل ومقبولة ومبررة
أيضا ، ولكن ما أعنيه عموما هو أن الشاعر القادر ينبغي أن يتخلص من
الأصوات الشعرية التي تفرض نفسها عليه من خارجه ... وهذه الأصوات
الخارجية تبدو واضحة في بعض قصائد محمود درويش وهو الأمر الذي
نتنظر منه أن ينتبه اليه ويقضى عليه .

٦ — يستسلم محمود درويش أحيانا للاستطراد أو مانسميه باسم
« التداعى الحر » بصورة تحتاج الى المراجعة ، يقول محمود في قصيدته
عاشق من فلسطين :

خذينى تحت عينيك
خذينى ، أينما كنت
خذينى ، كيفما كنت

أرد الى لون الوجه والبدن

وضوء القلب والعين

وملح الخبز واللحن

ان الشاعر هنا يستسلم لدعوته الى أرضه أو حبيته أن تأخذه ...
فيكتب بيتا من الشعر الحقيقي هو « خذيني تحت عينيك » ولكنه يكتب
بعد ذلك - استطرادا - بيتين لا شعر فيهما ولا ضرورة لهما هما :
« خذيني أينما كنت » و « خذيني كيفما كنت » ... فهذا البيتان خاليان
من الشعر ، ولا ضرورة لهما ، بل انهما يبدآن التركيز الجميل الذي
يتمتع به البيت الأول : خذيني تحت عينيك - الشاعر هنا مطالب بأن
يبقى على الشعر ويحذف أى شئ سواه ... والشاعر مطالب بالألا يستسلم
للكلمات أو للانغام ففي ذلك ضرر فنى واضح لا شك فيه .

وفي مطلع مشهور من نفس القصيدة يقول محمود :

فلسطينية العينين والوشم

فلسطينية الاسم

فلسطينية الأحلام والهـم

فلسطينية المنديل والقدمين والجسم

فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد والموت

من الواضح هنا أن الشاعر « استعذب » كلمة فلسطينية . فكررها
تكرارا كـميا لا ضرورة له لأن التركيز هنا أجدى وأكثر قدرة على الإيحاء
بالمعنى الذى يريده الشاعر ، فلو استمر محمود فى أوصافه بهذه الطريقة
لوضع بعد كلمة « فلسطينية ... » كل صغيرة أو كبيرة تتصل بجسم
حبيته التى ترمز لوطنه ... كان يستطيع أن يضيف الى أوصافه أنها
« فلسطينية الرموش والأجفان والشعر والأظافر ... » وهذا ما يوحى به
استطراده غير الدقيق ، فالشعر الحقيقى لا يمكن أن يتوفر من خلال هذا

الاستطراد البالغ ، ولكن الشعر يولد من التركيز والانتقاء والاختيار
ولو اكتفى الشاعر بقوله « فلسطينية العينين والوشم ... » لكان ذلك
أكثر شاعرية وتأثيرا على النفس من كل ما جاء بعد هذا الوصف من صور
أخرى ، والحقيقة أن محمود درويش قد انتبه في اتجاهه الأخير إلى قضية
التركيز هذه انتباهها واضحا حيث يسيطر في شعره الأخير على تداعى
الصور والألفاظ ولا يستسلم لأغراء الاستطراد .

٧ - الملاحظة الأخيرة تتصل بغموض بعض أشعار محمود الجديدة ...
فاذا كان الغموض عنده في معظم أشعاره الأخيرة له دلالاته العميقة كما
ناقشنا ذلك في فصل سابق عن « الغموض والتصوف » ، فإن الغموض
في بعض نماذجه الشعرية لا يعطى للقارئ شيئا على الإطلاق ، بل يبدو
مغرقا في جفافه وعمته ، وهو غموض لا يلقي علينا شعاعا واحدا من
النور . وهذا النوع من الغموض ينبغي أن يتخلص الشاعر منه ... ومن
نماذج هذا الغموض الخالي من الأيحاء والتبض والعطاء الشعرى الإنسانى
قصيدة لمحمود بعنوان « الدانوب ليس أزرق » يقول فيها :

هى لا تعرفه

كان الزمان

واقفا كالنهر فى جثته

قالت له :

عندى مكان

كان ذاك اليوم صيفيا

وكان العاشقان

يستردان من الرزنامة الأولى

حساب الشمس

كان الأمس

والحاضر كان

هى لاتعرفه
 قالوا لها : يأتى مع النهر
 الذى يأتى مع الفجر
 وكان التوأمان
 ضفتى نهر ... يسيران معا
 أو يقفان
 وهما ... لا يعرفان

هذه بعض مقاطع من القصيدة ... وهى قصيدة مغلقة سواء فى دلالتها
 الجزئية أو فى دلالتها العامة ... انها لاتعطينا سرها بسهولة ولا بصعوبة .
 وهذا النوع من الغموض يواجهنا فى بعض شعر محمود درويش ... وهو
 غموض ينبغى أن يتخلص منه الشاعر وأن يبقى على غموضه الآخر ...
 غموضه الصوفى العميق الذى يشدنا معه الى عالم من الجمال والاحساس
 الصادق ... وهو عالم له أسرارہ أيضا ولكنها أسرار مكشوفة أمام القلوب
 الحساسة والنفوس المرفهة .

اتهامات ظالمة

في صيف عام ١٩٦٨ (١) وجهت بعض الصحف العربية اتهامات عنيفة الى محمود درويش وزميله الشاعر سميح القاسم . وخلاصة هذه الاتهامات أن الشاعرين العربيين قد اشتركا في الوفد الاسرائيلي في مهرجان الشباب في صوفيا عاصمة بلغاريا ، وهو المهرجان الذي عقد في صيف عام ١٩٦٨ ، وقالت الاتهامات التي انصبت على رأس الشاعرين أنهما كانا يحملان « الباسبور » الاسرائيلي ويسيران وراء العلم الاسرائيلي وأنهما في أحاديثهما المختلفة قد هاجما العدوان الاسرائيلي الأخير على الأراضي العربية ولكنهما لم يطالبا بإزالة الكيان الاسرائيلي كله .

هذه هي التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله سميح القاسم ، وإذا كان محمود درويش وزميله يحتلان الآن مكانا بارزا في الحركة الأدبية العربية المعاصرة عموما ، ويحتلان مكانا بارزا في أدب المقاومة العربي على وجه الخصوص ، كل ذلك لأنهما شاعران موهوبان يكتبان بحرارة وأصالة عن قضية فلسطين ، وهما يكتبان من موقع خاص يتيح لهما أن يعيشا هذه القضية بصورة عنيفة قاسية فهما من بين المواطنين العرب الذين يقيمون داخل إسرائيل .. إذا كان محمود درويش وزميله يمثلان هذا كله فإن هذه التهم الموجهة الى الشاعرين تمثل نوعا من الصدمة العنيفة للمواطنين العرب الذين قرأوا محمود درويش وسميح القاسم ووضعوهما موضع التقدير والاحترام واعتبروهما مثالا للفنانين المناضلين المؤمنين بقضية العرب إيمانا عميقا .

(١) كتبت هذا الفصل في الطبعة الأولى من الكتاب وكان محمود درويش آنذاك ما زال يعيش داخل إسرائيل ، وقد أبقيت على هذا الفصل كما هو باعتباره تصويرا لجانب من حياة محمود درويش قبل خروجه من الأرض المحتلة .. أما قضية خروجه من إسرائيل فقد تعرضت لها بالناقشة في الفصل التالي من هذه الطبعة الجديدة

والواقع أننا اذا نظرنا نظرة دقيقة وأمانة الى التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله فاننا سنجدها صادرة عن مصدرين لا ثالث لهما :-
 المصدر الأول ، هو الرغبة الشائعة عند بعض الصحفيين والكتاب في تحطيم النفسية العربية ، وذلك بتلطيح كل الصور الجميلة المشرقة التي برزت في حياتنا بعد نكسة ٥ يونيو ، وهذه النفسية .. نفسية التدمير والتحطيم والتشويه هي نفسية يغذيها أعداؤنا ويستسلم لها هؤلاء الذين فقدوا الثقة في كل شيء وفقدوا الايمان بأى شيء ، واعتبروا أن كل شيء بعد النكسة « باطل الأباطيل » وأصبحوا خاضعين لشعور أشبه « بالرغبة في الانتحار » .. كما يستسلم لهذا النوع من التفكير والشعور بعض العناصر المعرضة صاحبة الهوى والمصلحة والتي لاتحب أن ترى الأمة العربية وقد أفاقَت من ضدمتها ووقفت على قدميها بعد أن سقطت في احدي معاركها القاسية .

أما المصدر الثانى ، الذى تصدر عنه هذه التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله سميح القاسم فهو ولاشك مصدر كامن في العقلية العربية نفسها . فكثيرا مايستسلم العقل العربى للعاطفة الهوجاء والانفعال الجامح ، وذلك بدلا من التزام التفكير الموضوعى الدقيق وقياس الأمور بحساب وشمول واحاطة بمختلف الظروف .

وقضية محمود درويش وزميله هي خير مثال على حاجتنا الكاملة الى رفض أصحاب النفسيات المشوهة الذين يريدون أن يحرّموا أمتنا من أى بطولة ويستكثروا عليها أن يوجد بينها نموذج انساني تقى ، أو زهرة ناضرة تنبت في أى أرض عربية ، فهم ينزعجون من هذا كله ويسارعون الى تشويه كل شيء اذا أتاحت الفرصة لذلك التشويه ، كما أن قضية محمود درويش وزميله سميح القاسم هي فرصة أيضا لمواجهة طريقة التفكير العربى الذى يعتمد على الانفعال السريع لا على المنطق والفهم والاحاطة والشمول .

ونعود بعد ذلك الى أصل القضية التى خلقت هذه العاصفة من الاتهام

ضد محمود درويش وزميله .

وتبدأ القضية في صوفيا ، في مهرجان الشباب الذي عقد في صيف ١٩٦٨ ، فقد رفضت ادارة المهرجان اشتراك أى وفد رسمى من اسرائيل في هذا المهرجان بناء على طلب الوفود العربية المختلفة ، ولأن بلغاريا من ناحية أخرى قد قطعت علاقاتها السياسية باسرائيل بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ . ولكن ادارة المهرجان قبلت أن تشترك اسرائيل بوفد شعبى لا علاقة له بالسلطات الاسرائيلية . وجاء هذا الوفد بالفعل ، وكان مكونا من الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، كما كان معظم أعضاء هذا الوفد من الشباب العربى المرتبطين بالحزب الشيوعى الاسرائيلى .

ونقف هنا لحظة لتتعرف على نوع العلاقة بين العرب في الارض المحتلة وبين الحزب الشيوعى الاسرائيلى . فهذا الحزب هو أكثر الأحزاب السياسية اتصالا بالعرب المقيمين في داخل اسرائيل ، وقد حدث بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ أن انشق العرب أو معظمهم عن الحزب الشيوعى ليكونوا جناحا خاصا بهم في هذا الحزب . والحقيقة أن العرب لم يرتبطوا بالحزب الشيوعى الا بعد أن ضاقت بهم الحياة السياسية في اسرائيل ، حيث لم يستطيعوا تكوين تنظيم سياسى مستقل خاص بهم فقد رفضت السلطات الاسرائيلية - كما أشرنا في الفصل الأول - أن تسمح بمثل هذا التنظيم السياسى العربى المستقل ، وعندما أقيم تنظيم « الأرض » وهو التنظيم الوحيد الذى أنشأه العرب والتفوا حوله ، قامت السلطات الاسرائيلية بحل هذا التنظيم وتحريمه تحريما كاملا مما اضطر معظم العرب المشتركين في هذا التنظيم الى أن ينضموا للحزب الشيوعى الاسرائيلى مادام هو الحزب الوحيد الذى يمكن أن يسمح للعرب بالانضمام اليه وبذلك وجد العرب « غطاء شرعيا » لنشاطهم السياسى وتنظيمهم السياسى الممنوع . ومن المعروف أن الجناح العربى في الحزب الشيوعى الاسرائيلى يتكون في معظمه من منظمة « الأرض » العربية ، وتحت لواء الحزب الشيوعى الاسرائيلى يعيش الشعاعان محمود درويش وسميح القاسم حياتهما

السياسية مع عدد كبير غيرهما من الأدباء العرب في اسرائيل ، ومن خلال ارتباط الشعارين بالحزب الشيوعي الاسرائيلي ، خرج الشعاران في الوفد الشعبى الاسرائيلي الى مهرجان صوفيا . والجناح العربى للحزب الشيوعى فى الأرض المحتلة يقوده شخصيتان عربيتان هما « اميل حبيبى » و « توفيق طوبى » كما يشترك بعض اليهود بنسبة ضئيلة فى تأييد هذا الجناح العربى وعلى رأس هؤلاء اليهود المؤيدين للجناح العربى فى الحزب الشيوعى فى اسرائيل السياسى اليهودى « فيلتر » الذى أدلى فى ٩ يونيو سنة ١٩٦٩ بتصريح مشهور قال فيه :

« ان رجال المقاومة الفلسطينية يشنون كفاحا عادلا فى جهودهم لتحرير الأراضى العربية التى احتلتها اسرائيل ، ومن الطبيعى أن تعتمد أمة تقع أجزاء منها تحت يد الاحتلال الى مقاومة الاحتلال ، وإذا كانت منظمة فتح تكافح لتحرير الأراضى المحتلة فان كفاحها يكون كفاحا عادلا » .

ولا يمكن لأى تفكير سليم أن يرفض ارتباط محمود درويش وزملائه بالحزب الشيوعى الاسرائيلي ، مادام هذا الحزب — كما أشرنا — هو الحزب الوحيد الذى يفسح للعرب فرصة الانضمام اليه بسهولة ، ومادام تنظيم « الأرض » العربى ممنوعا من السلطات الاسرائيلية ومادام ممنوع اقامة أى تنظيمات سياسية عربية أخرى ، ومادام العرب بانضمامهم الى الحزب الشيوعى الاسرائيلي يستطيعون ان يجدوا فرصة للحركة السياسية بالنسبة لقضيتهم مهما كانت هذه الفرصة ضيقة ومحدودة مادام هذا كله صحيحا فلا معنى للاعتراض على انضمام محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء والكتاب العرب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلي . ومن الواضح تماما أن انضمام هذا العدد من المثقفين والفنانين العرب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلي لم يطمس أبدا وعيهم بقضيتهم القومية الخاصة ، حتى بالنسبة لهؤلاء العرب الذين انضموا الى الحزب الشيوعى ايمانا منهم بالعقيدة الماركسية نفسها ، فالماركسية فكرة عالمية

ولها أنصبارها في شتى أنحاء العالم ولا يوجد ما يمنع من أن يكون بين العرب في الأرض المحتلة من آمن بهذه الفكرة واعتنقها وانضم على أساسها للحزب الشيوعي الاسرائيلي .

على أننا نستطيع أن نعرف حقيقة العلاقة بين العرب في الأرض المحتلة وبين الحزب الشيوعي الاسرائيلي عندما نقرأ ما كتبه أحد المثقفين والثوريين العرب في داخل الأرض المحتلة ، وهو صبرى جريس المحامي ، وذلك في كتابه المعروف عن « العرب في اسرائيل » . حيث يقول عن الحزب الشيوعي الاسرائيلي : « لقد لعب الحزب الشيوعي الاسرائيلي دورا فريدا من نوعه في التاريخ السياسي لعرب اسرائيل ... فباتخاذ هذا الحزب جانب المعارضة بعد وقت قصير من قيام الدولة ، أصبح المدافع الرئيسي عن حقوق العرب في البلاد ، فلقد استولى الحزب على زمام المبادرة فيما يتعلق بكل النشاطات السياسية والاجتماعية التي أيدها المعارضة العربية تجاه سياسة الاضطهاد التي اتبعتها حكومات اسرائيل المختلفة تجاه العرب خاصة في فترة سنوات الفوضى الثلاث أو الأربع بعد قيام اسرائيل . ولقد استعان الحزب أيضا بأوساط عربية مختلفة اضطرت لعدم وجود سنبل آخر وبقصد مجابهة مؤامرات السلطات للتعاون مع هذا الحزب غير أن نصيب الأسد من هذا النشاط نظمته ونفذته مؤسسات هذا الحزب الخاصة كما أن صحف الحزب الشيوعي ، خاصة الناطقة بالعربية تعبر بصدق عن مشاكل عرب اسرائيل » .

ويواصل صبرى جريس حديثه عن الحزب الشيوعي الاسرائيلي فيقول : « ومما لا شك فيه أن الحزب الشيوعي وصل الى أعلى مراتب تأثيره بين العرب في اسرائيل عام ١٩٥٨ ذلك أنه في تلك الفترة أيدت الشيوعية الدولية تأييدا كاملا الحركة القومية العربية التي انتصبت في ذلك الوقت لتكافح الاستعمار الغربي وعملاءه في الشرق الأوسط وخاصة بعد اقامة الجمهورية العربية المتحدة « وحدة سوريا ومصر » ففي تلك الفترة رفع

الحزب الشيوعي الاسرائيلي أغلب شعارات الحركة القومية العربية بما في ذلك حق تقرير المصير لعرب اسرائيل حتى الانفصال « ويواصل صبرى جريس حديثه فيقول : « ان هناك أسبابا خارجية أدت الى تغيير الصورة تغييرا جذريا والى قلب الأمور رأسا على عقب .. ففي تلك الفترة « أي عام ١٩٥٨ وما بعده » غيرت الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية موقفها من الحركة القومية العربية وخاصة الشيوعيين السوريين ، برئاسة خالد بكداش الذين بدأوا نشاطهم ضد الجمهورية العربية المتحدة مما أدى الى شقاق بين الطرفين .. هذا الوضع الجديد أدى في الحال الى تغيير في موقف عرب اسرائيل ، وهكذا بدأ أكثر القادة العرب والجماهير العربية يتركون الحزب والتعاون السياسى معه من هذا الموقف الذى يشرحه صبرى جريس يتضح لنا أن معظم العرب فى داخل اسرائيل يضعون قضيتهم العربية القومية فى الاعتبار الأول ، وهم اذا انضموا الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى فانما يفعلون ذلك من أجل خدمة هذه القضية والدفاع عنها ، واذا اختلفوا مع الشيوعيين حول هذه القضية فانهم ينسحبون من الحزب كما حدث فى عام ١٩٥٩ أو يحاولون تكوين جناح مستقل لهم كما حدث عام ١٩٦٧ عندما وجدوا أن نضالهم يجب أن يكون أشمل وأوسع مدى وأقل قيودا فى المرحلة التى تلت عدوان يونيو عام ١٩٦٧ .

هذه الحقائق كلها تكشف لنا عن طبيعة الظروف السياسية التى تحيط بالعرب والتى تفرض عليهم التعاون مع الحزب الشيوعى فى سبيل خدمة قضيتهم القومية ، وهذا هو الوضع السياسى الذى يعيش فى ظله محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء العرب الشبان فى الأرض المحتلة فهم لا يستطيعون الحركة الا فى اطار « شرعية سياسية » لا تتوفر لهم الا تحت حماية الحزب الشيوعى الاسرائيلى بصورة أو بأخرى ..

وفى ظل هذا الارتباط بالحزب الشيوعى الاسرائيلى خرج الشعاران الى صوفيا للاشتراك فى مهرجان الشباب ، وكان هدفهما كما

قالا لعدد من الشبان العرب الذين اتصلوا بهما هو أن يتعرفا على غيرهما من الشباب العربى ، وأن يتصلا بشباب العالم ، ليشرحا قضية العرب ويلفتا النظر اليها وليس من المعقول أن يطلب من الشعارين أن يظلا داخل أسوار اسرائيل اذا ما أتيت لهما مثل هذه الفرصة ليخرجا الى العالم ، ففى هذا الخروج مزيد من التجربة بالنسبة لمحمود درويش وزملائه ، كما أنه فرصة واضحة لخدمة القضية العربية الفلسطينية من خلال هذا المهرجان العالمى .

وتتركز التهم بعد ذلك فى أن محمود درويش وزميله كانا يسيران وراء العلم الاسرائيلى ويحملان « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيليه « ليسيه باسيه » وفى مجال الرد على هذا الاتهام ينبغى أن نسأل : ماذا يحدث لو رفض الشعاران أن يسيرا وراء العلم الاسرائيلى ؟ .. الاجابه ببساطة هى أن الشعارين سوف يمنعان من دخول اسرائيل بعد ذلك ، وكان عليهما فى هذه الحالة أن يلجأ الى احدى العواصم العربية ، ولاشك أن أى عاصمة عربية سترحب بمحمود درويش وزميله ، لأنها تعرف قيمتهما ، وتعرف نضالهما وتعرف أن كل حرف يكتبانه هو من أجل فلسطين وحريتها ومن أجل شعبها العربى ، وتعرف أيضا أن الشعارين قد « تخرجوا » فى سجون اسرائيل ، وأنهما تعرضا بكثرة للاضطهاد السياسى والأدبى والجسدى من السلطات الاسرائيلية .

كان من الممكن أن يجيء محمود درويش وسميح القاسم الى القاهرة أو يذهبا الى بيروت أو دمشق أو الى أى عاصمة عربية أخرى وسوف يلقيان بلا شك كل ترحيب وتقدير .

ولكن ماذا تكون قيمة هذا التصرف من جانب الشعارين ؟ .. هل خروجهما من اسرائيل فى مصلحة القضية العربية أو أنه فى مصلحة اسرائيل ان هذين الشعارين هما فى طليعة العناصر القيادية لثلاثمائة ألف عربى مازالوا يقيمون حتى اليوم داخل أسوار اسرائيل . فماذا تكون النتيجة

لو تخلى هذان الشاعران عن أرض المعركة الأصلية ؟ .. هل يكون خروجهما من اسرائيل ، حيث يقيمان الان ، نوعا من الكفاح والنضال أو أنه في حقيقته نوع من الهروب ؟ .. ان أى تفكير سليم يقول ان خروج الشاعرين من اسرائيل هو خسارة كبيرة للقضية العربية ، واضعاف للعرب الذين يقيمون في قلب المأساة الحقيقية ويدافعون عن البقية الباقية من الأرض العربية في داخل اسرائيل ، وخروج الشاعرين من اسرائيل فيه راحة شخصية لهما وسلام وطمأنينة ، ولكن بقاءهما هناك حيث يتعرضان بين يوم وآخر للاضطهاد المستمر ، ويقاومان ويكتبان أشعارهما من واقع المأساة نفسها .. هذا البقاء وسط النيران الملتهبة هو النضال الحقيقي الذى من أجله احتل محمود درويش وزملاؤه مكائنتهم في قلوبنا وفي تاريخنا السياسى والأدبى .

وخروج محمود درويش وزميله من اسرائيل ، هو من ناحية أخرى ، هدف تسعى اليه اسرائيل نفسها ، انها تغرى العرب هناك بالخروج والهجرة وترهبهم اذا فقد الاغراء جدواه في سبيل تحقيق هذا الهدف ، وخاصة اذا كان هؤلاء العرب من العناصر القيادية مثل محمود درويش . ان اسرائيل تبذل كل جهدها للتخلص من ثلاثمائة ألف عربى مازالوا باقين في اسرائيل ، وللقضاء على وجودهم بصورة نهائية ، فهذا الوجود العربى داخل اسرائيل هو نقطة الانطلاق بالنسبة للمستقبل العربى ، انه البذرة الخصبة التى سوف تثمر في المستقبل حرية لكل الأرض العربية الفلسطينية ولكل الشعب العربى الفلسطينى . والسلطات الاسرائيلية تسعى بكل جهدها لكى تقتضى على هذه البذرة العربية ، حتى لا تثمر في المستقبل أى نوع من الثمار . وحتى ينتهى الخطر الذى يهدد المستقبل الاسرائيلى ، وفي هذا المجال يكفى أن نتذكر ذلك التصريح الذى أدلى به أحد كبار الموظفين الاسرائيليين والذى أشرنا اليه في الفصل الأول ، حيث يقول هذا الموظف الاسرائيلى عن العرب في اسرائيل :

« يجب تضيق خطواتهم ، وأخذ الأراضي منهم ، وإذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعة يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس سنوات ، وأن يقع فريسة اليأس ويدرك ألا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر » . هذه هى السياسة الاسرائيلية ازاء العرب كما يعبر عنها موظف اسرائيلى مسئول . فهل يخرج محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من اسرائيل ؟ .. أليس خروجهما مساعدة للسلطات الاسرائيلية على تحقيق أهدافها وتطبيق سياستها نحو العرب ؟ .. ان اسرائيل مستعدة أن تقدم جميع التسهيلات والمساعدات حتى يخرج منها شاعران لامعان مثل محمود درويش وسميح القاسم ، يرفعان صوت العرب فى الأرض المحتلة عاليا ويعبران عن مشاكل هؤلاء العرب تعبيرا أمينيا وصادقا وثوريا ، ويجسدان لأول مرة وبصورة رائعة أمام العالم وجود العرب فى الأرض الفلسطينية المحتلة ، بعد أن كان هذا الوجود معنى غامضا لاتجسيد له .

وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة معروفة فى التاريخ الأدبى العالى وهى قصة غزو نابليون لألمانيا فى القرن الماضى ، لقد دخل نابليون « ويمار » إحدى الإمارات الألمانية ، حيث كان يقيم الاديب الالمانى الكبير « جيته » وكان باستطاعة « جيته » أن يهرب من « ويمار » ومن وجه نابليون الذى احتل بلاده وغزاها ، وكان باستطاعة « جيته » أن يجد حياة مناسبة واستقبالا رائعا لو أنه هرب الى انجلترا مثلا وهى عدوة نابليون الأولى ، ولكنه رفض ذلك رفضا كاملا وفضل البقاء فى بلده المهزوم ، بل لقد انتقى بنابليون الغازى والمحتل لبلاده . ومع ذلك لم يقل أحد عن « جيته » انه خان بلاده بلقائه مع نابليون ، وانه عاون الاحتلال الفرنسى لأنه رضى أن يبقى فى وطنه فى ظل هذا الاحتلال . ولاشك أن « جيته » قد شاهد العلم الفرنسى يرفرف فوق كل مكان فى بلاده ، ولاشك أنه التقى بنابليون فى مكان ارتفعت فوقه الراية الفرنسية لا الألمانية .. ومع ذلك لم يكتب عنه أحد أنه خائن لألمانيا وعميل للفرنسيين ، وذلك لأن موقف « جيته »

أتيح له أن يجد الذين ينظرون اليه بالعقل والتفكير المنطقي السليم لامن ينظرون اليه بالانفعال السريع المتشنج . القضية كلها واضحة تمام الوضوح أمام الشاعر محمود درويش وزملائه . فيكفى أن نقرأ شعر محمود وشعر زملائه بشيء من الفهم والوعى حتى نجد أن موضوع « التمسك بالأرض الفلسطينية » والبقاء فوق التراب الفلسطيني هو موضوع أساسى وعزير عند هؤلاء الشعراء الى أبعد الحدود . انهم يتمسكون ببقائهم فوق هذه الأرض ، حتى ولو فرضت عليهم الظروف القاسية أن يحملوا « باسورا » اسرائيلية أو تذكرة مرور اسرائيلية وأن يمشوا وراء العلم الاسرائيلي . فهذا كله أهون عليهم من أن يتركوا الأرض العربية للاسرائيليين ويرحلوا عنها .

فمحمود درويش عندما يتحدث عن جيبته يقول :

فلسطينية كانت ولم تزل .

فهو يعتز بجيبته لأنها متمسكة بأرضها متمسكة بصفتها الفلسطينية ، ولم تتخل عنها لترحل الى أرض أخرى ، وحتى لو كانت أرضا عربية قريية وشقيقة لأرض فلسطين . ومحمود درويش عندما يحدثنا عن شخصية الأب في شعره فهو يؤكد لنا أن شخصية الاب تجد رسالتها في منع أولاده من الهجرة ، وفي دعوتهم للبقاء .. ففي قصيدته « أبى » التى أشرنا اليها من قبل يقول محمود درويش :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحفن التراب
وصلى . . .
لسماء بلا مطر
ونهانى عن السفر
وأبى قال مرة
حين صلى على حجر !

غض طرفا عن القمر
واحذر البحر ... والسفر
وأبى قال مرة
الذى ماله وطن
ماله فى الثرى ضريح
ونهاى عن السفر
والتمسك بالأرض والحرص عليها نعمة أساسية فى شعر محمود درويش
فهو يقول عن وطنه وأرضه :

وطنى ليس قصة أو نشيدا
ليس ضوئا على سوائف فله
هذه الأرض جلد عظمى .. وقلبى
فوق أعشابها يعيش كنحلة ...
وهو يقول أيضا فى قصيدة أخرى :
يا صخرة صلى عليها والدى ، لتصون ثائثر
أنا لن أبيعك بالآلى .. لن أسافر
لن أسافر ... لن أسافر

فمحمود درويش هو « شاعر الأرض المحتلة » ، شاعر التمسك
بالأرض ، شاعر العشق لكل أعشابها وصخورها ، شاعر الأظافر المغروسة
فى التراب حرصا عليه وإيمانا به وتمسكا بكل ذرة فيه .. انه ابن هذه
الأرض ، وقصائده تنبت فوقها كما ينبت الزيتون ، ومشاعره كلها ، وعقائده
كلها مرتبطة كل الارتباط بهذه الأرض .. فكيف يتركها للعدو ، وكيف
يرحل عنها وهو يغنى لها بكل هذا الحب والعمق ، والولع والعشق الصوفى
الأصيل .. اننا لا نكاد نجد شاعرا غنى للأرض الفلسطينية مثلما غنى
لها محمود درويش .. انه شاعر هذه الأرض المحتلة التى تريد أن تتحرر .
والتى ينبض كل حرف من قصائده بدعوة التمسك بها وتحريرها فى

آن واحد .

على أننا نجد عند سميح القاسم زميل محمود درويش وصديقه صدى، لتلك النعمة .. نعمة التمسك بالأرض الفلسطينية والبقاء والاستمرار فوقها. وان كان الاهتمام بالأرض قد بلغ ذروته الفنية والفكرية عند محمود درويش بالذات ، حيث يهتم سميح بقضايا أخرى مختلفة وحيث تتفجر موهبته مع قضايا أخرى أرجو أن أشير إليها في دراسة مستقلة . ومع ذلك كله ففى شعر سميح القاسم تعبير واضح عن التمسك بالأرض، ففى الهجرة من هذه الأرض تبدأ الكارثة العامة ، ولقد كان خروج العرب عام ١٩٤٨ أمام الارهاب الاسرائيلى عنصرا من أكبر العناصر التى خلقت المأساة الفلسطينية فى البداية .

وأحب قبل أن نقف مع شعر سميح القاسم وهو يعبر عن تمسكه بالأرض. مهما كانت العواصف والزوابع ، أن نقرأ هذه الكلمة التى كتبها سميح عام ١٩٦٥ ونشرتها احدى الصحف الاسرائيلية ، وكانت هذه الرسالة تعليقا على ديوان سميح الثانى « أغاني الدروب » .. يقول سميح فى كلمته « أصدرت فى الآونة الأخيرة مجموعة شعرية عن حياة العرب فى اسرائيل. وعن النضال فى سبيل الحرية عامة . وكنت أتوقع أن قصائدى هذه ستحدث رد فعل منعكسا لدى فريق من القراء : تقديمين ورجعيين وقد صدق ظنى . اذ راحت بعض الصحف اليومية تحذر القارئ اليهودى من تلاوة قصائدى التى تدعو الى الكراهية والثورة * وكان من جراء ذلك أن سرحت من عملى فى التعليم ... ولكننى لا أرهب أحدا » . هذه هى نفسية الشاعر سميح القاسم ، وهذه مواقفه ، ومع ذلك تتهمه بعض الصحف العربية فى كرامته الوطنية لأنه خرج الى مهرجان عالمى وهو يحمل « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية ويمشى وراء العلم الاسرائيلى .

أما شعر سميح القاسم ، ودعوته الصريحة القوية الى التمسك بالبقاء

في أرض فلسطين فتبدو لنا بوضوح في قصيدته التي جعل عنوانها « اليك هناك حيث تموت » وهي رد على رسالة كتبها اليه صديق فلسطيني من أصدقاء طفولته يعيش في بيروت ، وفي هذه الرسالة يدعو الصديق سميح الى أن يترك مايعانيه من هم وشقاء ويسافر ليعيش معه في بيروت حيث الراحة والطمأنينة والبعد عن مشاكل الاحتلال الاسرائيلي . ويرد سميح القاسم على هذه الرسالة في قصيدته الممتازة ، وهو يقول أولا على لسان صاحب الرسالة :

أخي الغالي !
لماذا أنت لا تأتي الى بيروت ؟
وتترك جرحك الممقوت !
وتهجر وجهك المغموس في الوحل
وتنسى عيشة الذل
فحقلك لم يكن أرحب من حقل
وبيتك لم يكن أجمل من بيتي
لماذا أنت لا تأتي ؟

وفي فقرة سابقة على هذه الفقرة في نفس القصيدة يصور له هذا الصديق مغريات الحياة بعيدا عن الشقاء في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، فيقول :

أنا أصبحت انسانا جديدا ..
غير ما تعهد
ختمت دراستي العليا .. وثلت
شهادة المعهد ..
وأصبح مكتبي أكبر
وصار اسمي هنا أشهر
ولي صاحبة شقراء .. جدتها .

فرنسية
وأخرى جدها قاد الفتوحات
الصليبية
ومثل بقية الأسياد
تربض في فناء الدار .. فارهة
خصوصية !

ولكن سميح القاسم رغم كل هذه الاغراءات يرد على صديقه فيقول في
نفس القصيدة :

اليك هناك في بيروت
اليك هناك حيث تموت
كزنبقة بلا جذر
كنهر ضيع المنبع
كأغنية بلا مطلع
كعاصفة بلا عمر
اليك هناك حيث تموت كالشمس
الحريفية
ياكفان حريية
اليك هناك .. يا جرحى ويا عارى
ويا ساكب ماء الوجه في نارى
اليك اليك من قلبى المقاوم جائعا
عارى ..
تحياتى وأشواقى
ولعنة بيتك الباقي !

وهكذا يرفض سميح القاسم ، ويرفض محمود درويش أن يترك أرضهما
مهما كانت الاغراءات ، فالكفاح الحقيقى هو البقاء فوق الأرض الفلسطينية

ومن أجل هذا الهدف العزيز ، ومن أجل مستقبل جديد ، يحتمل سميح
 ومحمود وزملاؤهما بعض القيود وكل القيود .. ومن بينها أن يحمل
 « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية ويسيرا وراء العلم
 الاسرائيلي .. فهم أصحاب الأرض ، وأصحاب القضية العادلة رغم راية
 الاحتلال . ان جوهر النضال هو الباقي وليس الشكليات . وما أغلى
 نضال محمود درويش وزملائه من أجل البقاء فوق أرض تهددهم فيها
 مسدسات وسجون ومحاربة قاسية في الرزق واغتيالات . ولكنهم مع
 ذلك باقون بعد أن عرفوا أن مسألة المسائل بالنسبة للعربي الفلسطيني
 هي البقاء في أحضان أرضه وزيتونه وأشواكه ، وليس الهروب الى الراحة
 والطمأنينة والتماس البعد عن الخطر ارضاء لأصحاب المظاهر والشكليات
 والنضال بالصخب الأجوف والشعارات .

لماذا خرج
من إسرائيل؟

فى أوائل فبراير ١٩٧١ ووسط موجة من الدهشة والاحساس بالمفاجأة وصل محمود درويش الى القاهرة بعد عام كامل قضاء فى موسكو للدراسة وفى ختام هذا العام قرر محمود درويش عدم العودة الى اسرائيل واختار الإقامة بالقاهرة ، وفى تبرير هذا الموقف عقد محمود درويش مؤتمرا صحفيا فى مبنى التلفزيون العربى بالقاهرة فى ١١ فبراير ١٩٧١ ، وأود قبل التعليق على موقف محمود درويش أن أنقل هنا نص البيان الذى ألقاه فى مؤتمره الصحفى ، وذلك لأهمية هذا البيان من الناحية التاريخية ولأنه سيكون أساسا لمناقشة الشاعر بعد خروجه من الأرض المحتلة .

قال محمود درويش فى بيانه :

أريد أن أعلن منذ البداية أنى أعتبر مسألة وجودى الآن فى القاهرة مسألة شخصية أتحمّل وحدى مسئولىة اختيارها ، وسأبذل منتهى جهدى للحيلولة دون تحويلها الى موضوع للمناقشة والأخذ والرد ، وكان من الممكن وربما من الأفضل حصر المسألة كلها فى حدود ضيقة لولا أن الظروف التى خلقتنى والقضية التى قدمتى للناس قد ربطت اسمى بقضية عامة ، وهذه القضية العامة هى العنصر الأساسى الذى دفعنى لاختيار موقع جديد فى الجبهة التى أحارب فيها ، ومن هنا ، لم يعد من حقى أن أنصرف كمسافر أو سائح ، ولهذا السبب أشعر بأنى مطالب أمام نفسى وأمام الرأى العام بتقديم بعض التحديدات العامة لأتابع بعدها طريقى :

اننى ألح كثيرا على أن يكون مفهوما لجميع الناس أن الخطوة الخطيرة التى اتخذتها نابعة من اعتبارات خدمة القضية من مواقع تبدو لى أكثر انطلاقا وحرية وقد تمنحنى مزيدا من القدرة على التعبير والعمل أكثر مما كنت

قادرا على عمله في بلادى .. اننى قادم من منطقة الحصار والاسر الى منطقة العمل . ولا يساورنى أى شك فى أن رأى العام العربى - وربما العالمى أيضا - قد أصبح أكثر وعيا بواقع الاضطهاد الاسرائيلى للمواطنين العرب فى بلادهم .

وما جئت الى هنا لادانة هذا الواقع ، ولذلك فانى فى حل من عرض لائحة الاتهام الخطيرة . ولكن ما يهمنى هو أن هؤلاء المواطنين يمارسون البطولة ممارسة يومية بتمسكهم بحق الانتماء الوطنى ، وبرفضهم المسئول الانضمام الى الغربة خارج الوطن . لقد آثروا الاغتراب وتحمل القهر داخل الوطن .. ولقد كنت شخصا ولا أزال أحب الذين أعطوا شبابهم وطاقاتهم لهذا الصمود ومازلت أعتبر نفسى واحدا من هؤلاء المواطنين الشجعان الذين يكافحون وظهورهم الى الحائط ويستمدون الطاقة والأمل من معركة التحرير والبناء والتقدم التى تخوضها شعوبهم خارج أسوار اسرائيل . واقول لكم - أيها الأصدقاء - بصراحة تامة اننى لاقيت من الحزن قدرا لا يجوز الحديث عنه هنا عندما قررت - مرغما - الانفصال الجغرافى عن أولئك المواطنين . ولكنى أحاول أن أجد عذرى فى أننى أصبحت مليئا بالاحساس بأننى أقرب يوما بعد يوم من نقطة العجز عن القيام بواجبى كمواطن أولا وكشاعر ثانيا بسبب ظروف الكبت الذى أتعرض له .

لقد أصبحت مشلول الحركة تماما ومشلول الحرية فى التعبير ، ولقمة سهلة فى فك العنصرية الاسرائيلية وأصبحت مهددا بخطر التعلق على مطاط الصيغ الدبلوماسية لكى أنجو من القانون . اننى لا أشكو ولكننى أحاول القول أن شعرة معاوية بينى وبين القانون الاسرائيلى قد انقطعت وأن طاقتى على الاحتيال والتجاوز قد نفدت ، خاصة أننى لم أعد منتشيا الى شعب بطلب الرحمة ويتسول الصدقات ، ولكننى أتمنى الى شعب يقاتل ..

من أنا ؟

هل أنا مواطن اسرائيلى بمحض اختيارى ، أم أنا مواطن عربى فلسطينى

وإذا كنت كذلك ففي أى صف أقف . ان قلوبنا واضحة الدقات ولكننى مطالب بتحويل مشاعرى الى كلمات .. من هنا ، أصبح تناقض الانتماءين أشد إلحاحا وتعذيبا . لم يعد ممكنا أن أجاور بين هذين الانتماءين بسبب اصرار الحكم الاسرائيلى على السير فى المغامرة حتى النهاية وحرق أى جسر للعودة . اننى أتمزق مرتين : مرة على شعبى .. ومرة على المواطنين اليهود الذين يقودهم حكامهم الى كارثة .

ايها الأصدقاء ..

يصعب هنا وضع الفواصل بين الأدب والسياسة وأنا كاتب لايتفرج على الحياة بل يلتحم فيها . والوطن عندى ليس حقيقية ولكنه أيضا ليس جبلا وسهلا .. ان وطنى قضية يجب أن ندافع عنها من أى موقع ، ولست أول مواطن وشاعر يتعد عن بلاده ليقرب منها . اننى أشعر الآن كما لم أشعر من قبل بنبض التربة التى أنبتتنى وأشعر بمزيد من الأمل المبرر والمشروع ، لأننى أعيش وأعمل مع شعبى بالمفهوم الأوسع ، لأننى أدافع عن الخاص من موقع العام .

ان أهمية ما أكتبه - اذا كانت له أهمية - لا تنبغى أن تكون مستمدة من المكان الذى أكتب منه ، بل من القضية التى أعيشها أينما كنت .

ولا أبيع لنفسى أن أتكلم من موقع الدفاع عن النفس ، وانى أتحمّل كامل المسؤولية عن موقفى وقضيتى ، ورحيلى الذى أرجو أن يكون مؤقتا عن وطنى ليس تغييرا لموقف أو قضية ولكنه تغيير لموقع ، واختيار موقع راسخ وطيد حملة التاريخ مسئولية تاريخية ، وهى مستقبل منطقة الشرق الأوسط كلها . هذا الموقع هو القاهرة التى أصبحت - بحكم التطور التاريخى والظروف الموضوعية - المصدر الأساسى للحركة فى المنطقة .

وأنا مواطن فلسطينى ، لقد لقي شعبى من العذاب والقهر الجسدى والمعنوى مالا يوصف .. اننى لا أدير اسطوانة ، ولكن ملحمة اقتلاع شعب كامل وقذفه الى التيه ليست مسألة فلسطينية . انها خنجر فى كل

ضمير انساني .

ولقد كنت أتمزق كل يوم وأنا أرى منازل أهلى يسكنها غرباء وأسمع منها أغاني انتصار الفاتحين الذين يلاحقون الضحية حتى منفاها ليقضوا على آثارها . لقد رأيت كيف تتغير أسماء الشوارع والقرى والمدن ، ولقد رأيت كيف يحرق الناس في أجساد الآخرين ويستخرجون القمح والتفاح ، ولقد رأيت كيف يترجم الشجر والحجر والقمر ، ولقد رأيت كيف يزيف التاريخ ، وكيف تجري عملية التنفس من رئات الآخرين . وأكثر من ذلك رأيت كيف تتم عملية مطالبة الضحية بالاعتراف بأنها القاتل . مازالت اسرائيل حتى الآن ، تقدم شعبى الى العالم بزي القاتل وتدعى أنها الضحية . ولم يكن شعبى يحسن الا الاستجداء والتسول ، ولا يقدم نفسه الا ببطاقات الاغاثة .. ان الوقوف على باب المحكمة الدولية حق . ولكن الحق ليس حقا اذا كان صاحبه ضعيفا . هكذا الدنيا .. لقد تغيرت الآن صورة شعبى ولم يعد يقدم نفسه ببطاقة الاغاثة ، بل ببطاقة الاستشهاد . لقد وجد شعبى طريقه الى الحياة عندما اجتاز سرداب الموت وهذه هي المقاومة وهذا هو الحل .. فأين أقف ؟

وأنا مواطن عربى .. وقضيتى الخاصة جزء لا يتجزأ من القضية العامة للشعوب العربية ، ولا مستقبل لقضيتى اذا لم تعرف مكانها في هذا التيار المعادى للتخلف والامبريالية والصهيونية والطامح الى التقدم الاجتماعى والاستقلال والسيادة القومية والوحدة الاشتراكية . واذا سمحتم لى بالتحدث عن مشاعرى الخاصة ، أقول لكم اننى أشعر بالانفعال الشديد والتأثر البالغ بسبب احساسى بالعلاقة المباشرة مع أبناء شعبى الذين كنت بعيدا عنهم أكثر من عشرين سنة . هذه أول مرة أزور فيها بلدا عربيا منذ طفولتى . اننى أشعر أن كفى تتسعان ورثتى تكبران ، وألمس أسبابا مادبة ومعنوية للتفاؤل العلمى والوجدانى .

وأنا مواطن عالمى .. وقضيتى جزء من الحركة الثورية العالمية وأفخر

باتتمائي الى أسرة التقدم والتحرر والاشتراكية التى تمارس تأثيرها الفعال لتغيير العالم تغييرا جذريا .. اننا على الرغم من كل القهر والكبت ننتمى الى الجانب المضيء من وجه عصرنا ، ونشعر بسعادة غامرة وبفرح لاحد له بصداقتنا المصرية مع الاتحاد السوفيتى الذى يمارس دورا رئيسيا فى الحركة الثورية العالمية ؛ ويقف فى جبهة الصدام الأولى مع أعداء الانسان ومعوقات ضرورات التقدم .

ولقد عشت فى الاتحاد السوفيتى طيلة العام الماضى ، وأشعر شخصا بأنى مدين له لأنه أعطانى كل شئ .. من الخبز حتى الأمل والتفاؤل العظيم وانى واثق بأن حبي للانسان وللمجتمع السوفيتى بما يمثله من تجربة خلاص البشرية من العذاب هو من أحد مقومات نضالى وفرحى بالحياة .

أيها الأصدقاء

من المعروف لكم تماما ، أننى قادم اليكم من صفوف الحزب الشيوعى الاسرائيلى الذى يخوض معركة سياسية مليئة بالضنى والشرف وفى جو خائق من العنصرية والغلطسة الصهيونية والاعتداء المصلف على أبسط حريات الانسان .

ومعروف لكم تماما أن هذا الحزب يضم فى جبهة واحدة متلاحمة كل العناصر المناضلة من المواطنين العرب وخيرة العناصر المكافحة من المواطنين اليهود . انه يشير الى امكانية التعايش الحقيقى والحياة المشتركة السعيدة بين العرب واليهود ويرفع شعار : « مع الشعوب العربية ضد الاستعمار لاعم الاستعمار ضد الشعوب العربية » وهو يحذر من الهاوية التى يقود الحكم الاسرائيلى المواطنين اليها ، اذا مااستمر فى تنكره لحقوق الشعب العربى الفلسطينى والاعتداء على الأراضى فى البلاد العربية وحقوقها وسيادتها .

ان من واجبى أن أعلن من هنا أن رجلى عن بلادى ليس نابعا بأى شكل من الأشكال عن رغبة فى الانسلاخ عن انتمائى السياسى والفكرى . ومن ناحية أخرى أريد أن أعلن أن الحزب الشيوعى الاسرائيلى لا يتحمل مسئولية

قدومى الى القاهرة ولا علم له بذلك وعلى هذا الأساس فمن حقه الطبيعى أن يتحفظ من هذا السلوك الفردى الذى خالفت به أبسط قواعد التنظيم وعلى أى حال ، بودى أن أرسل تحيات حارة الى الشيوعيين العرب واليهود في اسرائيل الذين يحتلون مكانهم في الحركة الثورية العالمية ، ومن هذا المكان فانهم يشكلون حلفاء أمناء لحركة التحرر العربية .
وبعد ..

اسمحوا لى أن أعبر عن عميق الشكر والامتنان الى الجمهورية العربية المتحدة ، رئيسا وشعبا وحكومة وحزبا ، لانها فتحت صدرها الواسع لى وأعطتنى من الحب والفرح والأمل مئونة معنوية ضخمة ، وأشعرتنى بأنى لم أغادر وطنى ، وانما انتقلت من الوطن الأصغر الى الوطن الأكبر ، انى احدىق فى نهر النيل فأرى اعماق الظاهرة وجوهرها وأرى تدفق الحياة اللامتناهى ورحلة التاريخ الصاعدة دائما . انى احدىق فى نهر النيل فأسمع خرير نهر الاردن وبردى والفرات فى نعم واحد متدفق على الرغم مما يعترى الظاهرة من ركود ظاهرى .

واننا على يقين من أن نهر الحياة سيواصل المسير وانى على ثقة من أننى سأجد فى موقعى الجديد ، فى القاهرة ، امكانيات واسعة لمواصلة عملى فى سبيل القضية التى نعمل من أجلها جميعا .

ويسعدنى انى اخترت القاهرة لأنها القاعدة الأساسية لكفاح الشعوب العربية من أجل التحرر والاستقلال والتقدم الاجتماعى والمستقبل الاشتراكى والسلام .

وأرجو أن يغنى هذا الموقع الجديد موقفى ونضالى بمزيد من الطاقة والانطلاق لأن الاعتبار الأول والأخير لاختيار أى موقع هو خدمة القضية التى نحيا من أجلها ونموت من أجلها »

ذلك هو نص البيان الذى ألقاه محمود درويش بعد خروجه من اسرائيل واختياره للإقامة والعمل بالقاهرة ، فماذا يمكن أن يكون « التقييم »
١٨ - محمود درويش

الصحيح لهذا الموقف ؟ ... لقد صدرت تعليقات عديدة وخاصة من صحف لبنان ضد موقف محمود درويش ، ونشرت صحيفة الحوادث صورة محمود على غلاف أحد أعدادها وكتبت فوق الصورة عنوانا كبيرا يقول « ليتة يعود الى اسرائيل » ، وقد تضمن هذا العدد مقالا بتوقيع (١) « ربيع مطر » ينادى فيه كاتبه أن يعود محمود درويش الى الأرض المحتلة ويقول في مقاله :

« يا محمود يا أحلى ابن تفتح له الأمة العربية ذراعيها ، لن نحدثك عن مأساة الواقع العربي الذى يوشك أن يعتصرك والذى لا شك أنك أحسست بشواظه ، حتى فى أيام المجاملة والترحيب .
ونحن لا ندري ما هى المشاكل القانونية التى ترتبت على قرارك ، ولكنك ما زلت محتفظا بجنسيتك « المترجمة » كما تصفها ... ومن ثم نقول لك من قلب يجبك ويعتز بك :

نحن فى مرحلة العودة والاصرار على البقاء ، انتهت والى الأبد مرحلة الهجرة ... فليتك تعود الى اسرائيل ... الى السجن ، ليتك تعود مهما كان الثمن الذى ستدفعه من حريتك وحتى من فنك وشعرك ... عد فقد اخترت وليس لك أن تتراجع ... لقد عينت نفسك :

اننى مندوب جرح لا يساوم

علمتنى ضربة الجلاد

أن أمشى على جرحى

وأمشى ثم أمشى ... وأقاوم

وفى مثل وظيفتك هذه ، الاستقالة ممنوعة »

هذا نموذج من الهجوم العنيف الذى لقيه محمود درويش نتيجة لموقفه بعد خروجه من اسرائيل ، وقد ترددت وجهة النظر هذه كثيرا فى صفوف الرأى العام العربى والرأى العام الأدبى على وجه الخصوص .

(١) أعتقد أن هذا الاسم هو اسم مستعار لكاتب معروف ... وأغلب الظن أنه الكاتب الفلسطينى غسان كنفانى .

فأين الحقيقة فيما يتصل بموقف محمود درويش ؟ ..

لا أحد يستطيع من ناحية المبدأ أن يدافع عن موقف محمود درويش ، وقد حرص محمود نفسه في بيانه على التأكيد بأن موقفه انما هو موقف « شخصي » ... أى أنه ليس موقفا عاما ، وليس دعوة من جانبه للآخرين في الأرض المحتلة أن يرحلوا ويهاجروا الى المدن العربية خارج اسرائيل ، ولا يمكن لأحد على الاطلاق أن يوافق على مبدأ الخروج من الأرض المحتلة ، فلقد قضى العرب في الأرض المحتلة ما يزيد على عشرين عاما سجناء : لا أحد يسمع لهم صوتا في الداخل أو في الخارج رغم أنهم يبلغون أكثر من ربع مليون مواطن ، ويمثلون ١١٪ من نسبة السكان في المجتمع الاسرائيلي ، وفي السنوات الأخيرة ظهرت مجموعة من المثقفين والأدباء والكتاب والسياسيين العرب كان في طليعتهم محمود درويش ، واستطاع هؤلاء أن يرفعوا صوت العرب في الأرض المحتلة عاليا ، وأن يشكلوا تهديدا معنويا لاسرائيل وأن يمارسوا ضغطا أدبيا وسياسيا عليها ... بدأ الصوت العربي يتردد ، وبدأ القلب العربي ينبض ، بعد أن كانت أسوار اسرائيل تبتلع تماما كل من في داخلها من العرب ... وكأنهم كانوا غير أحياء ، وغير موجودين ... وكأنهم لا يتنفسون ولا تنبض قلوبهم بالحياة . ولاشك أن السلطات الاسرائيلية قد انزعجت بصورة واضحة من ظهور هذه القيادات العربية الجديدة ، وحاولت بكل وسائل الضغط والارهاب أن تقضى على هذه القيادات ، حتى يعود العرب من جديد الى حجمهم المطلوب وهو أن يصبحوا أقلية لا صوت لها ولا وزن ولا قيمة .

ان من أعز أهداف اسرائيل ولاشك أن تصفى القيادات العربية في الأرض المحتلة وعلى رأسها القيادات الفكرية والأدبية . ومن ناحية المبدأ — كما أشرت — لا يجوز أبدا أن تساعد اسرائيل على تحقيق هذا الهدف ، ولا يجوز أبدا أن نرضى ببقاء العرب في الأرض المحتلة وقد تحولوا الى أقلية مقهورة بصورة نهائية ... لا يسمع العالم منها أو عنها شيئا حتى ولا أنينها أو صوت

آهاتها ومواجهها المختلفة . وتلك كانت رسالة محمود درويش ورفاقه في الأرض المحتلة : أن يرفعوا صوت العرب في الأرض المحتلة عاليا . وليس من المعقول أو المقبول أن يتخلى أحد عن هذه الرسالة ..

هذه نقطة أولى في مناقشة هذا الموضوع ، النقطة الثانية تتصل بمحمود درويش نفسه فشعره ملئ بتمسكه بأرضه ، حافل بالدعوة الحارة الى أن يبقى العربي فوق ترابه مهما كانت الظروف والأحوال ومهما كانت الصعوبات والشدائد ، وهذه الدعوة في شعر محمود درويش تمثل شرارة فنية ووجدانية رائعة في كل قصائده ... انها تشدنا اليه وتربطنا به ، وتكاد تدفعنا نحن الذين نعيش خارج أسوار إسرائيل الى أن نتحطم تلك الأسوار لنشارك محمود درويش وكل العرب هناك في احتمال الآلام وما فيها من عذوبة وعذاب ... ومن هنا كان موقف محمود درويش الأخير من النظرة الأولى مناقضا لكل ما دعا اليه في شعره بأصالة وعذوبة ولهفة كاملة .

فلماذا لجأ محمود درويش الى موقفه الأخير ... طالما أنه موقف ليس سليما من ناحية المبدأ العام ، وطالما أنه موقف يتناقض كل التناقض مع اصراره العظيم على البقاء كما نقرأه ونحسه في شعره الجميل ؟

لست أنكر أنني - أساسا - أحد المتعاطفين مع محمود درويش ، شاعرا وإنسانا وصاحب موقف ، ومن هنا فأنا لا أميل بسبب هذا التعاطف الى الأحكام القاطعة والقاسية فيما يتصل بمواقف محمود المختلفة ... ولا أعتمد أنني - ولا غيري - نستطيع أن نلتمس أعذارا سهلة أو تبريرات ميسورة لموقفه الأخير ، ولكنني أرى أن هناك رغم كل شيء مبررات يجب أن نضعها في الاعتبار ونحن نحكم على هذا الموقف . ويمكن تلخيص هذه المبررات الأساسية في ثلاث نقاط محددة :

أولا : ان عمر محمود درويش في الكفاح داخل الأرض المحتلة طويل وليس عمرا قصيرا ... بل اننا نستطيع أن نقول عنه انه ولد مكافحا ، فلم يكن الكفاح اختيارا بالنسبة له بل كان ضرورة فرضتها الظروف ، فقد

خرج مع أهله سنة ١٩٤٨ من فلسطين ثم عاد إليها متسللاً بعد عام أو أكثر قليلاً .. فهو منذ البداية يمارس حياة المقاومة والنضال . وإذا تركنا هذه المرحلة من حياته لتتكلّم عن فترة وعيه ونضجه فانتنا نجد أنه قضى حتى الآن ما يزيد على عشرة أعوام وهو يناضل بصورة مستمرة من أجل قضيته بالكتابة والعمل السياسى والاشتراك فى المؤتمرات ودخول السجون وما الى ذلك ، لقد صدر ديوانه الأول سنة ١٩٦٠ ورغم أنه كان ديواناً ضعيفاً من الناحية الفنية الا أنه كان فى معظمه صرخات حادة من أجل وطنه وقضيته ، وواصل محمود كفاحه خلال السنوات التالية ، ولم يفتر ولم يهدأ ولم يأخذ عليه أحد مأخذاً ما فى هذا الميدان النضالى ... معنى هذا كله أن محمود درويش منح أعوام عمره الثلاثين لقضيته التى لم يكن له قضية أخرى سواها ، ولم يربط نفسه بشئ آخر غيرها فى ميدان حياته الشخصية حيث عاش متفرغاً للدفاع عن جرحه الكبير .

ثانياً : بلغ الاضطهاد الاسرائيلى لطليعة المثقفين العرب فى الأرض المحتلة فى الفترة الأخيرة درجة عالية من العنف ، وقد أصاب محمود من هذا الاضطهاد شئ كثير ، فلم يعد فى هذه المرحلة الأخيرة قادراً على أن يعمل أو يتحرك ، فهو محاصر فى بيته محاصر فى كتاباته محاصر فى اتصالاته وعلاقاته المختلفة ، وقد أشار المحامى العربى صبرى جريس المحامى العربى الذى كان مقيماً فى الأرض المحتلة وخرج منها مثلما فعل محمود الى وقائع عديدة تثبت ارتفاع درجة الاضطهاد الاسرائيلى لهؤلاء المثقفين ، وذلك فى سلسلة المقالات التى نشرتها له الأهرام فى أعدادها الصادرة فى ١٩ و ٢٠ و ٢١ فبراير ١٩٧١ وحسبى أن أنقل هنا نص الخطاب الذى نشره صبرى جريس فى هذه المقالات والذى كتبته « حنا جريس » زوجة صبرى نفسه ونشرته فى احدى الصحف الاسرائيلية فى ٢٢ ابريل ١٩٧٠ ... تقول « حنا جريس » فى هذا الخطاب :

« ان زوجى المحامى صبرى جريس معتقل منذ شهر ونصف . وأنه منذ

سنوات عديدة وزوجى موجود تحت اشراف مستمر من هيئات الدفاع والأمن الذين زعموا أنه يشكل خطراً على أمن الدولة ، وقد تحدت حركته بواسطة القرار ١٠٩ و ١١٠ من لوائح الدفاع . وكان محظورا عليه تركه محل سكنه بدون تصريح ، وكان ملتزماً « بالتواجد » فى منزله من ساعة غروب الشمس حتى شروقها ، وكان عليه أن يتوجه يوميا فى الساعة الرابعة مساء الى قسم الشرطة . ولقد طلبنا قبل اعتقاله تصريحا من هيئة الامن بترك اسرائيل ، لأنه من العسير علينا أن نعيش هذه الحياة غير الطبيعية ، ولقد أجابوا علينا بالاجاب ، ولكن فى ميعاد سفرنا اعتقلوا زوجى ، بدون تهمة ضده وبغير تقديمه للمحاكمة . وعقب ذلك أرسلت برقيات الى رئيس الحكومة ووزير الدفاع ووزير الداخلية ورئيس المحكمة العليا ، وقد أشرت فى هذه البرقيات الى أن الاعتقال جاء عقب أن أراد زوجى مغادرة اسرائيل وليس هناك أى سبب يتعلق بالأمن يبرر اعتقاله ، وأنه لو لم يطلق سراحه فسوف أضطر أن أوجه نداء لمساعدتى الى جميع العناصر الدولية التى من شأنها أن تساعدنى فى الدفاع عن حريتى .

هذه الرسالة التى كتبتها « حنا جريس » زوجة المحامى « صبرى جريس » تكشف لنا عن الواقع اليومى الأليم الذى يعيش فيه المثقفون العرب فى الأرض المحتلة فى الفترة الأخيرة ... وقد تعرض محمود درويش لمثل هذه الاجراءات نفسها بل وتعرض لأقصى منها فى بعض الفترات ، بحيث أصبح عنصرا مشلولاً داخل المجتمع الاسرائيلى وأصبح عديم الجدوى والتأثير والفعالية هناك .

ثالثا : عندما خرج محمود درويش من اسرائيل لم يخرج الى أمريكا مثلا أو الى أى بلد أخرى يلتمس فيها حياة هادئة مستريحة ويلقى عن كاهله عبء قضيته نهائيا ، وكان باستطاعته أن يفعل ذلك ، بل ان اسرائيل نفسها تقدم اغراءات عديدة ومساعدات كبيرة للعرب الذين يوافقون على الهجرة للحياة فى مجتمعات أجنبية والاندماج فيها ... لم يختر محمود درويش

تبيّن من هذا وانما اختار أن يجرى الى القاهرة . وليست القاهرة مدينة محايدة بالنسبة لقضيته انها موقع من مواقع النضال الحى المستمر بالنسبة لهذه القضية ، وهى تقف فى مواجهة اسرائيل وتحاول بكل الوسائل أن ترد عدوانها على الأرض العربية ابتداء من فلسطين الى سيناء ولاشك أن موقع القاهرة بالنسبة لمحمود درويش ليس موقعا سلبيا ان أراد محمود - وهذا ما نأمله ومنتظره منه - أن يواصل نضاله وعمله من أجل قضيته ، فمحمود يفهم المجتمع الاسرائيلى فهما كاملا ويعرف العبرية بدقة وهو يعرف الظروف التى تعيش فيها الأقلية العربية فى اسرائيل ، كما أن محمود أصبح الآن صاحب سمعة عالمية بناها على أساس شعره وارتباطه بقضيته .. وباستطاعة محمود أن يقدم الكثير من أجل قضيته فى موقعه الجديد بالقاهرة والخلاصة ... أن موقف محمود الجديد الذى لم يكن أحد يحبه له ولم يكن يحبه هو لنفسه ليس موقفا اختياريا ولكنه ضرورة فرضتها عليه الظروف القاسية التى عاشها فى الأرض المحتلة ، وليس هذا الموقف الذى اتخذته دعوة للآخرين حتى يتصرفوا بنفس الطريقة والأسلوب ولا يجوز أبدا أن يفهم أحد هذا الموقف بهذه الطريقة ... انه موقف شخصى أملت الظروف خاصة وليس موقفا مبدئيا يدعو الى هجرة العرب من الأرض المحتلة . وأخيرا فان محمود درويش مسئول بعد اقامته فى القاهرة عن أن يجعل هذه الإقامة عملا كاملا من أجل قضيته ... وسوف يكون الحكم العادل له أو عليه من هذه الزاوية بالذات : هل هاجر من موقع كفاح ليعمل من موقع كفاح آخر ... أما هاجر من القضية كلها ليهدأ ويستريح ؟ .. ذلك هو السؤال المعلق الذى سوف تجيب عليه الأيام القريبة .

شیوعیون
وقتومیون

هناك قضية تثار دائما حول منبع الثورية والالهام الفنى عند محمود درويش : هل منبعهما هو ارتباطه بقوميته كعربى فى الأرض المحتلة أم أن هذا المنبع هو ارتباطه بالماركسية كفكرة وبالحزب الشيوعى الاسرائيلى كتنظيم سياسى وقد اعتمد أصحاب الرأى الثانى على بعض أشعار محمود درويش وبعض أحاديثه الأدبية . فمحمود يقول فى قصيدته المعروفة « بطاقة هوية » :

أنا من قرية عزلاء منسية
شوارعها بلا أسماء
وكل رجالها ... فى الحقل والمحجر
يجبون الشيوعية
فهل تغضب ؟
سجل ..
أنا عربى

وفى البيان الذى أدلى به محمود درويش فى القاهرة ، والذى نشرناه كاملا فى الفصل السابق من هذا الكتاب يحدد محمود درويش بصورة واضحة أنه منتسب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى . فهل يكفى هذا كله لكى نقول ان الالتزام الشيوعى هو الأساس الفكرى والوجدانى الذى يقوم عليه انتاج محمود درويش الشعرى ؟ كلا بالطبع . ان مثل هذه المسائل لا تدخل فى نطاق الميول والرغبات ولكنها مسألة دراسة موضوعية محايدة . فشعر محمود درويش يكشف بوضوح عن القضية الأساسية التى يعالجها هذا الشاعر والتى تملأ قلبه ووجدانه وعقله وهى

قضية الأرض العربية والالتناء العربى . والواضح فى شعره هو التعبير عن هذه القضية أولا وقبل كل شىء .

ان عروبة محمود وتمسكه بأرضه هما أهم الموضوعات التى تبرز فى قصائده ، والاتجاهات النضالية فى شعره هى اتجاهات انسانية عامة ، تتصل بكفاح البشر فى مختلف أنحاء الأرض ، ولا تتصل بكفاح الشيوعيين وحدهم هنا أو هناك . ولكى يتضح هذا الأمر يكفى أن نقارن قصائد محمود درويش بشاعر عربى آخر فى الأرض المحتلة هو توفيق زياد . منذ اللحظة الأولى التى نقرأ أشعار توفيق زياد نشعر أن نقطة إنطلاقه هى : الماركسية والالتزام السياسى بالحزب الشيوعى ، ففى ديوانه « أشد على أيديكم » مثلاً نجد هذه القصائد :

« الى عمال موسكو » - و « كراسنايا بريسنايا » وهى « النهر الأحمر » فى موسكو ... وهذا الحى كما يقول الشاعر نفسه هو « حى صناعى عريق فى موسكو ، وكان النبض الحى لموسكو فى ثورة ١٩٠٥ حيث التهمت فيه حرب المتاريس فى تلك الثورة والاتفاضات الشعبية الأخرى » وفى ديوان توفيق زياد أيضا قصيدة أخرى عن « عبدان » تدور حول تأميم البترول فى ايران . وقصيدة رابعة عن « مانيلاس غليزوس » وهو كما يقول الشاعر نفسه « .. القائد والمناضل وبطل الشعب اليونانى الذى غامر بحياته ليمزق علم الاحتلال الهتلرى لبلاده الذى ارتفع فوق الاكروبول ... فأطلق بذلك الشرارة الأولى لحركة المقاومة الشعبية فى أوروبا الغربية .. يقف الآن وجبل المشنقة معقود حول عنقه ... » وهذا المناضل بالطبع شيوعى يونانى معروف ، وهناك قصيدة خامسة بعنوان « الى عمال آتأ المضربين » .. وهكذا يمتلىء شعر توفيق زياد بالموضوعات والتجارب المستمدة من رؤية ماركسية صريحة للحياة والمجتمع . والمسألة لا تقف عند حدود العناوين ولكنها تمتد الى القصائد المختلفة فى فكرها وصياغتها ، فتوفيق زياد يقول فى قصيدته الى عمال موسكو :

يا اخوتي العمال في موسكو
قلوبكم كبيرة
وبقدر ما أتم جبايرة فأتم طييون
وسترسلون لنا الهدايا
دون عد

وستبنون مع شعبنا ، مليون حل
أنا أعرف العمال أعرف طبقتي (١)
وستشحنون لنا المكائن والمصانع :
فالصلب في سيبيريا
والقمح في أوكرانيا
والسفن والأحواض من ليننجراد
يا رفاق ...

هذه لغة توفيق زياد الشعرية ، وهي لغة واضحة في انتمائها السياسي
كل الوضوح في كل انتاج توفيق زياد ، وهو شاعر كبير من شعراء الأرض
المحتلة .

هل نجد مثل هذه اللغة عند محمود درويش ؟ كلا على الاطلاق . فلغة
محمود الشعرية وموضوعاته وتجاربه المختلفة تدور في فلك آخر هو فلك
التمسك بالأرض والالتقاء العربي ثم هو يتحدث عن النضال والكفاح
بمعناها الانساني العام الواسع ولا يتوقف عند حدود كفاح طبقة معينة
هي طبقة العمال والفلاحين فالانسان في شعره ليس له سمات طبقية محددة
... الانسان عنده اما ظالم أو هو مظلوم . اما خاضع للاستغلال والعدوان
أو صانع لهذا الاستغلال والعدوان .

ان لغة محمود درويش هي لغة النضال الانساني العام :
سأقولها في غرفة التوقيف

(١) هذا البيت مكسور ومختل من ناحية الوزن الشعري وقد جاء هكذا في النص الذي نشرته
دار العودة ببيروت .

تحت السوط ... تحت القيد
 في عنف السلاسل
 مليون عصفور على أغصان قنبي
 يخلق اللحن المقاتل
 وهو يعنى لتجربة التشرد والتمزق والطرْد والنفي بالنسبة لشعبه
 ووطنه :

رأيتك أمس في الميناء
 مسافرة بلا أهل بلا زاد
 ركضت اليك كالأيتام
 أسأل حكمة الأجداد
 لماذا تسحب البيارة الخضراء
 الى سجن الى منفى الى ميناء
 وهواه الأكبر هو هوى الانتساب الى وطنه :
 يا صخرة صلي عليها والدى لتصون ثائر
 أنا لن أبيعك بالآلى
 أنا لن أسافر ... لن أسافر

وهذه الملاحظة نفسها سجلها توفيق زياد .. هذا الشاعر الماركسي الكبير
 ولكنه سجلها كعيب في شعر محمود درويش ، وذلك في مقال له عن
 ديوان محمود « عاشق من فلسطين » ... يقول توفيق زياد « ص ١٤٤
 من كتاب عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني - دار العودة - بيروت » :
 « ... ولو كنا ننظر الى محمود درويش كشاعر وطني ديموقراطي
 فحسب ، لاكتفيننا بما تقدم . ولكننا نطلب منه أكثر من ذلك . نطلب منه
 ما نطلبه من أى شاعر بروليتارى ... والتأكيد هنا على المحتوى . ونأمل
 أن يعمل في كتاباته الشعرية القادمة على أن يعمق أكثر العناصر البروليتارية
 في شعره » .

ثم يقول توفيق زياد عن محمود درويش أيضا :

« من حقنا أن نطلب منه أشياء أساسية : أن يتجاوب أكثر مع كفاح الشعوب الأخرى الذى يشكل مضمون مرحلتنا التاريخية وأن ينظر الى الأمور عموديا أكثر . وحتى يستطيع ذلك من الضروري أن يعمق أكثر توجهه الطبقي ، حتى يشحذ مقدرته على الوصول الى قراءة أشرف المشاعر البشرية وأكثرها أصالة ، وأبعدها عن الشوائب » .

هذا هو نقد توفيق زياد ، الشاعر الشيوعى البارز ، لمحمود درويش ... وخلاصته أن محمود درويش لا يصدر فى شعره عن رؤية طبقية واضحة .. وهذا مأخذ فى نظر توفيق زياد ضد محمود درويش ، ولكنه فى اعتقادى ليس مأخذا ولا ينبغى أن يحسب من العيوب ، لا لأننا نرفض التفكير فى الكفاح الطبقي بل لأن قضية عرب الأرض المحتلة تكون محدودة اذا نظرنا اليها من هذه الزاوية . فمأساة شعب فلسطين هى قصة شعب يتم اقتلاعه من جذوره لا قصة طبقة مضطهدة . كما أن عرب الأرض المحتلة فى معظمهم فقراء لا يملكون شيئا ، وليست قضيتهم هى أن ينالوا حقوقا ضائعة لهم سلبتها طبقة أخرى تستغلهم ، بل ان هناك شيئا آخر غير الاستغلال الطبقي ... هناك الاستغلال العنصرى . والعامل اليهودى يختلف فى وضعه ومستوى حياته عن العامل العربى فى المجتمع الاسرائيلى . فالعامل العربى يعيش فى مستوى أقل ويتقاضى أجرا أقل .. والفارق بينه وبين العامل الاسرائيلى هو فارق عنصرى فرضته اسرائيل ، وليس هناك بين العاملين العربى والاسرائيلى أى وحدة طبقية بل ان العامل الاسرائيلى هو عنصر من عناصر استغلال العامل العربى .

هنا تكون النظرة القومية والانسانية الخالية من التعصب أشمل وأصح وهذا هو موقف محمود درويش فى جملته ، وهو موقف سميح القاسم أيضا . وهذا الموقف يختلف تماما عن موقف توفيق زياد ... الشيوعى الماركسى الملتزم لتفسيره الطبقي لكفاح شعب فلسطين .

تبقى هناك بعض التساؤلات... ماذا نقول مثلاً في القصيدة التي يتحدث فيها محمود درويش عن العرب في الأرض المحتلة « .. وكل رجالها في الحقل والمحجر يحبون الشيوعية » ؟ ..

من ناحية الحقيقة التاريخية نستطيع أن نقول أن هذا البيت من الشعر غير صحيح . فعرب الأرض المحتلة فيهم الشيوعيون وغير الشيوعيين وقد كانت هناك حركة قومية منفصلة عن الشيوعيين تماماً هي حركة « الأرض » فهذا البيت الشعري إذن لا يصور حقيقة تنطبق على كل عرب الأرض المحتلة . أما من ناحية محمود نفسه فنحن نحس أن شعره أصدق تصويراً لموقفه من آرائه المباشرة سواء جاءت هذه الآراء في بعض قصائده أو في تصريحاته المختلفة .

وليس في شعر محمود درويش اهتمام بالرؤية الطبقيّة ، بل هناك رؤية قومية انسانية وليس معنى ذلك أن موقفه معاد للماركسية ، كما أنه ليس في هذا القول أى قصد لمناقشة الفكر الماركسى أو الاعتراض عليه ، فالمجال هنا هو مجال تسجيل الحقيقة فيما يتصل بمحمود درويش شاعر الأرض المحتلة ... والحقيقة المستمدة من شعره هي أنه — بالدرجة الأولى شاعر قومى انسانى وأن هذه الرؤية القومية الانسانية هي — في اعتقادي — رؤية أصح وأشمل بالنسبة لقضية عرب الأرض المحتلة وهي تشتمل على الرؤية الطبقيّة وتتجاوزها وتمثل تعبيراً عن الحقيقة أصدق منها ... ذلك لأن عرب الأرض المحتلة ليسوا ضحايا الصراع الطبقي بقدر ما هم ضحايا الصراع العنصرى ، كما أنه ليس المقصود بقيام اسرائيل هو القضاء على كفاح الطبقة العاملة العربية ولكن المقصود هو إبادة الشعب العربى في أرض فلسطين .

ماذا نقول عن انتساب محمود درويش للحزب الشيوعى الاسرائيلى ؟ .. يجب أن ننظر الى هذا الانتساب في ظل عدة اعتبارات ، فليس هناك في الأرض المحتلة أى تنظيم سياسى قومى وليس مسموحاً بإقامة مثل هذا

التنظيم ، فليس هناك فرصة للاختيار أمام المناضل العربى فى الأرض المحتلة كى يحدد انتسابه السياسى بدقة ووضوح . ومن ناحية أخرى فإن الحزب الشيوعى الاسرائيلى هو الحزب الوحيد القريب من الاهتمام بقضايا العرب فى الأرض المحتلة ، وهو المظلة الشرعية التى تنشط تحتها الصحف العربية والأفكار المختلفة التى تدافع عن عرب الأرض المحتلة ، ولذلك فانتساب أى عربى فى الأرض المحتلة للحزب الشيوعى الاسرائيلى لايعنى أن هذا العربى قد تخلى عن نظراته القومية والانسانية العامة لقضيته كما أن الانتساب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى والمواقف الطيبة لهذا الحزب من القضية العربية لايمنعان من القول بأن هذا الحزب لايمكن أن يمثل وجهة النظر العربية بأمانة ودقة فهو فى نهاية الأمر حزب اسرائيلى ينظر الى الأمور من وجهة نظر استمرار دولة اسرائيل التى قامت على أساس طرد العرب من بلادهم . وهذا ما أظن أنه ينطبق على موقف محمود درويش . لقد اختار الانتماء الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى من خلال الظروف السياسية الواقعية فى الأرض المحتلة . وإذا تبين لنا فى آخر الأمر أن هناك بين عرب الأرض المحتلة قوميين وشيوعيين ، فإن موقف محمود درويش - رغم انتسابه للحزب الشيوعى ورغم تصريحاته المختلفة التى تقول بأنه شيوعى - هو أقرب الى القوميين منه الى الشيوعيين... ولكن قوميته تنزع نزعة انسانية عامة شاملة واضحة لا أحسب أن هناك ماركسيا مستتيرا يمكن أن يقف فى وجهها أو يعترض عليها . كما أن ثقافة محمود درويش الاشتراكية مسألة لاشك فيها ، وهذه الثقافة الاشتراكية تدعم نظراته القومية الانسانية تدعيما واضحا .

ماذا نتحام
منه
ومن رفاقه؟

كانت طلقات الرصاص وانفجارات القنابل والألغام في داخل فلسطين المحتلة هي البداية الصحيحة التي أيقظت الأمل في نفوس المواطنين العرب بعد الهزيمة المادية والمعنوية التي حلت بالوطن العربي في ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ان ظهور شخصية الفدائي العربي على سطح الأحداث هو الذي أشعل الشموع التي انطفأت في نفوسنا بعد ٥ يونيو فامتلأت أرواحنا بالظلام . ولاشك أن ظهور شخصية الفدائي العربي بهذه القوة يعتبر نقطة تحول واضحة ودقيقة في النفسية العربية ، وخلاصة هذا التحول هو الانتقال من اليأس الى الأمل ، وعودة ذكريات النضال العربي المنتصر الى ضمائر العرب ، فقد بدأنا نحس أن نفس الشرارة التي اشتعلت في جبال الأوراس بالجزائر و انتهت بالنصر قد عادت لتشتعل في فلسطين وتبدأ رحلة صعبة وطويلة ولكنها مليئة بالأمل .

هذا الذي حدث للنفسية العربية بعد ظهور الفدائي ، حدث أيضا في الشعر العربي المعاصر ، بعد ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة في فلسطين . وقد ظهر محمود درويش وزملاؤه بوضوح في الحياة الادبية بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . كانت هناك قبل ذلك معلومات محدودة عنهم ، وكانت هناك نصوص قليلة مبعثرة تظهر بين الحين والحين لهؤلاء الشعراء . كانوا قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ أشبه بحركة الفدائيين نفسها . فالحركة الفدائية كانت حركة محدودة متقطعة ، نسمع صوتها خافتا غير متصل بين فترة وأخرى ، ولكن حركة الفدائيين ازدادت قوة وتنظيما بعد ٥ يونيو . وكذلك محمود درويش وزملاؤه : لقد ظهوروا أمامنا بعد الهزيمة بوضوح أكثر ، وتجمعت أشعارهم الكثيرة وأصبحت مثل شلال هادر

يتدفق داخل الأرض المحتلة وخارجها . وأول ما نلاحظه ، وما سبق تسجيله في الفصول السابقة من هذا الكتاب هو أن محمود درويش وزملاءه لم يفقدوا الأمل ولم يفقدوا احساسهم بأن النصر سوف يتحقق . ولقد كان من المنتظر والطبيعي أن يكونوا هم أول اليائسين .. لأنهم يعيشون داخل أسوار اسرائيل ، وتسلط عليهم السلطات الاسرائيلية اربابها المادى والمعنوى كل يوم ، وهم يعيشون ضمن اقلية عربية يعاملها الاسرائيليون أسوأ معاملة .

ولكن الذى حدث هو العكس كما أشرنا في فصل سابق : انهم لم يفقدوا الأمل ، ولم تتحطم معنوياتهم ، ولم تمتلىء نفوسهم بأى لون من ألوان اليأس أو المرارة أو الاحساس بالتشاؤم . ان ما حدث لهؤلاء الشعراء هو نفسه ما حدث للفدائى الفلسطينى ، فلقد كان من المنتظر أيضا ومن الطبيعى أن يحس الفلسطينى بعد الهزيمة أن كل شىء قد ضاع ، وانه ثم يعد أمامه أى أمل على الأقل خلال عشر سنوات قادمة أو أكثر من ذلك بكثير . ولكن الهزيمة على العكس أعطت الفدائى قوة ومنحته حرارة وحيوية وحماسا قريبا من الحماس الدينى ، وأصبح الفدائى بعد الهزيمة يحس أن عليه أن يلعب دور البطولة دفاعا عن أطفاله وأرضه وبيته .

ان الشاعر محمود درويش وهو يقف في طبيعة شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة يتفجر بالشعر بعد هزيمة ٥ يونيو . وعندما نقرأ هذا الشعر نحس أن الشاعر المناضل لم يفقد ايمانه العميق بأن المعركة مستمرة ، وبأن النصر لابد أن يتحقق فى النهاية لأن القضية العربية قضية عادلة .. ان كل بيت من الشعر كتبه محمود درويش بعد ٥ يونيو يثبت أن أكثر الناس تعاسة هم أكثرهم قوة ونضالا ، وان المواطن العربى الذى يتعرض داخل أسوار اسرائيل لأقسى أنواع الاضطهاد هو فى نفس الوقت أكثر المواطنين صلابة واصرارا على النضال .

اننا نتذكر ونحن نقرأ أشعار محمود درويش تلك العبارة الشهيرة التى

تقول : « انكم لن تخسروا سوى قيودكم » فهذه العبارة تنطبق بصدق ودقة على المواطن العربى داخل اسرائيل .. فماذا يخسر هذا المواطن العربى هناك من النضال والثورة والتمرد ؟.. انه يعيش فى ظل ظروف قاسية مريرة حيث نهب الاسرائيليون أرضه وسدوا فى وجهه أبواب العسل والأمل .. فما الذى يخشاه هذا المواطن بعد ذلك كله . ان النضال هو الحل الوحيد أمامه ، والمقاومة هى الرؤية الصحيحة الوحيدة لهذا المواطن العربى فى ظل ظروفه القاسية .

ان محمود درويش لا يبكى بعده يونيو ولا يقول ان كل شىء قد انتهى ولم يبق أمامنا سوى الدموع . انه على العكس يشعر بمزيد من القوة ، ويشعر بأن الهزيمة قد فجرت عاصفة كبيرة سوف تقتلع ما أمامها من الصعاب والعقبات :

أخذوا بابا .. ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ليعطوك صباح
هدموا بيتا لكى نبني وطن

ويقول محمود درويش أيضا :

علمتني ضربة الجلال
أن أمشى على جرحى
وأمشى ثم أمشى .. وأقاوم

ويقول أيضا :

الموت والميلاد فى وطني المؤله توأمان

ويقول :

أعمدت فى لحم الظلام هزيمتى
وغرزت فى شعر الضياء أناملتي
فاذا احترقت على صليب عبادتى
أصبحت قديسا بزي مقاتل

هذه الأبيات التي كتبها محمود درويش بعد هزيمة ٥ يونيو ان دلت على شيء فانما تدل على قوة الاصرار وعمقه في قلب هذا الشاعر ، وهو نفس الاحساس الذي يملأ وجدان زملائه من شعراء المقاومة الذين يتعرضون لأقصى المحن وأكثرها صعوبة ، ومع ذلك فانهم يمتلكون بروح النضال والتفاؤل والايمان بالمستقبل والاحساس بأن الهزيمة ليست نهائية وانما هي خطوة على طريق النصر الذي لا بد منه . وهذه الروح النضالية الأصيلة التي تملأ شعر محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة ، هي التي صورها أحد هؤلاء الشعراء وهو « توفيق زياد » في قصيدة له عن أدباء المقاومة في الأرض المحتلة عنوانها « عشرون » ، وهو يعنى في هذا العنوان تحديد عدد (١) هؤلاء الشعراء والأدباء الذين يمثلون حركة المقاومة في الأدب العربي الفلسطيني داخل الأرض المحتلة ، ويتكون من بينهم تجمع أدبي كبير له تأثيره السياسى والنضالى عند الجماهير العربية الخاضعة للاحتلال الاسرائيلى ، وهم في نفس الوقت يمثلون قوة من قوى المقاومة العربية العنيدة بالنسبة للسلطات الاسرائيلية ، وقد استطاع بعضهم أن يحقق لنفسه سمعة خاصة في الدوائر الثقافية في أوروبا ، مثل محمود درويش وسميح القاسم وراشد حسين وتوفيق زياد نفسه ، ولذلك فان السلطان الاسرائيلية تخشى منهم جميعا ، وتفرض عليهم ألوانا من الاضطهاد ولكنها في نفس الوقت تخشى كل الخشية من أن تقتل أحدهم أو تفرض عليه النفي خارج البلاد بعد أن أصبحوا قوة ذات صوت مسموع ومرهوب ، ولا شك أن هؤلاء العشرين يمثلون مشكلة أساسية من مشاكل السلطات الاسرائيلية لم تجد لها بعد حلا نهائيا وهي لا تملك أمامهم أكثر من مصادرة مايكتبون ، واعتقالهم وتحديد اقامتهم ، وفصلهم من أعمالهم .. ومع ذلك فانتاجهم الأدبي يتسلل الى المواطنين العرب داخل الأرض المحتلة ويتسلل بعض هذا

(١) هناك تفسير آخر لعنوان هذه القصيدة وهو « عشرون » ، ويقول هذا التفسير ان الشاعر توفيق يقصد الاعوام العشرين التي قضاها العرب صامدين في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٦٨ .

الاتّاج خارج الأرض المحتلة ليثل تيارا كهربائيا فكريا وفنيا يهز
الضمير العربى ويثيره باستمرار .

من هم هؤلاء العشرون .. زملاء محمود درويش ورفاق طريقه فى الفن
والنضال ؟ .. لقد عرفنا انتاج بعضهم وقرأناه ولكننا لم نعرف انتاج
الآخرين بعد ، أما أسماؤهم فقد أصبحت كلها معروفة لنا وهم : محمود
درويش ، سميج القاسم ، نايف سليم ، حنا أبو حنا ، محمود دسوقي ،
حبيب قهوجى ، توفيق فياض ، فوزى الأسمر ، سالم جبران ، فهد
أبو خضرة ، أحمد حسين ، راشد حسين ، عصام العباسى ، عطاالله
منصور ، ابراهيم مؤيد ، زكى سليم درويش ، جمال قعوار ، أبو ياس ،
أحمد يونس ، توفيق زياد .

هؤلاء العشرون يحدثنا عنهم وعن دورهم النضالى وعن صمودهم
واصرارهم واحد منهم ، هو توفيق زياد فيقول :

كأننا عشرون مستحيل

فى اللد .. فى الرملة .. فى الجليل

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفى حلوقكم كقطعة الزجاج

وفى عيونكم

زوبعة من نار

وهو يؤكد أنهم سوف يقبلون أشق الأعمال وأقلها قيمة ، ولكنهم لن
يتركوا وطنهم ولن يتركوا أقدامهم ولن يتخلوا عن ايمانهم بقضيتهم :

هنا على صدوركم باقون كالجدار

ننظف الصحون فى الحانات

ونملأ الكؤوس للسادات

ونمسح البلاط فى المطابخ السوداء

حتى نسل لقمة الصغار

من بين أنيسابكم الزرقاء
هنا على صدوركم ، باقون كالجدار
نجوع
نعري
تتحدى

ننشد الأشعار

ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كسبرياء
ونصنع الأطفال ... جيلاً ثائراً
وراء جيل
اننا باقون
فلتشربوا البحر

نحرس ظل التين والزيتون
ونزرع الأفكار كالخمير في العجين
إذا عطشنا نعصر الصخر
ونأكل التراب ان جعنا
ولا نرحل

يا جذرنا الحى تشبث

واضربى فى القاع يا أصول

هذه هى الروح التى تسيطر على شعراء المقاومة ، انها روح التمسك
بالجذور ، روح الصلابة الثورية والاستشهاد والايمان القوى بعدالة
القضية ، روح الاستبسال الحقيقى الصادق ، روح النضال ذى النفس
الطويل الذى يحتمل الهزائم ، ولا يستسلم لها ، وانما يقف على قدميه
كل مرة ليبدأ من جديد .

والحقيقة أن محمود درويش ورفاقه من شعراء المقاومة وأدبائها يمثلون

« ظاهرة نفسية » جديدة لها قيمتها وأهميتها بالنسبة للأدب العربي المعاصر كله ، فهم ليسوا مجرد ظاهرة فنية وحسب ، انهم خميرة نضالية صادقة تنقل عدواها الى الآخرين وتمسهم بقوتها السحرية الأصيلة . والحقيقة أن الشعر العربي المعاصر قد تأثر تأثرا واضحا بهؤلاء الشعراء ، وتعلم منهم الكثير . لقد ترك هؤلاء الشعراء بصماتهم على الحركة الشعرية العربية المعاصرة .. وخاصة من الناحية الموضوعية والنفسية .

والحق أن روح المقاومة التي يشتملها الفدائي والشاعر معا سوف تقدم للأمة العربية قوة جديدة تمنحها مزيدا من القدرة على الحركة والانتقال من الموقف الراهن الى موقف آخر أكثر أملا وأكثر اشراقا .

وسوف نقف أمام ثلاثة نماذج يمثل كل منها نوعا من التأثير بشعراء المقاومة . ولولا شعراء المقاومة .. لولا أشعارهم ومواقفهم لما ظهرت هذه النماذج الشعرية الجديدة ذات الدلالة العميقة .

والنموذج الأول تقدمه الشاعرة فدوى طوقان ، وهي الشاعرة الفلسطينية التي ولدت وعاشت في نابلس في الضفة الغربية للاردن ، وقد بقيت الشاعرة في مدينتها بعد الاحتلال الاسرائيلي ، وعانت مايعانيه أهل الضفة الغربية من ظروف الضغط والارهاب . وفدوى طوقان كانت في كل شعرها قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ تعبر عن قلب حزين متشائم يأس تملأه دموع غزيرة . وكما أشرت في فصل سابق من هذا الكتاب كان وراء شعرها الحزين تجربة شخصية وتجربة عامة ، أما التجربة الشخصية فتتمثل في موت شقيقها الشاعر الكبير ابراهيم طوقان عام ١٩٤١ في زهرة شبابه ، ثم موت شقيقها نمر بعد ذلك في حادث طائرة . أما التجربة العامة فهي تجربة وطنها فلسطين . فلقد تركت المأساة الفلسطينية في قلب هذه الشاعرة الحساسة جرحا عميقا ، هو الجرح الذي جعل من شعرها دموعا وأحزانا دائمة ... ولقد كان من المنتظر أن تزيدها هزيمة ٥ يونيو حزنا فوق حزن ، ولكن الذي حدث هو العكس ، لقد انطلقت من أعماق الشاعرة الحزينة شرارة

فضالية . فقد ذهبت الشاعرة الى يافا بعد عدوان ٥ يونيو ، ولأول مرة ترى هذه المدينة العربية منذ عام ١٩٤٨ ، حينما أقيمت دولة اسرائيل ، واختفت المدن العربية العزيزة واحدة بعد الأخرى خلف الأسوار التي أقامتها اسرائيل . وفي يافا وبعد عدوان ٥ يونيو بعدة شهور التقت فدوى طوقان بالشعراء الشبان الذين يقيمون في الأرض المحتلة ، شعراء المقاومة والنضال .. التقت بمحمود درويش ورفاقه .. وبعد هذا اللقاء كتبت الشاعرة قصيدة بعنوان « لن أبكى » :

على أبواب يافا يا أحبابي
وفي فوضى حطام الدور بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين
قفا نبكى
على أطلال من حلوا وفاتوها
تنادى من بناها الدار
وتنعى من بناها الدار
وكان القلب منسحقا ..
وقال القلب :
ما فعلت
بك الأيام يادار ؟

ولكن الشاعرة رغم كل هذه الأحزان التي هاجمتها عندما رأت يافا ، قد وجدت في نفسها أملا جديدا مشرقا بعد لقاءها بهؤلاء الشعراء الشبان الذين يقيمون في الأرض المحتلة ، وانطلقت الشاعرة تقول :

أحبابي ...
مسحت عن الجفون ضبابة الدمع الرمادية
لألقاكم وفي عيني نور الحب والايمان
بكم ، بالأرض ، بالانسان

فواخجلى لو أنى جئت ألقاكم
 وجفنى راعش مبلول
 وقلبي يائس مخدول
 وها أنا يا أحبائي هنا معكم
 لأقبس منكم جمرة
 لآخذ يا مصاييح الدجى من زيتكم قطرة
 لمصباحى ، وها أنا يا أحبائي
 الى يديكم أمد يدي

وعند رؤوسكم ألقى هنا رأسى
 وأرفع جبهتى معكم الى الشمس
 وها أنتم كصخر جبالنا قوة
 وها أنتم كزهر بلادنا الحلوة
 فكيف الجرح يسحقنى
 وكيف اليأس يسحقنى
 وكيف أمامكم أبكى

يمينا بعد هذا اليوم لن أبكى
 ثم تقول فدوى طوقان فى نفس القصيدة مخاطبة محمود درويش
 وزملاءه من شعراء المقاومة :

أحبائي ، مصاييح الدجى ، ياخونى فى الجرح
 ويأسر الحميرة ، يا بذار القمح

يموت هنا ليعطينا

ويعطينا

ويعطينا

على طرقاتكم أمضى

وها أنا بين أعينكم

الملهم دموع الأمل
وأزرع مثلكم قدمي في وطني وفي أرضي
وأزرع مثلكم عيني في درب السنى والشمس

وهكذا ، ولأول مرة على وجه التقريب بين عشرات الفصائد التي كتبتها
فدوى طوقان خلال مايقرب من ربع قرن من حياتها الفنية نحس بروح
التفاؤل الثورى ، والأمل في الغد ، بعد أن كان شعرها كله حزنا ودمعا
وتعبيرا عن نفسية يائسة ممزقة خالية من أى أمل في المستقبل ، ان الشاعرة
فدوى طوقان تجسد في هذه القصيدة بداية من بدايات التحول الكبير في
نفسية الشعراء العرب ، وهو التحول الذى يعود الفضل الكبير فيه الى
ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة في الأرض المحتلة والى
تأثيرهم على نفسية المواطنين والشعراء العرب على السواء .

أما النموذج الثانى الذى يكشف لنا أثر شعراء المقاومة على غيرهم من
الشعراء العرب فيمثلته الشاعر الفلسطينى « أبو سلمى » ، وأبو سلمى هو
أحد كبار الشعراء الفلسطينيين الذين ينتسبون - كما أشرنا من قبل في
فصول سابقة - الى جيل الثورة التى اشتعلت على أرض فلسطين عام
١٩٣٦ . وهى الثورة التى تأمرت عليها انجلترا مع الاسرائيليين ومع عدد
من السياسيين الرجعيين من أمثال نورى السعيد ، واشتركت في هذه
المؤامرة بعض القيادات الفلسطينية التقليدية من أمثال الحاج أمين الحسينى
ولكن هذه الثورة مع ذلك كله كانت تمثل أعلى موجة من موجات المقاومة
الفلسطينية قبل قيام اسرائيل . وفي ظل هذه الثورة اشتعلت روح المقاومة
في الشعر العربى الفلسطينى ، وهى الروح التى نجدها واضحة في شعر
« أبو سلمى » الذى كتبه في مرحلة الثورة « ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ » وفي
الأعوام القليلة التالية للثورة . على أن « أبو سلمى » بعد أن رأى المأساة
ترحف على وطنه تغير موقفه النفسى ، فبدأ الأسى يملأ وجدانه ، وأصبح
شعره مليئا بالحزن والبكاء على أرضه وشعبه ، وقد ظل « أبو سلمى »

يمثل هذا الصوت الحزين المتفجع الباكي على اللاجئين في خيامهم ، وعلى المدن والقرى الفلسطينية التي بدأت تغيب عن العين في ظل الاحتلال الصهيوني ، حيث تغيرت أسماء هذه المدن والقرى بأسماء اسرائيلية ، فقد تحولت يافا الى « يافو » وعكا الى « عكو » وحدثت تغييرات أخرى شاملة لكل الأسماء العربية الغالية على قلوبنا جميعا ، كذلك تغيرت الملامح العربية للقرى والمدن واكتست بطابع يهودى وامتدت يد الهدم والتغيير الى الشوارع والكنائس والجوامع .

وقد ظل أبو سلمى يعبر في شعره عن هذا الحزن الكبير العميق ، حتى اشتعلت المقاومة في فلسطين بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وحتى ظهر هؤلاء الشعراء الشباب الذين يمثلون الوجه الثانى من وجوه المقاومة العربية ، حيث يعتمد الوجه الأول على القوة الفدائية المسلحة .

واستطاع هؤلاء الشباب أن يدفعوا قلب الشاعر الكبير الذى قضى أكثر من ثلاثين عاما يحمل القضية الفلسطينية في قلبه ، ويضمها بين جناحيه ، وقضى منها مايقرب من عشرين عاما لا يجد لشاعريته زادا الا الحزن والأسى واليأس . وهكذا امتلأت نفسية « أبو سلمى » بعواطف جديدة ، وازدهرت فيها آمال حارة ، وتغير موقفه الوجدانى من اليأس الى التفاؤل . وهاهو يقول في قصيدة أخيرة له بعنوان « من فلسطين ريشتى » حيث يخاطب شعراء المقاومة الشباب :

شعراء الجليل والشاطئ العربى
أنتم طلائع الفرسان
شعركم مثلكم خلودا ويسرى
من فلسطين فيه نفح الجنان
زنتم الليل بالحروف نجوما
يا أجبأى فى أحب مكان
تحدون بالقوافى المدامة
نضالا عصاة الشيطان

طلع الشعر فوق أرضكم الخضراء
 عرساً مخضب الأغصان
 كل شعر سواه تلوى به الريح
 ويطويه عالم النسيان
 شعركم وحده يعمق في الأرض
 جذور الصمود والعنفوان
 شعركم وحده المجلجل في الساح
 رفيق السلاح في المعمان

وهكذا يعود الأمل الى قلب الشاعر الكبير الحزين ، فيحس باقتراب
 النور والخلاص ، بعد أن كان يحس بأن الظلام يحيط به وبقضيته من كل
 جانب ، ولذلك فهو يخاطب الفدائيين والشعراء من أبناء الأرض المحتلة
 فيقول :

عندما تخطرون تزهو الأرض
 وتهدي غلائل الريحان
 نحن أسرى وأنتم أتمم الأحرار
 خلف السجون والقضبان

ولكن الأسير الذي يمثله « أبو سلمى » يتحرر من أسرهِ وينطلق في عالم
 كبير من الأمل عندما يرى الأسرى الحقيقيين من أمثال محمود درويش
 يشعرون بالقوة والأمل الكبير في الغد ولا يستقر اليأس القاتم في قلوبهم
 على الإطلاق .

والنموذج الثالث الذي يمكن أن نقدمه في هذا الميدان ، كآثر من آثار
 محمود درويش وزملائه من شعراء الأرض المحتلة وصمودهم الكبير سواء
 في مواقفهم ضد السلطات الاسرائيلية أو في أشعارهم الثورية التي تنبض
 بالأمل وبروح النضال الحقيقي .. هذا النموذج الجديد يمثله الشاعر نزار
 قباني الذي أحس بصوت الهزيمة في ٥ يونيو احساساً مدوياً عنيماً ، فأنفجر

فى عدد من قصائده يصب غضبه على شعبه ، ويحمل فى هذه القصائد سكيناً يمزق بها نفسه وقومه معا ، ويحاول أن يضع أصبعه أو سكينه بقسوة على مناطق الداء ويطالب بالقضاء عليها ، ولقد كان معظم شعر نزار قباني قبل النكسة يدور حول المرأة وحول تجارب الشاعر العاطفية بل والحسية أيضا .

ولكن صوت الهزيمة أيقظه من أحلامه الناعمة الهادئة ، فانطلق ليغنى فى شعره بطريقة جديدة وأسلوب جديد ، وكان من أكبر التجارب النفسية والفنية التى أثرت فى نفسه تجربة لقائه مع شعر المقاومة وتأثره بشعراء المقاومة ومواقفهم المختلفة ، لقد اهتز نزار قباني من أعماقه أمام هؤلاء الشعراء الشبان المناضلين ، ووقف أمامهم يعطيهم العهد الصادق أن يتعلم منهم ويجعلهم مثلاً أعلى لدور الفنان فى حياتنا العربية ، بل وأخذ يطلب بصوت مرهف وعنيف بأن يقف كل الشعراء أمام محمود درويش وزملائه ليتعلموا منهم كيف يكون الشعر وكيف يكون الإنسان . يقول نزار قباني فى قصيدته الى « شعراء الأرض المحتلة » :

شعراء الأرض المحتلة

يا أجمل طير يأتينا من ليل الأسر

يا حزنا شفاف العينين ، نقياً مثل صلاة الفجر

يا شجر الورد النابت من أحشاء الجمر

يا مطراً يسقط رغم الظلم ورغم القهر

تتعلم منكم كيف يغنى الغارق من أعماق البئر

تتعلم كيف يسير على قدميه القبر

تتعلم كيف يكون الشعر

وفى فقرة سابقة على هذه الفقرة يقول نزار :

تتعلم منكم منذ سنتين

نحن الشعراء المهزومين

نحن الغرباء عن التاريخ وعن أحزان المحزونين
تتعلم كيف الحرف يكون له شكل السكين

اذن فقد استطاع شعراء المقاومة أن يخلقوا نعمة نفسية جديدة في أعماق
الشاعر العربي خارج الأرض المحتلة ، وهذه النعمة الجديدة هي الخروج
من الحزن والبكاء كما خرجت فدوى من عالمها الباكي الحزين على يد
شعراء المقاومة ، لتنضم الى موكبهم الصامد المملوء بالأمل والتفاؤل
والاصرار على النضال . وهذه النعمة النفسية الجديدة هي نعمة العودة
الى التفتح والانطلاق وروح النضال عند شاعر مثل « أبو سلمى » ...
لقد أعاده هؤلاء الشعراء الشبان الى روح ثورة عام ١٩٣٦ ، وهى روح
المقاومة والاصرار لا روح الحزن والاستسلام .. لقد عاد أبو سلمى الى
حرارة شبابه ، بعد أن كان قد يئس وسلم وجدانه لأحاسيس المشرد الضائع ،
والنعمة النفسية الجديدة أيضا هي الخروج من التجارب الذاتية الناعمة
التي كانت محور قصائد نزار قباني في معظمها ، ثم هذا الوعد الذى يقدمه
نزار بالالتزام فى الموقف الشعرى .. الالتزام بالقضية العربية حتى النصر ،
فهى وحدها منبع الشعر ومصدر الهامة عند نزار منذ ٥ يونيو الى اليوم .
وهكذا .. لقد أعاد شاعر المقاومة الأمل الى النفس العربية وانتقل
بالشعر والشعراء الى عالم جديد وموقف جديد من الحياة . ليس فيه
يأس ولا بكاء بل فيه أمل وتفاؤل ونظرة الى الأمام . ان يد الشاعر فى
الأرض المحتلة تمسح على نفوس الشعراء خارج هذه الأرض لتمحو آثار
الهزيمة المعنوية التى ملأت نفوسهم بعد ٥ يونيو .
وهكذا فالجريح الآن هو الذى يعطينا الدواء ويقدم الينا العلاج الروحى ،
لأن نفسه رغم الجرح أقوى من نفوسنا وأشد عزيمة واصرارا من الجميع .

كلمة أخيرة

بعد هذه الرحلة مع محمود درويش وفنه نستطيع أن نخرج بمجموعة من الملامح الرئيسية التي يتكون منها فن هذا الشاعر ووجدانه ، وان كنت أشعر أن من الصعب أن يقول النقد كلمة نهائية في فن محمود درويش وذلك لأنه ما زال شابا أمامه فرصة واسعة للتطور الفني ، رغم أنه ، وهو في الثلاثين من عمره الآن « ١٩٧١ » ، قد قدم إلينا انتاجا فنيا غزيرا يسمح لنا بدراسته والوقوف أمامه كشخصية واضحة المعالم وعلى درجة كبيرة من النضج والعمق والحرارة .

وخلاصة ما يمكن أن نقوله بعد هذه الرحلة مع محمود درويش ومن خلال المجموعات الشعرية التي أصدرها حتى الآن هو أنه تأثر في تكوينه الفني والفكري بعدة عوامل منها :

أولا : العقيدة الاشتراكية التي خلقت فيه نزعة انسانية عميقة ، وفتحت أمامه آفاقا واسعة يطل منها على ثورة الانسان المعاصر ضد الظلم والاستغلال ... لقد ساعدته هذه العقيدة الاشتراكية على النضج المبكر والتفتح والفهم الصحيح لمشاكل الانسان والمجتمع .

ثانيا : عقيدته القومية ... فهو عربي مؤمن بعروبه كل ذلك في غير ما تعصب أو استعلاء أو محاولة للرد على المأساة التي يعيشها العرب في فلسطين بأفكار عنصرية مليئة بالحققد والكراهية للشعوب الأخرى ... انه عربي انساني يطلب العدل والخلاص من الظلم والقضاء على الاستغلال .

ثالثا : شعر محمود درويش ليس وليد التأمل الشخصي والحجرات المغلقة، فهو شاعر مرتبط بالناس .. بمشاكلهم وقضاياهم ، وكثيرا ما ألقى قصائده على الجماهير، وأجس دائما أن الكلمة لامعنى لها « اذا لم تحمل المصباح

من بيت الى بيت » ، فشعره كله يحمل نبضا صادقا هو ثمرة الاتصال بالناس والمحبة الغامرة لهم والمشاركة الصادقة غير المفتعلة لآلامهم وظروفهم المختلفة التى هى آلام محمود درويش وظروفه فى نفس الوقت :

رابعا : من ناحية الثقافة الفنية استطاع محمود درويش أن يكون نفسه تكويننا ثقافيا ممتازا ومتكاملا ، فمحمود درويش وثيق الصلة بالثقافة العربية القديمة ، ووثيق الصلة بالثقافة العربية المعاصرة ، يتابعها بأمانة ودأب ويتأثر بتياراتها المختلفة ، ولذلك لا يبدو محمود درويش ظاهرة منفصلة عن التطورات الأدبية العربية ... بل نجد انه قد تأثر بحركة الشعر الجديد واستفاد منها فائدة واسعة وأضاف إليها فى نفس الوقت اضافات حقيقية . أما ثقافته العامة فقد امتدت الى الأدب العالمى عن طريق اللغة الانجليزية واللغة العبرية التى يجيدها محمود درويش ويقرأ بها ما يترجمه الاسرائيليون من الأدب العالمى .

واذا كانت هذه هى العوامل الرئيسية التى أثرت فى شخصية محمود درويش الفنية بالاضافة الى عامل العوامل كلها والذى يتجسد فى المأساة الفلسطينية نفسها ... فمحمود هو تلميذ هذه المأساة ، وابنها ، وشاعرها ، ومغنيها الكبير... بالاضافة الى هذه العوامل كلها فاننا نلتقى فى شعره بسلامح أخرى لنفسيته وموقفه الفكرى ، فهو شاعر « التفاؤل الثورى » بكل معنى الكلمة ... انه يؤمن ايمانا « صوفيا » بعدالة قضيته وضرورة انتصار هذه القضية ، ولا يعبر فى شعره عن يأس أو روح عدمية قائمة ، وكثيرا ما يترك الواقع ويرفرف بجناحيه فى عالم الأحلام .. ذلك لأنه يعيش فى حلم كبير متوهج هو حلم النصر الكامل للقضية المظلومة التى يعبر عنها .

وهو شاعر الأرض ... يتمسك بها ، بأعشابها وصخورها وتراثها وتربتها الى أبعد الحدود ... وقضية ارتباطه بالأرض تبدو قضية مقدسة عنده ... فهو يلح الخاحا وجدانيا عميقا على نعمة التمسك بالأرض ومن هنا استحق

— فيما أتصور — أن نسميه « شاعر الأرض المحتلة » ... لأنه يغنى دائما
لهذه الأرض ويتمسك بها ويحنو عليها :

يا نوح

لا ترحل بنا

ان الممات هنا سلامة

انا جذور لا تعيش بغير أرض

ولتكن أرضي قيامة !

وهو شاعر « الحنان » و « الأسرة الممزقة » ... ان قلبه ملئ بالحنان
الناغم الدافئ ، يحاول أن يجمع بين جناحي قصائده كل ما تبشر وتمزق
من أسرته التي هي نموذج لشعبه أيضا ، والأسرة تحتل في شعره مكانا
بارزا ... الأب والأم والأخت والجد والبيت بمدفأته وقهوته وخبزه وحبل
غسيله ... انه يعبر عن الأسرة بالحب العميق واللهفة الصادقة ، والحنان
الحقيقي الأصيل ... ذلك لأن جرح وطنه قد أصاب الأسرة في بلاده
فمزقتها وفرقها وأبعد الأم عن طفلها والأب عن زوجته وأولاده ... وهكذا
ان حنان محمود درويش ، نحو شعبه وأهله ، ونحو أسرته على
وجه الخصوص هو عاطفة أساسية تحس بها كالتيار المتدفق الجارف في
شعره ... انه يقول عن أخته :

حرير شوك أيامي على دربي الى غدها

حرير شوك أيامي

وأشهى من عصير المجد ما ألقى ... لأسعدها

وأنسى في طفولتها عذاب طفولتي الدامي

وأشرب كالعصافير الرضا والحب من يدها

ويقول عن أمه بنفس الحنان والحب والحرارة :

أحن الى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي

وتكبر في الطفولة
يوما على صدر يوم
وأعشق عمرى لأنى
إذا مت
أخجل من دمع أمى

انه حنان صادق وحقيقى ، يكشف لنا مدى ما يحمله قلب الشاعر من عاطفة أصيلة تهدف الى تجميع شعبه المشرّد من جديد ... بحيث تعود الأسرة العربية والبيت العربى الى الحياة السعيدة التى يلتقى فيها الأب والأم والابن والأخت ... وبحيث ترفرف تلك العاطفة الحنون التى تملأ الأسرة على كل مكان ... وبحيث ترتوى هذه العاطفة الصادقة الأصيلة النى مزقها اليهود !

ان محمود درويش صاحب شاعرية خصبة وعاطفة عميقة وقلب كبير ونظرة انسانية مليئة بالحب للآخرين .. ولا شك أن ما حققه هذا الشاعر حتى الآن على قيمته ونبله — انما يبشر أيضا بالكثير الذى يمكن أن يحققه فى المستقبل .

وأخيرا ... أحب أن أشير الى بعض المراجع الرئيسية التى أفادتني فائدة كبيرة فى هذا البحث ... هناك دراسات الأستاذ غسان كنفانى القيمة عن أدب المقاومة ، ثم « ديوان الأرض المحتلة » الذى أصدره الشاعر الأستاذ يوسف الخطيب وجمع فيه نسبة كبيرة من نصوص الشعر فى الأرض المحتلة كما قدم له بمقدمة شاملة وممتازة وهناك المجموعة الكاملة لشعر محمود درويش والتى أصدرتها دار العودة فى بيروت ، وكتابته « شىء عن الوطن » وهو مجموعة مقالات وأحاديث لمحمود أصدرته دار العودة أيضا ، وهناك الدراسات التى قدمها مركز الأبحاث الفلسطينية الذى يرأسه العالم العربى اللامع الدكتور أنيس صايغ ، ان هذه الدراسات هى دليل ثقافى وافر الغنى والخصوبة لأنى باحث فى القضية الفلسطينية من جوانبها السياسية أو الفكرية أو الفنية . وأذكر هنا على وجه

الخصوص كتاب « العرب في اسرائيل » للمحامى العربى صبرى جريس . وقد أصدره مركز الأبحاث منذ أكثر من سنتين . وأحب أن أشير أيضا الى كتاب « العرب في الأرض المحتلة » للأستاذ ربحى كمال والى دراسات الدكتور عبد الرحمن ياغى عن شعر المقاومة . هذه كلها كانت مراجع ممتازة أفادتني وساعدتني في اعداد هذا البحث عن محمود درويش .

ولتذكر في النهاية ان محمود درويش ليس مجرد شاعر كبير وانما هو مناضل كبير أيضا ، ولذلك فان أى دراسة له كان يجب أن تمتد الى التعرض لظروف الأرض المحتلة وشعبها العربى ... ولعل خير ما يصور محمود درويش ، ذلك الشاعر المناضل الانسان ، في كلمات قصيرة وصادقه هو قوله :

مليون عصفور

على أغصان قلبى

يخلق اللحن المقاتل

ملحق :

وثيقتان

الوثيقة الاولى :

نص قرار الحزب الشيوعى الاسرائيلى بفصل

محمود درويش بعد خروجه من اسرائيل

- ١ - بحثت سكرتارية منطقة حيفا للحزب الشيوعى الاسرائيلى فى ترك الشاعر محمود درويش - عضو الحزب الشيوعى الاسرائيلى - البلاد وانتقاله الى القاهرة ، الأمر الذى جرى بدون معرفة الحزب .
- ٢ - ان الحزب الشيوعى الاسرائيلى ينتقد هذه الخطوة التى قام بها محمود درويش ويعتبرها خطوة غير صحيحة ومخالفة لواجباته .
- ٣ - تقرر سكرتارية منطقة حيفا للحزب الشيوعى الاسرائيلى فصله من الحزب .
- ٤ - ان الحزب الشيوعى الاسرائيلى يناضل ضد سياسة التمييز القومى والاضطهاد البوليسى الذى تقوم به الأوساط الحاكمة فى اسرائيل والموجهة ضد المثقفين العرب الديمقراطيين .. هذه السياسة التى قاسى منها محمود درويش بشكل خاص ، فلمدة متواصلة فرض عليه الاعتقال المنزلى والاقامة الجبرية فى حيفا . كما اعتقل من وقت لآخر ، بشكل تعسفى الى حد عدم الاعتراف بأنه ذو جنسية اسرائيلية .
- ولكن هذه السياسة وهذه الاجراءات التعسفية التى تقوم بها الأوساط الحاكمة لاتبرر خطوته هذه وهى هجر البلاد وترك ساحة النضال من داخل اسرائيل .

الوثيقة الثانية :

نص كلمة جريدة « الاتحاد » العربية

التي تصدر في حيفا عن خروج

محمود درويش من اسرائيل

محمود درويش لم يرحل

ظهر هذا المقال في جريدة « الاتحاد » بدون توقيع ، ولكن من المعتقد أن كاتبه هو « اميل حبيبي » احد كتاب الارض المحتلة البارزين ومؤلف رواية « سداسية الايام الستة » المعروفة والتي نشرتها روايات الهلال في شهر يونيو ١٩٦٩ ، واميل حبيبي هو عضو عربي في البرلمان الاسرائيلي « الكنيست » كما أنه عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الاسرائيلي « راحا » . . واميل حبيبي ايضا هو واحد من ابرز المناضلين من اجل قضية العرب في الارض المحتلة « ر.ن »

« أقول للناس ، للأحباب : نحن هنا
أسرى محبتكم فى الموكب السارى »
محمود درويش

من الطبيعى أن يشعر الناس هنا ، الذين ذهب محمود درويش ورفاقه
الى السجون مرات ومرات « أسرى محبتكم » بالمرارة وبالأسى حين
فوجئوا برحيله الى القاهرة ، لقد ظل باسمهم سنين طويلة يهتف ، متحديا
أقسى الضنى ومجهزا على عشرات اليأس :
« يا صخرة صلى عليها والدى لتصون

ثائر

أنا لن أبيعك بالآلى

أنا لن أسافر

لن أسافر

وأنا مع الأمطار ساهد

عبثا أحلق فى البعيد

سأظل فوق الصخر ، تحت الصخر

صامد .. !

حتى أصبح التعبير ، الذى أدهش العالم .. عن أمل شعب من الصعب
أن يلومه أحد اذا مافقد الأمل . ففى أصعب الأوقات ، حين ادلهم ليل
وأصبح من العسير على الكثيرين التنفس ، وجد محمود درويش تعزية
وتحديا فى « قوة صمت المقبرة » ! ومع ذلك لم نصمت . ولكم آثار

صرخة الناس الطيبين في البلاد العربية ... قوى التقدم وسلام الشعوب
العادل الذين أرادت الأيدي السوداء ، مستغلة مأساة ١٩٦٧ ، أن تقتل
في نفوسهم أملهم بالتححر وبالسلام وبالتقدم الاجتماعى : فاذا لم يفقد
الأمل هؤلاء ، كيف نفقده نحن ؟

باسمنا يهودا وعربا ، نعم . يهودا وعربا . بل لأننا معا سرنا يهودا
وعربا . باسم صمودنا خلال أطول ليل ، هتف محمود درويش :

« خسرت حلما جميلا

خسرت لسع الزنابق

وكان ليلي طويلا

على سياج الحدائق

وما خسرت السبيل

ولا نبوح بالسر ، الذى تعرفه السلطة ، اذا ذكرنا الآن أن المنكوبين
في القدس العربية المحتلة طبعوا وتناقلوا وحفظوا عن ظهر قلب ، مجففين
دموعهم ، أبيات محمود درويش المهداة الى مدينة القدس واخواتها :

« واذا كنت أغنى للفرح

خلف أجفان العيون الخائفة

فلأن العاصفة

وعدتني بنبيذ

وبأقواس قزح »

فكان من الطبيعى أن يدرك محمود درويش .. كما سمعناه في بيانه
في مؤتمره الصحفى في القاهرة ، انه مهما حاول حصر رحيله في اطار
التصرف الشخصى الصرف ، ومهما بذل من منتهى الجهد « للجيلولة دون
تحويله الى موضوع للمناقشة وللأخذ وللرد . فان رحيله يظل قضية
عامة . وليس من حقه كما اعترف هو نفسه ، « بأن أتصرف كمسافر
وكسائح » وبأنه مطالب كما قال هو نفسه ، « أمام نفسى وأمام الرأى

العام بتقديم بعض التحديات العامة لأتباع بعدها طريقى .

ونحن أيضا نرغب فى الحيلولة دون تحويل رحيله الى موضوع للمناقشة وللأخذ وللرد . وذلك لادراكنا معدن محمود درويش وان رحيله كما أعلن فى مؤتمره الصحفى ، ليس نابعا عن رغبته فى الانسلاخ عن انتمائه السياسى والفكرى . وأنه لا يزال يؤمن بحزبنا وبببإدىء هذا الحزب الذى ، كما قال عنه فى مؤتمره الصحفى يضم فى جبهة واحدة متراسة كل العناصر المناضلة من المواطنين العرب وخيرة العناصر المكافحة من المواطنين اليهود ..

وانه يشير الى امكانية التعايش والحياة المشتركة السعيدة بين العرب واليهود ، ويرفع الشعار : مع الشعوب العربية ضد الاستعمار لا مع الاستعمار ضد الشعوب العربية ، وهو يحذر من الهاوية التى يقدم الحكم الاسرائيلى المواطنين اليها اذا ما استمر فى تنكره لحقوق الشعب العربى الفلسطينى والاعتداء على الأرض العربية وحقوقها وسيادتها . واذا ما استمر تحالفه العضوى مع الامبريالية العالمية . ومع هذا فمن الواضح أننا نعارض رحيله ولا تقبل الحجج التى قدمها لتبرير هذه « الخطوة الخطيرة » كما سماها هو . وهو نفسه يدرك أنه بتصرفه الفردى هذا ، الذى أخفاه عن حزبه ، لم يبق أمام الحزب أى طريق سوى اتخاذ الاجراءات التنظيمية الملائمة تجاه تصرفه هذا .

وهو نفسه أعلن فى مؤتمره الصحفى فى القاهرة أن الحزب من حقه الطبيعى « أن يتحفظ من هذا السلوك الفردى الذى خالفت به أبسط قواعد التنظيم الحزبى » .

ويبقى رحيل محمود درويش قضية فردية فى معنى معين ، وقضية عامة فى معنى آخر :

أما انها قضية فردية فالأنه مهما يشتد القهر لا يستطيع جميع عرب اسرائيل الرحيل الى القاهرة أو غيرها ، ولا القاهرة أو غيرها تفتح أبوابها

لجميع العرب في اسرائيل ، فهذا ليس حلا واقعيا لا بالنسبة الى الناس العاديين ولا بالنسبة الى الناس المكافحين .

وأما انها قضية عامة فلأنها تعبير مؤلم عن قسوة وغباء السياسة الرسمية تجاه العرب في اسرائيل ... (١) الذين يملأون الدنيا صراخا عن رغبتهم في السلام وفي التعايش السلمى مع الشعوب العربية ، لم يفكروا في يوم من الأيام أن يثبتوا في علاقتهم بالأقلية العربية التى تعيش في وطنها في ظل الحكم الاسرائيلى أكثر من ٢٢ عاما .

بل عاملوها معاملة الشعب المغلوب على أمره ، ان محمود درويش ، مثل كثيرين غيره . هو « لاجئ » في وطنه .

ان قريته « البروة » وقد هدمت وقامت مكانها مستوطنة يهودية . فالتجأ مع عائلته الى قرية جديدة مجاورة فاعتبر « لاجئا » ومنعت السلطات عنه الجنسية الاسرائيلية .

ان محمود درويش شاعر كبير وأى حكم يتحلى بذرة من المسؤولية كان يجب أن يترك هذا الشاعر الكبير وشأنه ان لم يحاول احتضانه ، ولكن الحاكمين المتغطرسين في بلادنا ، الذين أعمتهم عنصريتهم ، كانوا أشد غباوة من بومة في محاولتهم تنغيص الحياة على محمود درويش ورفاقه وجعلها غير محتملة ، ان من سخرية القدر أنه ماكان يفجر نغم في اسرائيل الا وتسرع الشرطة الى اعتقال محمود درويش .. بدون محاكمة . ولمدة طويلة فرضت عليهم الإقامة الجبرية في بيوتهم أثناء الليل ، يغيبون مع الشمس ويشرقون معها .

ومحمود درويش المحروم من زيارة قريته الأصلية حرم من زيارة أهله في منفاهم في قرية جديدة .

لقد قال محمود درويش انه برحيله الى القاهرة لم يرحل عن المعركة التى كرس حياته وشعره من أجلها بل انتقل الى موقع جديد أرحب صدرا وغنى بإمكانات الحركة .

(١) يقصد الكاتب هنا حكام اسرائيل .

اتنا على ثقة بأننا أشد حاجة الى محمود درويش هنا ، بيننا . ولكن
 حكام بلادنا يجب ألا يلوموا الا أنفسهم للنتيجة التي توصل اليها محمود
 درويش ، وفرحتهم على أنهم تخلصوا منه هي مثل فرح التيس الذي حين
 يأكل جذور الشجر ويفرح لا يفكر بغذاء السنة القادمة .

وأما نحن هنا . الباقون أبدا هنا . والمتفائلون مهما طال ليل فان
 « خلف شباكنا نهار » . ونصر على أن ندافع عن حقنا بأن ندافع « وعن
 دفاعي أدافع » كما قال محمود درويش لنحقق بقوة الشعب الكادح الذي
 لا يمكن أن يكون اليأس بديلا عن واقعه النفسى ، آمياتنا الكفاحية .

فـ

صفحة	
٥	مقدمة الطبعة الأولى
١١	مقدمة الطبعة الثانية
١٣	العرب في اسرائيل
٣٧	كفر قاسم
٥٣	شعراء وشهداء
٧٣	المهزومون
٨٣	الشاعر الجديد
٩٥	ملاح شخصية
١١٧	ملاح فنية
١٥٣	الغموض والتصوف
١٦٥	مع الطبيعة
١٩٣	الحب والمرأة
٢٠٩	المسيح يصلب في القرن العشرين
٢١٥	الدين والثورة
٢٢٣	انسانيون لا متعصبون
٢٣٥	بدلاً من الحب القاسي
٢٥١	اتهامات ظالمة
٢٦٧	لماذا خرج من اسرائيل
٢٨١	شيوعيون وقوميون
٢٨٩	ماذا تتعلم منه ومن رفاقه ؟
٣٠٥	كلمة أخيرة
٣١١	ملحق : وثيقتان

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال
١٩٧١

